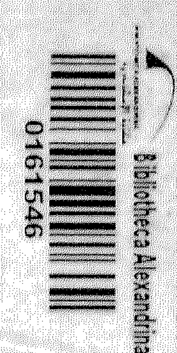
د. رفعت السعيد

حسن البنا

متى كيف لماذا؟





د. رفعت السعيد

حسن البنا

متى...
كيف...
ولماذا؟

الطبعة العاشرة ـ 1997

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب 34494

هـ: 7775872

اخراج: هالـة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

حسن البنا

متى...

كيف...

ولماذا؟

* الإخوان المسلمون والعمال

* الإسلام السياسي من التطرف
إلى المزيد من التطرف

الإهــــداء

.. إلى كل من يعمل من أجل عصر
تنوير جديد لمصر، ويصـد عنهـا
غارات التتار الجدد.

مقدمة الطبعة العاشرة

عشر سنوات

وعشر طبعات

طبعات تمددت من القاهرة إلى بيروت.. عدن.. تونس.. ثم إلى دمشق.

ربما لأن الموضوع متعلق بالحدث الآني، ومثير للحديث.

وربما لأن التأسلم السياسي قد تفجر ليفرض علينا التأمل في منبعه الأول.. جماعة الأخوان.

وربما لأن القول بأن «الارهاب يبدأ فكراً» قد بدأ يقترب من إقناع من كانوا ينكرونه في السابق.

وربما لسبب أو أسباب أخرى.

المهم..

عشر سنوات

وعشر طبعات

وهو أمر غير مسبوق بالنسبة لي. فأقصى ما وصل إليه كتاب لي كان طبعات خمس (تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ــ ١٩٢٥). وهو أيضاً قادر على إستثارة دهشتي وفرحتي.

* * *

ومرة أخرى

أود أن أؤكد أنني كتبت هذا الكتاب.. وسطرت كل حرف فيه متخلياً عن كل غضب سياسي أو اختلاف فكري، فلقد داومت على تعليم طلبتي أن كتابة التاريخ لا تكون تاريخاً حقاً إلا إذا استطاعت — أو حاولت جهد الطاقة ـ أن تستوفي الحقيقة.. الحقيقة. وأن المؤرخ ليس من حقه أن يفرض موقفه (سياسياً كان أو فكرياً) ليخفي أي قدر من الحقيقة.. أو حتى أقل قدر منها. أو يعطي لموقف ما أو حدث ما حجماً أكبر من حجمه، أو تفسيراً ملتوياً أو غير منطقي بهدف الوصول إلى نتيجة محددة.

وهكذا غسلت قلمي من أي غلاف متحيز ـ أو حاولت ذلك جهد طاقتي ـ وأقدمت على كتابة صعبة لأنها يتعين عليها أن تكون في كل مساحة منها موثقة توثيقاً لا يقبل المماحكة أو التشكيك.

ومن فَمِهم وكتاباتِهم ووثائِقهم تحدثت.

ومن الواقع الواقعي أخذت.

فكان هذا الكتاب.

* * *

ومحور كتاباتي عن جماعة الاخوان يقوم على منهج أساسي..

«الارهاب يبدأ فكراً»

فليس بإمكان أحد مثلاً أن يحاكم الصبي الجاهل الذي اغتال فرج فوده وهو لم يقرأ حرفاً واحداً مما كتب.. ولا يحاكم «الفقيه.. الأخواني المعتدل» كما كانوا يسمونه، الذي أفتى بأن فرج فوده مرتد.

ونفس الشيء بالنسبة لمحاولة اغتيال نجيب محفوظ. فالفتى الذي طعنه بسكينه لم يقرأ حرفاً من روايته «أولاد حارتنا» ولا من أية رواية أخرى لنجيب محفوظ أو لغيره، لكنه سمع أن «الشيخ فلان» أفتى بكفر الكاتب والكتابة.

الارهاب يبدأ بفكرة تستعبد الآخر، وترى أنه «الآخر الكافر» لأنها ترى في نفسها أنها وحدها صحيح الاسلام وأن من والاها والاه، ومن خالفها خالفه.

وحول هذه المقولة أو الافتراض، مقولة أو إفتراض أن الارهاب يبدأ فكراً. دارت مساجلات عديدة، قديمة وحديثة، وستظل هذه المساجلات مستمرة ما استمرت محاولات تسييس الدين أو تديين السياسة تلك التي أورثتنا حالة الخلط المعتمد من جانب البعض بين «الدين» المقدس، وبين الممارسات والأفكار «الانسانية» التي قد تخطىء وقد تصيب، والتي كثيراً ما تخطىء بسبب من النزعة التسلطية لأصحابها تلك النزعة التي يتشحون بها إستناداً إلى الزعم بأن فكرهم هو «المقدس» ذاته، وليس مجرد فهم أو تفسير أو رؤية له.

.. هذه المحاور كانت سبيلاً لمحاورات قديمة وحديثة، أورثتني قلقاً، دفعني لخوض غمار هذه التجربة.. محاولة دراسة أولى جماعات تسييس الدين في وطننا العربي.. ودراسة ما ترتب على قيامها من تداعيات وهي تداعيات لم تزل تتداعى لتفرخ لنا كل ما نحن فيه الآن من مواجهات فكرية تارة.. وعنيفة أخرى.

* * *

.. ولقد عارض الكثيرون من كوادر جماعة الاخوان هذه الدراسة. وهذا حقهم بطبيعة الحال. لكن المثير للدهشة أن أحداً منهم لم يحدد موضعاً لاعتراضه، ولم يقدم حجه ناقضة لما نقول به، ذلك أن ما قلنا به كان مستنداً دوماً إلى «وثيقة» موثقة..

ولعل هذا ما أعطى للكتاب قيمته

د. رفعت السعيد
القاهرة ١٩٩٧

مقدمة الطبعة التاسعة

..وتمضي الأيام لتؤكد الحاجة إلى التعرف، والمزيد من التعرف على «التطرف الديني»، منابعه، مصادره، أصوله الفكرية، مناهجه في السياسة، أساليبه في العمل.

تمضي الأيام لتؤكد الحكمة الفرعونية القديمة، بقدر ما هي حكيمة «ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه جيداً من الداخل» وبرغم هدوء عواصف «الإسلام السياسي» أو انفعالها، برغم ادعائها التعقل والانصياع أو إعلانها التمرد و«الجهاد» برغم هذا وذاك يبقى التطرف الديني ظاهرة خطرة، وتستحق التعامل معها دونما أدنى قدر من التجاهل.

وما من تعامل مجد دون أن نتعرف على المنبع والفكرة والأسلوب والمنهج...

ولكن، كيف بدأت علاقتي بهذا الأمر.

في يناير ١٩٧٧، وفي أعقاب أحداثه الصاخبة بدأت زيارتي الأولى لسجن القلعة، كان آخر ما تبقى من السجون المحيطة بالقاهرة التي لم أزرها، ولعله كان ضرورياً أن تكتمل الدائرة بلا نقصان.

وعندما أغلقت الزنزانة وجدت نفسي أمام لوحة جدارية مبهرة، عشرات بل مئات من الرسائل المحفورة على جدار الزنزانة.

عديدون مروا واستندوا إلى هذا الحائط.

عديدون قطعوا ساعات الملل بالتأمل، ثم حسموا أمرهم وقرروا الإسهام في تزيين هذه اللوحة الجدارية، فالتقطوا «الملعقة» الشيء

الصلد الوحيد المسموح به، وحفروا على الجدار رسالة للآتي من بعدهم.

لعلهم كانوا يعبرون عن صمودهم، أو يشجعون أنفسهم أو الآتي من بعدهم.. وعلى الجدار تزاحمت مقولات ورسائل شتى، شيوعيون، ناصريون، تجمعيون، عمال النقل العام، الشيخ إمام، لكن العين عادت وأكثر من مرة لتتوقف أمام مزاحمة جديدة [كل هم يزول]، «أبو الهيثم» [دولة الظلم الساعة ودولة الحق حتى قيام الساعة] «أبو القعقاع»، [إنّا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] «أبو الضرغام».

كل الآخرين أعرفهم، وأكاد أميز عباراتهم وخطوطهم.. إلا أبو الهيثم وأبو القعقاع وأبو الضرغام وإخوانهم..

في سجون أخرى تعرفت على الإخوان المسلمين، تعايشنا، تعاركنا، غرس كل منا نظراته في عمق الآخر، لكنهم صنف آخر ليس كأبو الضرغام، وأبو القعقاع.. وإن كانت خطوط التماس واضحة، وعلامات الامتداد صريحة..

وهكذا تكشفت أمامي لحظات مواجهة بمجهول جديد، أحداثها السابقة مرت صاعقة ومتفجرة وقادرة على إيقاظ حتى غير اليقظين، أحداث الفنية العسكرية، اختطاف الشيخ الذهبي، جماعة التكفير والهجرة، لكنها للأسف مرت دون أن تستثير انتباهنا، ولا أن تكسبنا ضرورة التفكير فيها ودراستها.

.. وتغزو فكرة التأمل في هذه الظاهرة الجديدة عقلي، وأشغل نفسي بها محاولاً انتزاع نفسي من خمول تفرضه عليها زنزانة جرداء، من كل شيء أو مغلقة طوال الوقت، وأتخذ أكثر من قرار لدراستها.

وبعد أشهر تفتح الزنزانة قليلاً، ليس لأغادر السجن، وإنما فقط كي يصبح ممكناً أن أتلقى كتباً وصحفاً وأوراقاً، واختار كل ما له علاقة بهذا الموضوع.. الجديد علي تماماً.

.. وبعد تأمل ليس بالقصير، أجد أنه من الضروري أن أبدأ من البداية الحقيقية، المنبع الأساسي للتطرف الديني وللإسلام السياسي معاً.

فكيف يمكن أن أدرس النتيجة دون الرجوع إلى الأصل.

كيف أتابع مسيرة المريدين التابعين وإن تمردوا وشقوا عصا الطاعة دون أن أبدأ بدراسة الشيخ.

وهكذا بدأت بحسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين.

واستغرق كل ما تبقى من زمن السجن في إعداد مواد هذا الكتاب، وأخرج لأغرق فيه تماماً، وفي الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٧ تسرع الطبعة الأولى بالصدور..

وأدهش لما أثار الكتاب من ضجيج، ربما لأن مثلي قد تجاسر وفعلها، اقتحم قلعة الخصم الذي كان البعض يتصور أنها منيعة ومستعصية، وربما لأنني حاولت جهدي أن أتمسك بموضوعية البحث الأكاديمي، فلم أقل إلا ما أمتلك دليلاً عليه، بحيث وقف غلاة الإخوان أمام الكتاب ساخطين غاضبين بل و«مكفرين» دون أن يمتلكوا جرأة المحاجة أو النقاش..

ثم.. تسع طبعات. وهو أمر لم أكن أحلم به.. ولا أتخيله.

ولعلها وحدها تكفي وتزيد.. دونما حاجة إلى تعليق.

وتمضي الأحداث لتزيد من الحاجة إلى استمرار البحث في قلعة التطرف الديني، روافد المنبع إلى أين تتجه، وكيف تمتلك قدرة على استمرارية متمردة، على تواصل متميز ورافض للأصل، وكيف تستمد الروافد من مقولات «جماعة الإخوان»، بجاهلية المجتمع أداة للهجوم على الجماعة ذاتها لأنها تتعايش مع «الطاغوت» وتتعامل معه.

ومع تفجر عوامل ونوازع التطرف الديني أكتب من جديد، واختار من بين ما كتبت موضوعين لأضيفهما لهذا الكتاب كاستكمال ضروري

له. «الإسلام السياسي من التطرف إلى المزيد من التطرف» و«الإخوان المسلمون والعمال».

أضيفهما ليس فقط لأوضح الفارق بين المنبع وبين ما انتهى إليه روافدها وبين الرائد «حسن البنا» والتابعين المتمردين شكري مصطفى وعمر عبد الرحمن وغيرهما.. وإنما كي أثبت ـ ما أعتقد بصحته من أن «هذا من ذاك» أي أن «الجماعات الإسلامية بتطرفها الذي يبدو مثيراً للحيرة والاضطراب، والذي يحاول «الإخوان» التملص منه والتنكر له، أن هذه «الجماعات» ليست سوى امتداد للخط الذي رسمه البنا، وليسوا سوى امتداداً طبيعياً، ونتاجاً منطقياً لأفكاره ومقولاته.

ويكمن الفارق فقط.. في التكتيك، واختيار الوقت، والقدرة على المداراة.

ولقد يتفق البعض معي أو يختلف، لكن اليقين، أنه يستحيل تأمل الصورة الحالية بكل ما فيها من تطرف غير منطقي دون الرجوع إلى المنبع.. وإلى صاحب الدعوة الأولى «حسن البنا» وهكذا.. وفي هذا الوقت بالذات يبدو صدور هذا الكتاب ضرورياً أكثر من أي وقت مضى..

فنحن إذ نواجه مخاطر «الفتنة الطائفية» وتمزيق وحدة الوطن والمواطنين، لا نمتلك ترف تجاهل دراسة كل ما يجري، والإمساك بتلابيبه..

لا نمتلك تجاهل الحكمة الحكيمة «ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه جيداً من الداخل».

فلنحاول..

د. رفعت السعيد
القاهرة ـ يونيو ١٩٩٠

توطئـــة
متى.. كيف.. ولماذا؟

متى..؟

متى يمكن للكاتب أو للمؤرخ أن يجد الجـرأة كـي يتلمـس طريقـه نحـو تفهم أو دراسة حدث تاريخي ما، أو شخصية تاريخية ما؟

ذلك هو السؤال المحير بالنسبة للكثيرين.

فكثيراً ما يلمع بريق الحدث، في وهلة تاريخية معينة بصورة قد تغـرى الكثيرين بالإسراع بالكتابة، وكثيراً ما تختلط الرؤية السياسية أو الإعلاميـة بتقديرات دارس التاريخ فتؤثر على تصوره لمدى نضـج الموضـوع التـاريخي، واستعداده ـ كموضوع ـ كي يصبح مادة للدراسة التاريخية.

وكثيراً ما يطوى حدث ما، ينضج ويصبح موضوعاً قابلاً لأن يكون محل دراسة، لكنه لا يحظى بذلك بسـبب افتقـاده للـبريق الإعلامـي أو اللمعـان السياسي الذي يحـفز الكثيرين على الاهتمام به.

والحدث التاريخي ـ في تصوري ـ كائن حي، له دورة حياة كاملة، ومن ثم فإن محاولة الاقتراب منه أو تناوله بالدراسة تصبح خطراً على الحقيقة، بل واجتراء عليهـا ما لم يكن قد أكمـل دورة حياتـه وانتصـب أمـام التـاريخ كائناً كامل النمو.

ولقد يبدو مؤلماً بالنسبة للبحث الأكاديمي أن يختلـط البحـث السياسـي بالكتابة الإعلامية بالدراسة التاريخية في كتابات تتناول أحداثاً وموضوعات تاريخية لم يكتمل نضجها بعد، ومن ثم فإنها لم تصبح بعد قابلة لأن تكون محل دراسة تاريخية جادة.

واستجابة لهذا المنطق يثور السؤال.. متى يمكن للباحث أن يقترب من دراسة حياة زعيم سياسي مثل حسن البنا؟ وهل آن الآوان لإخضاع هذه الشخصية الفذة لدراسة متأنية ذات بعد أكاديمي؟

والحقيقة أن الحدث التاريخي يبدو الآن في شخص حسن البنا وهو في قمة اكتماله ونموه، ويقف «الإمام الشهيد» في هذه الآرنة بالذات أمام محكمة التاريخ بكل ما له وما عليه.

الرجل الذي استمتع بأكبر قدر من الإجلال وربما التقديس من مئات الآلاف من الأتباع والمريدين، والذي استطاع ببساطته وحلو حديثه وقدرته على تناول الأشياء ـ كل الأشياء ـ تناولاً وجدانياً صرفاً، أن يأسر هذه الألوف وأن يستجمع بين يديه زمامها.. لا يرضى منها ولا تبخل عليه بأقل من الولاء المطلق والطاعة الكاملة في المنشط والمكرة.

المدرس البسيط، الذي قفز يوماً ما على مسرح الأحداث السياسية في مصر ليلعب ـ وبشكل مفاجئ ـ واحداً من أبرز وأغرب الأدوار، وليتلاعب ـ أو هكذا خيل إليه ـ بالكثير من القادة والزعماء والقوى ـ محاولاً إيهام الجميع وربما إيهام نفسه بأنه أصبح ممسكاً أيضاً بزمام هؤلاء قادراً على اللعب معهم والتلاعب بهم باقتدار ودهاء.

الشيخ.. الذي حظي بكل الحب من أتباعه ومريديه، نال الكثير، الكثير من الهجوم من خصومه السياسيين والفكريين.

وشتان ما بين «الإمام» «المرشد» «الرجل القرآني» «الرجل الرباني» وغيرها من عبارات التبجيل والتقديس وبين «حسن راسبوتين» و«الشيخ الدجال» وغيرها من عبارات التهجم السياسي التي ربما جاوزت الحد حتى بمعايير صحافة وتقاليد العمل السياسي في الأربعينات.

الآن.. ـ وليس قبل ذلك ـ تكتمل دورة الحدث التاريخي، ينضج، يعطي ثماراً، يسترخي في رحم الحقيقة، مكتسباً عمقه التاريخي، ويصبح بإمكان الباحث أن يقترب منه، وأن يحاول أن يدرسه أو على الأقل أن يتفهمه.

وبالأمس ـ ربما منذ بضع سنوات ـ كان الأمر صعباً، كان من الضروري للبحث مهما كان أكاديمياً أن يختلط بوابل الانتقاد السياسي واللغو الإعلامي، ولعله كان مهدداً أيضاً بافتقاده لعمقه التاريخي ولامتداده المستقبلي، ولربما تهدده خطر تصور أن دعوة «الشيخ البنا» قد توارت تحت وطأة الضغط السياسي والبوليسي إلى غير رجعة، ولربما وقع الباحث في مخاطر استصدار أحكام عديدة مبنية على هذا الوهم.

الحدث التاريخي يكتمل، ينشأ، ينمو، يقهر، يخضع، يخطئ، يعود من جديد، وهكذا يمكن للباحث أن يجد سبيله للبحث عن الحقيقة عبر كل هذه المنحنيات، فبغير الغوص في المنحنيات المتعرجة صعوداً وهبوطاً، وبغير البحث عن المتناقضات والسير بها ومعها عبر مسارات الصراع والصدام نشاطاً وخموداً، بغير هذا تبدو الحقائق مسطحة، وما من حقائق مسطحة، فالحقيقة ـ خاصة إذا ما كانت متعلقة بعمل سياسي فاعل ـ لا يمكنها مطلقاً أن تكون بغير عمق.. ولا يمكن التوصل إليها عبر خط مباشر يصل بين نقطتين.

والآن.. وجماعة الإخوان المسلمين تعاود نشاطها وتصدر أدبياتها وترفع أعلامها من جديد، تبدو صورة «الإمام المرشد» مكتملة الأبعاد التاريخية. وتبدو مغرية تماماً للباحث الأكاديمي كي يحاول الاقتراب منها والتعرف عليها.

كيف؟

ذلك هو السؤال الآخر!

فكيف لمثلي أن يقترب من هذا الموضوع الشائك، فشبهة الخصومة السياسية واردة لا محالة، بل لعلي لا أخفيها.

ولقد يتصور البعض أن واحداً من كتاب اليسار قد قرر أن ينصب مشنقة جديدة للإمام الشهيد، ولقد دفعني خوفي من مثل هذا التصور الخاطئ إلى التردد في تناول هذا الموضوع. ولعله دفعني إلى تأجيل الخوض فيه مرة

ومرات. فعندما قررت إصدار سلسلة «قادة العمل السياسي في مصر» كانت الصورة المكتملة للشيخ البنا كموضوع تاريخي تلمع في مخيلتي، لكن شبهة التحيز أبعدتني لبعض الوقت.

وتمضي الأيام... وتحمل معها جديداً في كل يوم يحفزني إلى التفكير في هذه الموضوع.

على الأقل كان يتعين عليّ، وعلى كل مشتغل بالسياسة أو بالفكر أو بالتاريخ، أو كل من يشغل باله وفكره مستقبل مصر وقدرتها على خلق فكر حضاري متطور يليق بنا كآدميين يعيشون الثلث الأخير من القرن العشرين، أقول كان يتعين عليّ أن أمعن فكري في ظاهرة «الإخوان المسلمين» وما انبتته في مصر من تيارات قد تكون امتداداً لها أو تمرداً عليها، وفي ظاهرة «التعصب الديني» الآخذة في النمو المطرد خلافاً لكل قوانين العصر، ولكل منطق متعقل أو عاقل.

على الأقل، كانت تشدني إلى هذا الموضوع تلك الاتجاهات الجديدة بين الشباب، وجماعات التكفير والهجرة وغيرها، وعلاقة ذلك كله بالدعوة التي وهب الشيخ البنا حياته من أجلها.

من هو؟ وما هي حقيقة أهدافه؟ وما هي مسؤوليته عن كل ما حدث، وعن كل ما يحدث، وعن كل ما سيحدث؟

مرة أخرى كيف؟

كيف يمكن لمثلي أن يقتحم هذا الميدان الصعب، وكل تناول إيجابي سيعد تنازلاً فكرياً تجاه خصم سياسي وفكري عنيد، وكل تناول سلبي سيعد قصاصاً من خصم فكري وسياسي أو تحاملاً عليه.

ولست أسوق ذلك كله كي أخلي مسؤوليتي تجاه موضوع هو بذاته بالغ التعقيد، فقط أريد للقارئ أن يثق بأنني سأبذل كل جهدي محاولاً أن أتلمس طريقي نحو دراسة موضوعية تماماً، فأنا نفسي في اشد الحاجة إلى هذه الموضوعية في التنقيب والبحث والتقصي، آملاً أن أعثر على خيوط

تقودني نحو فهم سليم لهذه الظاهرة.. فهم أنا بحاجة إليه وبحاجة أكثر إلى أن يكون صحيحاً ودقيقاً وموضوعياً، وإلا اختلت موازين كثيرة في مواقفي تجاه تيار أعتقد بأهميته، بقدر ما أعتقد بخطورته.

لماذا؟

لماذا إذن يبدو هذا الموضوع ملحاً الآن؟.

قلت أن الموضوع التاريخي كائن حي ـ أو هكذا أعتقد ـ فامتدادات الفكر الذي اجتهد الشيخ البنا في غرسه، تتجدد الآن بصورة ملحة، ولعلها أيضاً تتشعب بصورة تقلق أصدقاء الدعوة وأعدائها معاً، فهي مع تشعبها تتخذ مسارات متطرفة بل وهوجاء في أحيان كثيرة، ومن ثم فإن أية محاولة جادة لتفهم الامتدادات الحالية بتشعباتها وشظاياها تصبح مستحيلة بغير إلقاء نظرة فاحصة إلى عمق البئر الذي انزاحت من مياهه كل هذه الموجات جميعاً.

وثمة لماذا أخرى تلح كي تفرض نفسها.

لماذا حسن البنا بالذات...؟

لماذا الشخص وليس الجماعة؟

ولست أريد أن أهرب إلى الإجابة السهلة متعللاً بأن الكتاب هو مجرد حلقة في سلسلة من كتب عن قادة العمل السياسي وليس عن الجماعات والأحزاب السياسية.

فالإجابة الحقيقية هي أن حسن البنا لم يكن مجرد منشئ أو مؤسس لجماعة، ولم يكن مجرد قائد لها، وواضع لكل لبناتها، ومحدد لأدق معالم طريقها.. بل كان أكثر من ذلك بكثير بالنسبة للجماعة ولكل فرد من أفرادها.

والأمر يصعب تصويره، فالولاء الصوفي للإمام أو الشيخ يصعب تحديد حجمه ومغزاه كتابة، مهما استطالت الأسطر ومهما استعارت كل

المترادفات البلاغية، ويصبح الأمر أكثر تعقيداً عندما يختلط خضوع المريد لشيخه، والتزامه بقسم البيعة، بالطاعة الصماء، التي تهدد الناكص عنها بالخروج ـ ليس فقط من ثياب عضو الجماعة أو المريد ــ بل ومن ثياب المسلم أيضاً.. عندما يتجمع الوجد والحب والخضوع المطلق والثقة الكاملة ليختلط بالعمل السياسي المليء بالمناورات والتقلبات.

هنا ترتبك المقاييس ويصبح الربان الديني ــ السياسي شخصية فريدة ويصبح اقتلاع ما هو شخصي مما هو جماعي أمراً مستحيلاً.

والغريب أن دراسة الجماعة وتاريخها إذا ما انحصرت في إطار بعيد عن الشيخ تصبح قاصرة عن الوفاء بفهم قد يكون أكثر تكاملاً لو أن الأضواء ركزت على الشيخ الذي استجمع بين أنامله كل خيوط الجماعة، واستطاع أن يحركها ويحرك معها قلوب مريديه باقتدار وبراعة.

والرحلة كلها ثلاث وأربعون عاماً لا تزيد (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩) صعد فيها الشيخ الجبل.. واحتطب لنفسه ولجماعته كل ما تصور أنها، وأنه، بحاجة إليه من زاد، لرحلة تخيل أنها قادرة على تحقيق طموحه، ذلك الطموح الذي لم يكن قاصراً على شخصيته أو جماعته أو حتى وطنه بل امتد ليشمل كل مسلم في هذا العالم.. فالإسلام عند الشيخ وطن بل لعله الوطن الوحيد.

واحتطب الشيخ كثيراً من النجاحات والنفوذ، وبدا كأن التيار يسايره ويسير وفق هواه، لكنه احتطب شوكاً كثيراً.. وكانت النهاية على يد قوى غامر معها، ولمصلحتها، متصوراً أنه يروضها لمصلحة الدعوة، فإذا بها تستخدمه أمداً، وما أن بدت منه بوادر التمرد حتى انهالت عليه بالمطارق.. ثم اغتالته.

الرحلة جد قصيرة، ثلاث وأربعون عاماً، لكنها حافلة، وغنية، وتستحق كل لحظاتها أن تدرس بعناية وتأمل.

* * *

وتبقى أدوات الاستفهام تلح على الكاتب.

تبقى متى؟ وكيف؟ ولماذا؟ تثير العديد من موضوعات البحث. الشيخ والجماعة متى نهضا.. كيف حققا كل هذا النجاح؟ ولماذا حققاه ولماذا كل الصعود والهبوط؟

أدوات الاستفهام هذه، هي عذاب الباحث، تحيط به، تمسك بتلابيبه، ترغمه على محاولة الإحاطة بموضوع دراسته، تجنبه التسطيح، تدعوه إلى المزيد من التردد قبل إصدار حكم ما.

ولا حيلة أمام الباحث فأدوات الاستفهام هي سبيله نحو الفهم الصحيح.. وطريقه إلى البحث الجاد، وكلما أشعرته بالضيق من إلحاحها كلما قادته للاقتراب من الحقيقية.

ولعلها أرقتني كثيراً في هذا الموضوع بالذات. ولعلي أكون قد أشبعت فضولها.

الصبي ... شيخاً

في السنوات الأولى من القرن العشرين، كانت مصر تتثائب، وتوشك أن تتنفس بعد مأساة هزيمة العرابيين، وباختصار.. كانت مصر تجد نفسها، تحقق ذاتها، أو على الأقل تجد القدرة لكي تقرر ذلك.

وهكذا شهد مطلع القرن العشرين تحركاً حضارياً عارماً، حاول أصحابه ـ كل في مجاله ـ أن يوقظ قطعة من الأمل في وجدان هذا الشعب.

فالأحزاب السياسية بمختلف اتجاهاتها ـ تتوالد سريعاً، وبكثرة: حزب الأمة، حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية، الحزب الوطني، الحزب الوطني الحر، حزب المقاصد المشتركة..الخ.

والصحافة تكاثرت وتنوعت، والمسرح شهد هو الآخر ازدهاراً، والتعليم ارتبط في وجدان مصر بطموحها نحو الاستقلال، فنهضت القوى الوطنية بحركة تأسيس «الجامعة الأهلية» وبحركة التعليم الليلي والحرفي.

والتنوير كمعركة، وكطموح.. كان هو أيضاً سبيلاً أساسياً من سبل إيقاظ مصر، وبدأت عبارات مثل: حرية الفكر، حرية التعبير والاعتقاد، ترد على اللسان المصري، ربما في تردد لكنها كانت ترد على أية حال.. ولعل شبلي شميل، وهو واحد من رواد معركة التنوير ـ قد لخص طبيعة هذه المعركة في عبارة واحدة، موجزة قاطعة.. «الحقيقة أن تقال، لا أن تُعلم».

فالكثيرون يعرفون كيف يتلمسون طريقهم نحو الحقيقة لكنهم لا يعرفون كيف يفتحون فمهم بها، خشية المجابهة مع القوى الرجعية، وهي كثيرة وذات نفوذ.

وكانت مصر بحاجة إلى «هزة» عنيفة كي تستيقظ، وتخلع عن عينيها غشاوة الهزيمة والاستسلام اليائس، ثم تنهض وتمضي من جديد.

وتقدم الكثيرون من المفكرين يحاولون الإسهام في إحداث «الهزة» في الوجدان المصري. يقول شبلي شميل تعقيباً على الضوضاء الفكرية التي تلت صدور كتابه «فلسفة النشوء والاتقاء»: «فهذه الرجة التي حصلت اليوم هي المقصودة مني في ذلك الحين، لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون»[1].

ولم يكن ذلك الرعيل من رواد حركة التنوير بواهم أو بمبالغ في قدراته أو في قدرات مصر ذلك الحين، لكن هذه «الرجة» في الأفكار كانت ضرورية، هكذا يؤكد شبلي شميل «فما كنت أطمع بأن أرد الناس إليّ في هذا الزمن القصير، وأنا لا أجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات، بل أني قصدت مباغتة الأفكار للفتها إلى غير مألوفها. وإن كنت لا أجهل أن إلقاء حجر في المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة.. إلا أني لا أجهل أيضاً فعل العجين المخمر، فإن أقل ما يعلق بالعقل حينئذ من أثر الأفكار المخالفة ينمو فيها غالباً بسرعة الاختمار نفسه خصوصاً إذا صادف استعداداً في النفوس كامناً فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليه»[2].

... وهكذا كان.

وإذ كان الحوار الفكري بين المتعلمين أو مدعي العلم لا يزال منحصراً تماماً في مجادلات سفسطائية تجاوزها الزمن من نوع «هل الأرض كروية؟... وهل تدور؟» يكتب يعقوب صروف في المقتطف قائلاً: «أن موضع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم وأوضح من الصبح لذي عينين، وتحققت صحته لكل ذي عقل سليم يطالع

---

(١) د. شبلي شميل ـ فلسفة النشوء والارتقاء ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة المقتطف (١٩١٠) صفحة د.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨

ويفهم»[٣]. لكن الدنيا تقوم لهذه الكلمات ولا تقعد.. فقد تصدى له رجال الدين معلنين تكفيره ومروقه، وخاضوا ضده معارك قلمية وخطابية، وجذبت هذه المعركة الكثير من الأطراف، حاول بعضها دحض العلوم الحديثة أصلاً باعتبارها «كفر وبهتان»، وتبلور في المقابل تيار من المتعلمين، أمثال عبد الله باشا فكري، ومصطفى باشا رياض، وعبد الله أبو السعود، يحاول أن يدفع هذه الهجمة عن العلوم الحديثة، ووجدوا أن السبيل الوحيد، لذلك ـ كما يقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن ـ هو «إحكام المناورة لتأييد قضية الموافقة بين العلم والدين حتى لا يتعطل ـ بحركة المحافظين ـ سير العلم الطبيعي وتقدمه في البلاد العربية التي كانت ولا تزال في أشد الحاجة إليه»[٤].

..وبينما «المحافظون» يشددون النير على العلم الحديث وعلى حركة التنوير، و«المعتدلون» يلجأون إلى المناورة، إذا بفارس يقتحم الميدان شاهراً سيفه، ليقلب المائدة على الجميع.. طارحاً للنقاش موضوعاً جديداً تماماً لعل مجرد ذكره كان كافياً لأن يثير القشعريرة في أبدان المتزمتين والمعتدلين على السواء: «نظرية النشوء والارتقاء».

وربما كان شبلي محقاً عندما أكد أن الأمر يحتاج إلى «رجة» في الأذهان والعقول، لكن الشجاعة الحقيقية تكمن في أن يتصدى هو لتحقيق هذه «الرجة» مقدماً نفسه للقارئ قائلاً «إليك أكتب أيها القارئ العاقل، العاقل المتأمل، وما أطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة عميقة، بل أطلب منك عقلاً حلت قيوده، وتفتحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها»[٥].

---

[٣] المقتطف ـ مجموعة عام ١٨٧٦.

[٤] محمد عبد الغني حسن ـ عبد الله فكري ـ سلسلة أعلام العرب، ص١٩ وما بعدها.

[٥] مجلة البصير ـ مجموعة عام ١٨٧٨ ـ مقال «القضاء على القضاء».

وعندما يصدر شميل كتابه «نظرية النشوء والارتقاء» يشهق الجميع فزعاً من كتاب طبع منه خمسمائة نسخة فقط. وتتركز هجمات الجميع، المحافظون والمعتدلون معاً، ضد المؤلف الذي استمر مصمماً على مواصلة إقلاق ساكني مياه المستنقعات الراكدة، لكن شميل يرد عليهم في هدوء «لست أخشى تخطئة الناس لي إذا كنت أعرفني مصيباً: ولا يسرني تصويبهم لي إذا كنت أعرفني مخطئاً» بل هو يواصل تحديه مؤكداً أن الأمر ليس مجرد طرح نظرية عن التطور ولكن «القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون»[٦].

... ومرة ثانية يشهق المحافظون والمعتدلون فزعاً.

وتحدث «الرجة» المطلوبة، ويواكبها مفكرون كثيرون: فرح أنطون في مجلة «الجامعة»، سلامة موسى بجهوده المتعددة الجوانب، مصطفى حسنين المنصوري بكتاباته المستنيرة عن الاشتراكية.. وغيرهم.

والهدف واضح.. أن يشرق على مصر مطلع القرن العشرين عصر تنوير جديد. أن تقال «الحقيقة»، أن يقف المفكر والعالم والمثقف والكاتب من الحضارة والمجتمع والفلسفات والتقاليد موقفاً انتقادياً دون أن يتحسس رقبته مع كل كلمة يقولها.

ويتصدى البعض من رجال الدين لحركة التنوير هذه.. وتشهد مصر حركة إرهاب فكري مخيفة، تناثرت فيها الاتهامات بالكفر والإلحاد، وأصبح التكفير هو السلاح الأساسي لإرهاب كل من يفتح فمه بكلمة جديدة، أو يحاول ذلك، ثم تتصاعد الحملة الشرسة لتصل إلى أسوأ مراحلها عندما تنتهز فرصة أن بعض دعاة حركة التنوير كانوا أقباطاً (سلامة موسى) أو مسيحيين شواماً (شبلي شميل ـ فرح أنطون ـ نقولا الحداد) لتلجأ ـ وبإيعاز من الحاكم الماكر كرومر ـ إلى شعارات الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط من ناحية وبين المسلمين والمسيحيين الشوام من ناحية أخرى.

---

[٦] د. شبلي شميل ـ فلسفة النشوء والارتقاء ـ المرجع السابق ص٢٧.

وتعود مصر لتسمع أصواتاً خانقة تتبادل الهجوم على الأديان، والطعن على معتنقيها.

وتوشك إرهاصة التنوير أن تختنق، وأن تقع فريسة للمخطط الاحتلالي الرجعي، عندما تتصاعد حملات الهجوم الديني المتبادل إثر اغتيال الورداني لبطرس غالي باشا، ويحاول المتعصبون تحويل الأمر من مجرد قيام وطني يسلك مسلك الإرهاب باغتيال رئيس للوزراء يسلك مسلك الخيانة، إلى قيام مسلم بقتل قبطي.

وينفخ بعض رجال الدين من المسلمين والأقباط معاً في نيران الفتنة، فهم المستفيدون أولاً وأخيراً، والضحية أولاً وأخيراً هي معركة «التنوير» التي كانوا يخشونها خشية الموت. وفي مجابهة الخطر يتقدم دعاة التنوير خطوة في الهجوم، وكتب شميل «فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية في سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم»[٧]. ويمضي شميل في هجومه عنيفاً «ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب في يد أولئك الذين اتخذوها تجارة من كل دين وملة، الذين علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الأديان وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم، ولو داسوا الدين بالأقدام». والإدانة من جانب شميل موجهة لدعاة الفتنة الطائفية من الجانبين «يا مقلنسي الجهل ومعممي الضلال أين رأيتم في أديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا رؤوس أتباعكم الجاهلين ببذور التفريق بين الناس إلى حد التباغض»، بل هو يمضي في هجومه إلى ما هو أشد «فلو قامت الإنسانية في كل الدنيا ونشرت لحم رؤساء الأديان ـ الذين هم وحدهم المسؤولون عن كل الفظائع التي ارتكبت ولا تزال ترتكب باسم الدين ـ نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام لما جنوه اليوم على الإنسان»[٨].

---

[٧] من مجموعة كتاباته ـ مطبعة المعارف ـ ٧ ـ د. شبلي شميل ـ الجزء الثاني (١٩٠٨) ص ٦٢.

[٨] الأخبار ـ مجموعة عام ١٩٠٩ مقال ضحايا الجهل.

ولم تكن المعركة معركة شميل وحده، بل معركة تيار متكامل يدعو للتنوير وللعقل.

فهناك كتابات ولي الدين يكن التي سارت على نفس النهج، والتي حظيت بنفس القدر من الهجوم العنيف من رجال الدين.. يقول ولي الدين يكن «أن العامة تحب الشيء إذا حببه إليها زعماؤها، وتبغضه إذا بغضه إليها زعماؤها.. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لا يرغبهم في الشورى شيء مما هم منقطعون إليه.. فهم يحبون أن يظلوا محتكمين على الرقاب، وأن يبقوا عيالاً على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملأوا أكياسهم»[٩].

وعندما يتعرض الشيخ جميل الزهاوي لاضطهاد حاكم العراق لأنه دعا إلى تحرير المرأة ونزع حجابها، يكتب ولي الدين يكن.. «وبعد فيا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم.. يحزنني خسرانكم، ويشركني معكم مصرعكم أن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان السلطان عبد الحميد يقتل الناس وينفيهم وينهب الخزائن.. وكل هذا حرام في دينكم فما قام في وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً.. ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حراً يتكلم، فهم يهاجمون كل من لا يكون من فريقهم.. يملأون الدنيا صخباً وضجة.. يكفرون الساعل والماحظ والآكل والشارب، حتى لقد زهدونا بالحياة وهم أشد الناس بها تعلقاً، فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم وأنتم لا تعلمون»[١٠].

ولعل هذه النماذج تكفي لتبين شراسة المعركة وعنفها، ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نوضح أن رجال الدين من الطرفين المسلم والمسيحي قد جاوبوا هذا الهجوم بما هو أعنف وأشد، ولعل الخاسر في هذه المعركة

---

[٩] ولي الدين يكن.. المعلوم والمجهول. الجزء الثاني ص١٥٩

[١٠] ولي الدين يكن ـ التجارب.ص٢٣

الضارية كانت حركة التنوير.. مصر، ولعل الخسارة قد لامست الدين ذاته حيث صمم البعض من رجاله أن يضعوه ـ اعتسافاً ـ في مواجهة كل جديد، وكل عقلاني، وكل علمي.

والمشكلة الحقيقية أن دعاة التنوير كانوا يجابهون وهم يخوضون معركتهم هذه سيلاً متراكماً من الكتابات «السلفية» التي تحيل الدين إلى أساطير تسحق كل ما في العقل من قدرة على الفهم، وتحبط كل ما فيه من وعي أو علم.

الشيخ محمود الشرقاوي يكتب مستجيراً[11]. «أي شقاء فكري وروحي يجده دعاة التقدمية الفكرية في عالمنا العربي عندما يرون في بعض الكتب التي يطالعها الناس ويتناقلون ما فيها.. أن «نوحاً» بنى سفينة من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة ما بين السماء والأرض ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل؟ وأي شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقدمية في الفكري الديني ما يقرؤه الناس في عالمنا العربي كله، فيجدون في كتاب من كتب التفسير للقرآن الكريم «حديثاً» منسوباً لحذيفة، ومرفوعاً للنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إن يأجوج ومأجوج أمة، وكل أمة أربعمائة أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف رجل ذكر من صلبة كلهم قد حمل السلاح، وهم من ولد آدم في خراب الأرض.. وهم ثلاثة أصناف: صنف مثل شجرة الأرز، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة، وهؤلاء لا تقوم لهم الجبال ولا الحديد، وصنف منهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام وساقتهم في خراسان يشربون آبار الأرض وبحيرة طبريا، ومنهم من تنبت له مخالب في أظفارهم، وأضراسهم كأضراس السباع»[12].

---

[11] مجلة الهلال ـ مجموعة ١٩٠٨.

[12] تفسير الخطيب الشربيني. الجزء الثاني. ص٣٢٨ ـ ٣٣١.

ولكنه دينٌ قد أردت صلاحه.. أحاذر أن تقضى عليه العمائم.

وهكذا تخطى الأمر دعاة أحداث «الرجة» في وجدان الأمة وامتد حتى إلى الشعراء الوادعين المعتدلين.

وعلى أية حال، فلم تمض سوى سنوات قلائل حتى توجه سهام الرجعيين إلى صدور أزهريين أصلاء يتهمون لمجرد دعوتهم للتجديد والتنوير وإعمال العقل بالإلحاد والمروق.. الشيخ علي عبد الرازق بسبب كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، والشيخ طه حسين لأنه عنى «بتطبيق منهج الشك الديكارتي على دراسته للأدب العربي، ولم يتردد في أن يتشكك في أصالة الشعر الجاهلي، بل وفي أن ينثر الشكوك حول بعض المسلمات الدينية وذلك في كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي أصدره عام ١٩٢٦»[١٣]. وخرجت مظاهرات الأزهريين الغاضبة تطالب برأس الشيخ وبحرق كتابه، ولعل المظاهرات كانت من العنف بحيث اضطر زعيم مستنير كسعد زغلول أن يتراجع أمامها فيقول في محاولة لتهدئتها «هبوا أن رجلاً مجنوناً يهذي في الطريق فهل يضير العقلاء شيء من ذلك»[١٤].

ولكم كان الأمر قاسياً على طه حسين أن لا يجد الزعيم سبيلاً لإنقاذ رأسه من مقصلة المتعصبين إلا الدفع بجنونه.

وهكذا تقف الحركتان وجهاً لوجه.

وذلك رغم أنه قد ظهر في الميدان فارس جديد.. يفهم الدين فهما صحيحاً وعميقاً، ويقدر للتنوير أهميته وضرورته، ويحاول أن يمزج بين الإثنين مقدماً لمصر صيغة جديدة للانطلاق، ذلك الفارس هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الذي كان «أبداً داعٍ إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين وعلى العقل معاً حتى يستطيع المسلمون أن يواجهوا الأوضاع الجديدة في

---

[١٣] مارسيل كولومب. تطور مصر ١٩٢٤ - ١٩٥٠ - ترجمة زهير الشايب (١٩٧٢) ص١٥٩.

[١٤] الكاتب.. يناير ١٩٧٤ - مقال صلاح عيسى - طه حسين ومحنة العقلانية في مصر.

المدينة الحديثة مقتبسين منها ما يفيد وينفع ، وإذا كان المسلمون لا يستطيعون أن يعيشوا في عزلة فلابد لهم أن يتسلحوا بما يتسلح به غيرهم وأكبر سلاح في الدنيا هو العلم»[(١٥)].

..وما يهمنا من ذلك كله هو محاولة تقديم جانب من صورة المناخ الفكري والعقلي الذي نشأ فيه الفتى حسن أحمد عبد الرحمن البنا «الساعاتي».

وبينما كانت مصر تحاول أن تجد ذاتها.. وإذ ترتفع صيحة «تحيا مصر» وشعار «مصر للمصريين» يكون من الغريب أن يستقبل بعض المتدينين ورجال الدين هذه الصيحة بالنفور والغضب. إذ اعتقدوا أن «المصرية» هي نقيض «الإسلامية»، وأن استقلال مصر هو مجرد مؤامرة ملحدة ضد الباب العالي العثماني حامي حمى الإسلام والمسلمين.

وحتى في صفوف الحزب الوطني أكثر التجمعات المصرية راديكالية كانت مسألة «الخلافة الإسلامية» وتناقضها مع «المصرية» مسألة ملحة.. وفاعلة بل وتوشك أن تقسم الحزب ذاته.

وفي البداية كان مصطفى كامل في المناورة بين السلطان العثماني والإنجليز محاولاً أن يكسب لوطنه.. وكان يؤكد أنه «ما دامت الدولة العلية قوية سليمة دام أمل المصريين في الخلاص كبيراً عظيماً»[(١٦)].

لكنه ما لبث أن أدرك وبوضوح أن استقلال مصر يعني انتزاع حريتها ومقدراتها من الخليفة العثماني ومن الإنجليز معاً، فصاح بأعلى صوته «رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا، وما هذه التهمة إلا تصريح بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء، فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها»[(١٧)].

---

(١٥) الأخبار - ٢٧ - ٢- ١٩٧٣. مقال الشيخ احمد حسن الباقوري. هذا الرجل لماذا يظل هدفاً للمهاجمين؟

(16) Kamel, M. Egyptiens et Anglais - Paris, 2em edition (1906) pp. 181

(١٧) علي فهمي كامل - سيرة مصطفى كامل. الجزء الأول. ص ٣٧٨

لكن الشيخ عبد العزيز جاويش أحد أقطاب الحزب، ورئيس تحرير مجلته لفترة طويلة، كان يرى رأياً آخر إذا كان يؤكد في حسم أنه «لا وطنية في الإسلام» ويتمسك بشعار «الجامعة الإسلامية» وهو اتجاه ينادي بحق الأمة المصرية في الحرية والدستور والجلاء في ظل وحدة العالم الإسلامي ممثل في الدولة العثمانية التي يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها، فإن في تمزيقها ضياع الوطن كله»[١٨].

وكان الحزب الوطني يعاني كثيراً من هذا التمزق.. بل كانت دعوة الشيخ جاويش هذه خليقة بأن تفقد الحزب تأييد عناصر كثيرة[١٩]. وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل يقاوم هذه الدعوة وينقدها نقداً شديداً، وهو يشير في مذكراته إلى الشيخ جاويش قائلاً: «إن حبه للدولة العثمانية أدى به إلى نسيان مصر ومصالحها، فأصبح يقول أن مصر للمسلمين لا للمصريين وقد وصلت الحالة بالشيخ جاويش إلى أن ينصحني بعدم حمل الدبوس الذي عملناه في جنيف والمكتوب عليه مصر للمصريين والذي قررنا أن يكون شعار المصريين المخلصين، وقال أن منظره في صدري وصدر إخواني يغيظ العثمانيين، كما تغيظهم محافظتي على قومية مصر»[٢٠].

وفي موضع آخر من مذكراته يقول محمد فريد: «أن جاويش لم يزل يحارب فكرة الوطنية في الإسلام، وقد قال أخيراً في برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية قائلاً أنه لا وطنية في الإسلام»[٢١].

ولا تبدو أفكار الشيخ جاويش بعيدة عن كلمات كتبها الشيخ حسن البنا بعد قرابة الربع قرن.. «أن كل قطعة أرض ارتفعت فيها راية الإسلام هي وطن لكل مسلم يحتفظ به، ويعمل له، ويجاهد في سبيله»[٢٢].

---

[١٨] أنور الجندي ـ عبد العزيز جاويش. ص٨٣

[19] **Ahmed J. The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, Oxford. (1960) p.78**

[٢٠] محمد صبيح. مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية ـ ص٣٨٩.

[٢١] المرجع السابق.

[٢٢] حسن البنا ـ قومية الإسلام (مقال).

وعندما قام كمال أتاتورك بثورته، فإنه لم يهز عرش السلطان الفاسد فحسب، بل هز وجدان الكثيرين ممن تعلقت أبصارهم وآمالهم بالخلافة العثمانية كحصن أول وأخير للمسلمين.

وإذا كان بعض الكتاب قد ألمح إلى أن إنهاء الخلافة العثمانية قد مكن الكثيرين من دعاة التجديد والإصلاح من محاولة تقديم فهم إسلامي إصلاحي، ومكن بعض رجال الدين من مزج «العقيدة الدينية بالفكرة الوطنية، ومن أن يعبروا عن دعوتهم إلى الإصلاح بعبارات أكثر وضوحاً وصراحة عن ذي قبل»[٢٣]، وألمح آخر إلى أن انهيار الخلافة العثمانية «قد دمر الأسس الواقعية والجغرافية للجامعة الإسلامية وشجع النزعات الوطنية والقومية»[٢٤]. بل وشجع إلى حد ما ولمرحلة معينة النزعات العلمانية ودفعها إلى السطح[٢٥]. فإن انهيار الخلافة قد أوجد لدى البعض نزوعاً للعمل الدائب دعوة لها والأمل الذي لا يخبو في استعادتها.

وقد أحاطت بالدعوة إلى الخلافة شبهات موضوعية تتعلق بطموح الملك فؤاد وحاشيته من شيوخ الأزهر... الأمر الذي دفع أحد كبار شيوخ الأزهر وهو الشيخ الأحمدي الظواهري إلى أن يقول «لم يكن التمهيد لانعقاد مؤتمر الخلافة بالقاهرة يحضره مندوبون من جميع الأمم الإسلامية أمراً بسيطاً هيناً كما ظن علماء الأزهر في بادئ الأمر. فقد امتد زمن الدعوة إليه من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٦.. أما سبب التأخير فيرجع إلى أنه قد دخلت نفوس بعض كبار المسلمين وأمرائهم في الأمم الإسلامية الأخرى شكوك من جهة مصر، فقد ظنوا أن علماء الأزهر إنما يقصدون من مؤتمر القاهرة الذي يدعون إليه أمراً آخر له باطن غير ظاهره، وأنهم إنما يثيرون مسألة حماية الخلافة لا خوفاً على الخلافة وإشفاقاً على كلمة الإسلام كما يدعون بل لغرض آخر في

---

(23) **Khadduri, M. Political Trends in the Arab World, London (1972) P. 55**

(24) **Berger, M. The Arab World Today, New York (1964). 318.**

(25) **Khadduri, Ibib. P. 70**

فؤاد أم موسى هو نقل الخلافة من شاطئ البوسفور إلى شاطئ النيل وضم أريكة الخلافة إلى أريكة الملك في عابدين»[٢٦].

ويمضي الشيخ الظواهري «ومن أجل ذلك كانت إجابات دول الإسلام على دعوة علماء الأزهر لعقد مؤتمر في القاهرة إجابات فاترة، وكان معظمها استفساراً عن مرامي المؤتمر وغاياته، ومن الذي يراد تنصيبه خليفة بدلاً من الخليفة المعزول»[٢٧]. وينعقد مؤتمر الخلافة ليفشل.. وليقرر المجتمعون أنه ليس بإمكانهم «وهم أقلية بين شعوب الإسلام أن يتخذوا قراراً في شأنهم يهم المسلمين جميعاً»[٢٨].

وتكون قصة الخلافة سبباً في معركة ضارية خاضها شيوخ أزهريون ضد شيخ أزهري. ففي إبريل ١٩٢٥ أصدر الشيخ علي عبد الرازق القاضي الشرعي بمحكمة المنصورة كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» مؤكداً أن مبدأ فصل الدين عن الدولة يتطابق مع تعاليم القرآن والسنّة، وأن الدين هو في جوهره روحي خالص ليست له أية علاقة بالسلطة السياسية، كما أنه مجرد من السلطة التنفيذية الزمنية، ويرى أن مبدأ الخلافة لا يرتكز لا على القرآن الذي لم يشر إليه على الاطلاق ولا على إجماع صحابة الرسول، فقد كانت رسالة محمد دينية قبل كل شيء، وظلت بعيدة عن أي شكل من أشكال الحكم وعن أية سلطة تنفيذية[٢٩].

وكان نصيب الشيخ رداً على كتابه هو ما نعرف من الاتهامات المقررة على كل داع للتجديد، وهي اتهامات أقلها المروق والكفر والإلحاد.. وقرار من هيئة كبار العلماء «حكمنا نحن شيخ الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة العلماء بإخراج الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الأزهر

[٢٦] من مذكرات شيخ الإسلام الظواهري ـ السياسة والأزهر ـ مطبعة الاعتماد (١٩٤٥) ص١١.

[٢٧] المرجع السابق. ص١٢٣

[٢٨] المرجع السابق ص٢١٧

[٢٩] علي عبد الرازق ـ الإسلام وأصول الحكم ـ القاهرة (١٩٢٥).

والقاضي الشرعي.. ومؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم من زمرة العلماء تعلن الأسباب بعد إعدادها فيما بعد»[٣٠].

.. وتظل فكرة الخلافة حلماً يداعب خيالات الكثيرين، ليس فقط ذلك الملك الساذج القابع في قصر عابدين تحت رعاية المحتلين، ولا من تبعه من شيوخ الأزهر الذين غذوا أحلامه بأن يرث عرش الخلافة المنيع، وإنما أيضاً بعض الدعاة المخلصين للإسلامية، والذين تعلقت أبصارهم بفكرة «الخلافة» و«الجامعة الإسلامية» مؤمنين بأن الإسلام بذاته وطن، وأنه لا نجاة للمسلمين بغير خليفة لهم جميعاً.

ذلك أن الإسلام كعقيدة هو في نظر البعض «محتوى سياسي» و«المجتمع الإسلامي هو ذاته الكومنولث الإسلامي أي (مجموعة الشعوب المسلمة)، والأمة الإسلامية هي أيضاً تكوين سياسي متكامل»[٣١].

.. وتكون هذه الصراعات ـ بالضرورة ـ واحدة من مكونات المناخ الفكري الذي عاشه الفتى حسن البنا.

* * *

.. وكان هنالك أيضاً «التبشير» وجماعاته التي تناثرت في أماكن عديدة من مصر..

..ولقد قيل عن هذا الموضوع كلام كثير لعل أكثره صحة هو أن التبشير لم يكن أكثر من لعبة استعمارية تستهدف استفزاز المشاعر الإسلامية وحرفها عن مسارات الكفاح الطبيعي لتحرير الوطن، إلى مسارات تستهلك قواها في صراعات داخلية تبعد القتال عن مساره الطبيعي ضد الاستعمار.

وعلى أية حال فقد حدث «في نهاية العشرينات أن استفز النشاط التبشيري مشاعر المسلمين في مصر وكان لحوادث الغواية عن الدين

---

[٣٠] آخر ساعة. مجموعة عام ١٩٧٠ مقال محمود عوض: اتهام ملكي للشيخ بالإلحاد.

[31] **Von Grunebaum, Modern Islam the Search For Cultural Identity, new york, p.65.**

ولحوادث نقد الإسلام في محاضرات بعض المبشرين وكتبهم وقع عنيف»[٣٢].

كذلك فقد تواترت محاولات بعثات التبشير في «خلق أقليات دينية مصنوعة، واستهدف الاستعمار بذلك أن يحيل الأقلية الدينية إلى رأس رمح يوجه إلى الحركة الشعبية، وأن يثير لدى الأغلبية رد فعل دينياً متطرفاً يرتد بها إلى مواقف الرجعية، ويرد الحركة الوطنية ضد الاستعمار إلى حركات طائفية ومتعصبة»[٣٣].

وقد كان..

إذ تتالت ردود الفعل باتجاه طائفي ومتعصب وتوترت مشاعر الكثيرين وضخمت نتائج عمليات التبشير بصورة مبالغ فيها، الأمر الذي يعني أن الهدف الحقيقي من التبشير قد تحقق، فلسنا نظن أن أحداً من السذاجة بحيث تصور أن التبشير كان خطة عملية أو منطقية تستهدف استقطاب أفراد من المسلمين باتجاه الديانة المسيحية.

فلا التجربة العملية، ولا الواقع الموضوعي، ولا الأرقام الفعلية، لاشيء من ذلك كله يشير مجرد إشارة لأي احتمال لنجاح حملات التبشير من هذه الزاوية.

ولعله من الضروري أن نؤكد هنا أن غالبية عمليات التشبير كانت بعيدة تماماً عن الكنيسة المصرية، وإنما ارتبطت أساساً بجماعات من البروتستانت ذوي العلاقات المشبوهة بالقوى الأجنبية.

وعلى أية حال فقد كانت حملات التبشير وردود فعلها بما يمكن أن يسمى التبشير المضاد من سمات هذه الفترة، ومكوناً من فكر قطاعات من المسلمين المتشددين، وإذا كان البعض مثل حزب الوفد وغيره قد فهم أبعاد

---

(٣٢) طارق البشري ـ الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٢) ص٢٣٦.

(٣٣) المرجع السابق. ص٢٥٠.

اللعبة وردها إلى صاحبها الطبيعي وهو الاستعمار ولجأ إلى مقاومتها «وبكفاءة علية بالدعوة إلى وحدة عنصري الأمة»[٣٤]. فإن البعض الآخر قد اتخذ منها ذريعة للهجوم على المسيحية بما يعمق الخلاف ويوسع الهوة ويخلق المناخ اللازم للتعصب الديني.. وهكذا فإن هذا البعض الذي وقع في وهدة التبشير المضاد، يكون قد حقق ـ أيا كانت نواياه ـ مطامح الاستعمار.

* * *

وفي خضم ذلك كله كانت تنمو فكرة التناقض بين الحضارتين الشرقية والغربية، وكان البعض يثير هذا التناقض من منطلق وطني، والبعض يثيره من منطلق إسلامي.

هكذا «الميكادو» قد علمنا.

أن نجعل الأوطان أماً وأباً.

.. أنه فهم التيار الوطني الذي يرفض «الغرب» ويتطلع شرقاً نحو حضارة تحقق الطموح الوطني من خلال معطيات شرقية، كذلك كانت حركة «مصر الفتاة» تستلهم في مطلع الثلاثينيات نهضة اليابان كنموذج للنهضة الشرقية المرجوة ومن منطلق معاد للاستعمار عموماً.

أما التيارات الإسلامية فقد كانت ترى «الشرقية» كدعوة ذات طابع ومنطلق ديني، يستهدف حشد جهود مسلمي الشرق ضد الدعاوي الغربية ومظاهر الحضارة الغربية... «كانت الإسلامية بالنسبة للشيخ حسن البنا طريقاً للوصول إلى الأمم الآسيوية المسلمة، وكانت تتمثل قول كبلنج «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»[٣٥].

وكانت «الشرقية» بالنسبة للتيارات الإسلامية مدخلاً أو مخرجاً يتيح الهجوم على الغرب، وعلى كل ما هو غربي سواء في ميادين الفكر أو الحضارة أو الثقافة أو غيرها.

---

(٣٤) المرجع السابق. ص ٢٥١.

(٣٥) محمد شوقي زكي ـ الأخوان المسلمون والمجتمع المصري ـ القاهرة (١٩٥٤) ص ٦٠

وكانت هذه التيارات ترى «أنه لا خلاص للعرب والمسلمين، ولا فرصة أمام الشرق كي يحترم نفسه ما لم يتخلص من كل معطيات الحضارة الغربية، وأن يعتمد على نفسه وعلى رحمة الله الواسعة، وبذلك للمسلمين أن يقاوموا الأفكار الغربية لأنهم ليسوا في حاجة إليها»[٣٦].

ويواكب حسن البنا هذا التيار فيقول: «أن المدنية الغربية التي تتباهى بعلومها والتي استطاعت أن تسيطر على العالم، تعاني الآن من الإفلاس والانهيار ذلك أن أسسها السياسية قد انهارت تحت وطأة الديكتاتورية، وأنظمتها الاقتصادية تتداعى بفعل الأزمة، وكيانها الاجتماعي يتآكل، والناس هناك يسيطر عليهم الطمع والقهر».. ويؤكد حسن البنا» لقد بدأت قيادة العالم شرقية، ثم أصبحت غربية، وها قد حان الحين لينهض الشرق من جديد»[٣٧].

وهكذا تختلط ـ وربما عن عمد ـ فكرة (الشرقية) بالإسلامية، كسبيل للهجوم على الغرب من منطلق غير صحي وغير صحيح.. فهو هجوم لا ينبعث من فهم واضح لمعنى الاستعمار، ولا يقود إلى أسلوب محدد لمجابهته.. فالاستعمار هو مجرد «صليبية ــ أوربية»[٣٨]. و«استعمار مسيحي» بل أن كاتباً إسلامياً شهيراً يؤكد أن جوهر الصراع مع الاستعمار هو صراع «صليبي وليس اقتصادي أو مالي أو سياسي»[٣٩].

ومن ثم فإن الهجوم على الغرب قد اتخذ اتجاهاً غريباً إذ تحول إلى الهجوم على كل من ينهل من ثقافة الغرب وعلومه أو يدعو للتنوير مستفيداً من معطيات حركة التنوير الغربية وتوجه السهام الحادة إلى شخصيات إسلامية مثل طه حسين والشيخ علي عبد الرازق والشيخ خالد محمد خالد

---

(36) Mitchell, R. The Society Of Muslim Borters - Oxford - London (1969) P. 99.

(٣٧) حسن البنا ـ الرسائل الثلاث، ص ٨٧ وما بعدها.

(٣٨) الشهاب ـ ١٤ نوفمبر ١٩٤٧.

(٣٩) سيد قطب ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام. الطبعة الثالثة.

متهمة إياهم بأنهم «خضعوا بوعي أو بغير وعي لغواية الثقافة الغربية الاستعمارية»[٤٠].

وهكذا فهمت «الشرقية» على وجهين، واستخدمت كسلاح ذي حدين لكنها كانت وفي ذلك الحين عنصراً فاعلاً في تكوين المناخ الفكري العام، إلى درجة تمكنها من أن تؤثر بلاشك في وجدان ومشاعر ومنطلقات شاب سياسي ومتدين مثل حسن البنا.

* * *

وللسلفية والتجديد قصة تستحق وقفة هي الأخرى.. قصة تركزت حول موضوع الدين وتحديات العصر.

وكانت هذه القضية هي الشغل الشاغل لمصر.. لمجدديها وسلفييها، ثوارها ومعتدليها ورجعييها، وعلمائها ومفكريها ورجال الدين فيها، وذلك طوال الفترة من نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وكانت العلاقة الشائكة والحتمية بين الدين وتحديات العصر تتبلور ـ في كثير من الأحيان ـ في موضعين.. العدالة الاجتماعية والموقف من العقل ومنجزات العلم الحديث.

والحقيقة أن الإسلام بطبيعته، وبطبيعة الوضع الطبقي لشيوخه قد استطاع أن يجد حلاً لمسألة العلاقة بين الدين والعدل الاجتماعي.

كان رفاعة الطهطاوي والأفغاني والكواكبي رواد هذه المعركة على أرض مصر.

الطهطاوي في كتابه الرائع «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» كان يصيح بأعلى صوته «الأرض للزراعيين» ويقول «أن الفضائل جميعاً تعود إلى أصل واحد هو العدل العمومي والإنصاف المشترك»[٤١].

---

[٤٠] سيد قطب ـ من هنا نعلم. الطبعة الرابعة ١٩٥٤.

[٤١] رفاعة الطهطاوي. مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ـ الطبعة الثانية ـ ص ١٣١.

وهـو ينتقد الملاك لأنهـم يتمتعـون «في العـادة بـالمتحصل مـن العمــل، ولا يدفعون نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذي لا يكافئ العمل»[٤٢].

ويأتي بعده الأفغاني لترتفع صيحته أكـثر فـأكثر ولتتخـذ ثوبـاً واضحـاً تماماً «أما الاشتراكية في الإسلام فهي ملتحمة مـع الديـن الإسـلامي» و«أول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء مـن الصحابـة»، وهو يقدم تعريفاً شاملاً وتقدمياً للاشتراكية «فالاشتراكية هـي الـتي ستؤدي حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل».

وتكـون صيحـة الشيخ الكواكـبي، أعلـى هـي الأخــرى.. «أن النظــام الطبيعي في كل الحيوانــات أن النـوع الواحـد منهـا لا يـأكل بعضـه بعضـاً والإنسان يأكل الإنسان، ومن غريزتها أن تلتمس الـرزق مـن الله أي مـورده الطبيعي والإنسان حريص على التماسه من أخيه»[٤٣]

ثم أن الكواكبي يمجـد العلـم والعلـوم العقليـة «فالمسـتبد لا يخـاف مـن العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غبـاوة ولا تزيـل غشـاوة وإنما يتلهى بها المتهوسون.. لكن ترتعد فرائص المسـتبد مـن علـوم الحيـاة مثل الحكمة النظرية والفلسـفة العقليـة وحقـوق الأمـم أو سياسـة المدنيـة.. وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم، المبسقة للشموس، المحرقة للرؤوس»[٤٤]

وهو يهـاجم الأغنيـاء فهـم «ربـائط المسـتبد يذلهـم فيئنـون، ويسـتدرهم فينحنون، ولهذا يرســخ الـذل في الأمـم الـتي يكـثر أغنياؤهـا، أمـا الفقـراء فيخـافهم المستبد خـوف النعجـة الذئـاب»[٤٥]، وهـــو يدعـــو صراحـــة إلى الاشتراكية باعتبارها «السر كل الســر في نجـاح الأمـم المتمدنـة»[٤٦]. ويقـول

---

(٤٢) المرجع السابق ـ ص ٩٣.

(٤٣) عبد الرحمن الكواكبي. طبائع الاستبداد في مصـارع الاسـتعباد ـ مطبعـة الدسـتور العثمـاني (١٣١٨هـ) ص ٥٩.

(٤٤) المرجع السابق ص ٣٣.

(٤٥) المرجع السابق ص ٥٠.

(٤٦) المرجع السابق ص ٦٩.

الكواكبي أيضاً «أن الداء العام هو الفقر. ومن أعظم أسباب الفقر أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء. لكن الحكومات الإسلامية قد قلبت الموضوع فصارت تجني الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابي بها المسرفين»[(٤٧)].

وتبقى القضية الأخرى...

ولعل الأفغاني كان رائداً أيضاً. فبعد كتابه «الرد على الدهريين» والذي هاجم فيه «النيتشريين» (دعاة الطبيعة) والماديين، والذي اختص فيه نظرية التطور بهجومه وتهكمه وإدانته قائلاً «إذا كان زعم داروين أن الإنسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب صحيحاً.. فعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً كذلك»[(٤٨)]. بعد هذا نجده يراجع نفسه في كتابه الآخر «خاطرات جمال الدين».

«فقد سُئِل الأفغاني عن قول المعري:

والذي حارت البرية فيه	حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد ما عناه داروين بنظرية النشوء والارتقاء فقال:

لا أغالي ولا أبالغ إذا قلت: «ليس على سطح الأرض شيء جديد بالجوهر والأصول أما مقصد أبي العلاء فظاهر واضح وليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء. مهتدياً بما قاله العرب قبله بهذا المذهب، إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبي السمح، عرضاً، في بحث الكيمياء: «أن التراب يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، وأن أرفع مواليد التراب

---

(٤٧) عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى. طبعة محمود أفندي طاهر صاحب جريدة العرب ص ٤١.

(٤٨) جمال الدين الأفغاني ـ الرد على الدهريين ـ ترجمة محمد عبده وعارف أبي تراب. الطبعة الرابعة (١٩١٤).

(ومنه المعادن) النبات، وهو أدنى طبقات الحيوان، سلسلة تنتهي عند الإنسان»[٤٩].

ولعل الأفغاني بموقفه هذا قد تأثر إلى حد ما برسائل أخوان الصفا وبأفكارهم، ولعله لم يكن مطلوباً منه إطار التحديات المطروحة في زمانه أن يقدم أكثر مما قدم.

لكن العطاء الحقيقي للأفغاني كان تلميذه محمد عبده. يقول مارسيل كولومب «وليس من السهولة أن نوضح أثر هذين الرائدين (الأفغاني ومحمد عبده) على الجيل الذي تلاهما. ومع ذلك فثمة شيء مؤكد، ذلك أنه عندما تبذل المحاولات لجعل الدين يتوافق مع العلم الحديث، وعندما تتقبل فكرة إعادة النظر في الشريعة الإسلامية كضرورة حتى تتنسق مع مقضيات العصر، فلابد أن ندخل في اعتبارنا أن الأفغاني ومحمد عبده هما اللذان هيئا النفوس بالتدريج لتقبل مفهوم للدولة وللدين يختلف عن مفهومهما في القرن السابق»[٥٠].

لكن محمد عبده كان يختلف عن أستاذه في المسألتين الهامتين العدل الاجتماعي والموقف من العقل والعلم الحديث.

في المسألة الأولى كان أكثر تخلفاً.. وفي الثانية كان أكثر تقدماً ولعل السبب واضح.

فالصراع الاجتماعي احتدم عنيفاً بعد أن طرد الأفغاني من مصر وصار على كل مفكر أن يختار موقعه الاجتماعي والطبقة التي ينحاز إليها.. وما أصعب أن يختار مثقف برجوازي صغير موقع الدفاع عن الكادحين.

فالشيخ محمد عبده يهاجم التطرف لدى الثوار العرابيين، ويلومهم صراحة على انتمائهم للشعب والفقراء. بل هو يؤكد أنه انتقد حكومة رياض

---

[٤٩] جمال الدين الأفغاني ـ خاطرات جمال الدين ـ أملاه على محمود باشا المخزومي ـ بيروت ـ (١٩٣١).

[٥٠] مارسيل كولومب ـ المرجع السابق ص ١٥٧.

ومسلك الخديوي توفيق «لكنني كنت ضد الثورة، كنت أعتقد أنه يكفي جداً أن نحصل على دستور خلال خمس سنوات، وكنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا، ومظاهرة عابدين، وكان سليمان باشا أباظة والشريعي باشا يؤيداني ضد الثورة لكننا كنا جميعاً نطالب بالدستور»(٥١).

.. لكن الثورة قامت، ومس لهيبها شغاف قلب كل مصري، واندفع الفلاحون ينخرطون في سلك جيش من أصحاب الجلاليب المسلحين بأي شيء وهم يهتفون «الله ينصرك يا عرابي».

ولم يكن أمام الشيخ محمد عبده إلا أن يقف معها محاولاً ـ قدر الإمكان ـ أن يحد من ثوريتها... وفي ١٣ فبراير ١٨٨٣ أقامت جمعية المقاصد الخيرية حفلاً كبيراً ابتهاجاً بتشكيل وزارة العرابيين برئاسة محمود سامي باشا البارودي، وفي حشد كبير من الأعيان وقف محمد عبده ليحذر «الثوار» من «ثوريتهم»، وليحذر «الأعيان» من تساهلهم أو تغافلهم تجاه هذه «الثورية».. قال محمد عبده «أنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك، فكيف حصل في هذه المرة، ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنّة الله في الخلق، وانقلب سير العالم الإنساني؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حدّاً لم يبلغه أحد من العالمين، حتى رضيتهم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حباً بالعدالة والإنسانية؟ أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون؟»(٥٢).

وبرغم هذا الموقف المتخلف من القضية الاجتماعية فإن محمد عبده يبرز بعد عدة أعوام رائداً من رواد التجديد وداعية من دعاته.

---

(51) Blunt, W. Secret History of Egypt - London (1907), P. 493.

(٥٢) د. الحديدي ـ عبد الله النديم. ص ١٧٧.

فالعقل والتنوير كانا يصعدان معركتهما، ومنجزات العلم الحديث، تفرض نفسها وبإلحاح على حياة المجتمع والأفراد طالبة إجابة صريحة و«فتوى شرعية» في كل أمر جديد، وكانت فتاوى محمد عبده تتألق دوماً باتجاه متقدم.

وهو يبدأ معركته بتجريد رجال الدين من كهنوتهم الذي يحاولون أن يفرضوه على البشر قائلاً «ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم». والحقيقة أن محمد عبده كان يجابه مهمة صعبة، فمع نهايات القرن التاسع عشر تم وضع مجموعات القوانين الجديدة، التي تغطي مجال المعاملات المدنية كلها ونظام العقوبات وذلك نقلاً عن القوانين الفرنسية، وتم إنشاء هيكل قضائي حديث، وانتشر التعليم الحديث أيضاً. وهكذا كانت مصر وهي تقترب من روح العصر.. وتتلامس مع المدنية الحديثة تتمايز فيها شخصيتان، ومؤسستان في عديد من المجالات الهامة، مؤسستان للقضاء ومؤسستان للتعليم.. الخ «مما فصل عن الأزهر أهم جانب من جوانب وظيفته الاجتماعية».. «ومع نهايات القرن التاسع عشر وضح الصدع أمام المبصرين وغير المبصرين جميعاً.. وتم صدع مماثل في المؤسسات الاجتماعية والمؤسسات الفكرية، وفي البناء الأخلاقي والسلوكي للأفراد. أمام هذه المشكلة قامت دعوة محمد عبده تحاول رتق هذا الفتق الذي يتسع. ويدعو لتفتيح الفكر الإسلامي ليستوعب الحاجات المدنية للمجتمع، وليمكن الفكر الإسلامي من أن يقدم الأساس الأخلاقي والمعنوي بهذه الحياة المتطورة. وكانت وسيلته إلى ذلك الدعوة لتطوير الأزهر وتنقيح مناهج التعليم فيه، وفتح باب الاجتهاد»[٥٣].

لكن الأزهر وقف من حركة محمد عبده موقف الرفض، بينما تلقفها التيار العقلاني وتمسك بها في مواجهة دعاة التقليد، وهكذا ازدادت الهوة اتساعاً بين حركة التجديد.. وبين الأزهر.

---

[٥٣] الكاتب ـ أغسطس ١٩٧٤ ـ طارق البشر، مقال «الأزهر بين القصر والحركة الوطنية».

والحقيقة أن محمد عبده قد استفاد كثيراً جداً من إقامته في أوربا لفترة من الوقت، ولعل هذه الإقامة لم تكسبه استنارة وسعة أفق، ورغبة نهمة في الدفاع عن العقل والعلم فحسب، وإما قدمت أمام عينيه نمطاً من السلوكيات ونموذجاً للحياة يختلف اختلافاً جذرياً عما يراه في أرض وطنه، ولعل ذلك هو الذي دفعه إلى الإعراب عن دهشته لأن «الكفرة يتصرفون كمسلمين بينما يتصرف المسلمون وكأنهم كفرة»[٥٤].

ولعل هذا الموقف يتضح أيضاً من إعجابه الشديد بالفيلسوف الروسي تولستوي.. فعندما كان محمد عبده مفتياً للديار المصرية كتب إلى تولستوي يقول «أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي: لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف بروحك. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك.. فكما كنت بقولك هادياً للعقول، حاثاً بعلمك للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون، كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المرشدون»[٥٥].

هكذا يتكلم مفتي الديار المصرية مع مفكر هو على أية حال غير مسلم بل ومتهم من كنيسته بالإلحاد.. وهكذا كان تقديره لحضارة الغرب وللأفكار الجديدة فيه. ولقد كان المنطلق الأساسي لمحمد عبده هو تصميمه على «أن الإسلام لم يتعارض ولا يمكن أن يتعارض مع العلم مثله مثل العقيدة يكشف للناس أسرار الطبيعة»[٥٦].

وبينما كان «السلفيون» وظلوا حتى ما بعد زمن محمد عبده بكثير يتنكرون للحضارة الغربية والثقافة الغربية كان محمد عبده يرى أن مفتاح

---

(54)) **New Middle East, January - February 1975.**

Article by Desmond Stewart " Egypt in Search of Religious and Political Community".

(٥٥) مجلة الإذاعة والتليفزيون. ١٠-٧-١٩٧١، د. عثمان أمين، مقال «صفحة مجهولة من تاريخنا الفكري».

(56) **Khadduri - Ibid - P. 63.**

التقدم هو تبني العلوم الغربية والثقافة. وقد أكد محمد عبده في أحد مقالاته المبكرة «أن سر تفوق أوربا يكمن في تفوقها في مضمار البحث العلمي، وإلى تقدم نظم التعليم فيها»[٥٧].

وبعد أن يؤكد محمد عبده على ضرورة التلامس مع الفكر الغربي الحديث، يخطو خطوة جديدة شائكة، لكنها حاسمة فهو يدعو إلى تحديث الفكر الإسلامي، فقد كان يرى أن الإسلام لا يمكن أن يرسخ أقدامه عبر الأزمان إذا ما استمر معتمداً على «التقليد». وكم هاجم محمد عبده دعاة التقليد وكم أكد «أنه بدون استخدام العقل سوف يتعذر على المسلمين إحراز أي تقدم أو تطور»[٥٨]. وذلك في الوقت الذي كان يعاني فيه الآخرون من «عقدة» الخوف والرفض لكل ما هو قادم من الغرب، ولكل ما هو إعمال للعقل، باعتبار أنه تهديد أو إضعاف لنفوذ الإسلام. الأمر الذي أشعرهم بضرورة شن «هجوم مضاد» فتشبثوا بشعار الجامعة الإسلامية، وتهافتوا على إدانة كل ما هو عقلي وعلمي أو جديد[٥٩].

وفي هذا المناخ يمضي الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية ليصدر سلسلة من الفتاوى الشرعية تحاول أن تيسر على المسلمين مجابهاتهم وتعاملاتهم مع حياة المدينة الحديثة. والحقيقة أن الأستاذ الإمام كان مطالباً بإصدار فتاوى شرعية في مسائل معقدة مثل «أرباح الأموال المودعة في البنوك».. و«سعر الفائدة» و«التأمين على الحياة» و«الشركات المساهمة وأرباحها».. وفي مسائل أخرى قد تبدو بسيطة لكنها من فرط بساطتها تلح على المسلم في كل تعاملاته: «التصوير الفوتوغرافي».. حلال أم حرام؟ واستخدام التليفون والراديو حلال أم حرام؟.. وهكذا وبصدر رحب وبعقل مفتوح مدرك لتبعات المفتي المستنير تجاه عصره حاول محمد عبده أن يقدم إجابات توفق بين تعاليم الإسلام واحتياجات العصر.

---

(57) **Adams - Islam and Moderniism in Egypt P. 39 and 135.**

(58) **Khadduri - Ibid - P. 61.**

(59) **Khadduri - Ibid - P. 56.**

وحتى في المسائل الشديدة التعقيد والتي قد يتحرج شيخ مسلم من البحث عن الجديد تجاهها مثل: المرأة وعلاقاتها بالمجتمع وتحريرها ومسألة الحجاب.. الخ، تروج شائعات قوية عن إسهام الأستاذ الإمام في إعداد كتاب صديقة الحميم قاسم أمين عن تحرير المرأة.

ويمضي الأستاذ الإمام بعد رحلة مجيدة ليترك تلاميذاً يختلفون اختلافاً شديداً حول تفسير تعاليمه، ويقول الباحث مجيد خضوري «أن البعض من تلاميذ الإمام قد حاول أن يطور تعاليمه، ويصل بها إلى نهايتها المنطقية، أي أن «ينفي» دور الإسلام كعقيدة تجاه المجتمع ككل، وأن يحصره تجاه الفرد وضميره ووعيه. وكان هذا البعض يرى أن الإسلام عقيدة حية ومن ثم فيتعين لها أن تتطور باستمرار، وأن النهاية الحتمية لهذا التطور هي علمانية المجتمع الإسلامي».

ويمضي خضوري قائلاً أن هذه الآراء قد رفضت بشدة من جانب «مريدي الإمام من المحافظين» وخصوصاً هؤلاء الذين كانوا ــ برغم ولائهم لشيخهم ـ إلا أنهم «كانوا يرون أنه قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدنية والتطور الحديث، وكان على رأس هؤلاء المحافظين المتشددين من أتباع محمد عبده الشيخ رشيد رضا»[٦٠].

وبرغم أن رشيد رضا كان أقرب هؤلاء المريدين إلى قلب الإمام إلا أنه كان أكثرهم حرصاً على تفسير تعاليمه تفسيراً محافظاً ومتزمتاً إلى أبعد الحدود[٦١].

وهكذا نجد أمامنا ثلاث مدارس.. لا مدرستان فقط.

ـ التقليديون.. «المحافظون من شيوخ الأزهر».

---

(60) **Ibid - P. 65.**

(٦١) لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين تعاليم الشيخ محمد عبده وأفكار رشيد رضا راجع سامي الدهان، قدامي ومعاصرون ــ القاهرة (١٩٦١) ص ١٩٧٣ وما بعدها وأيضاً إبراهيم العدوي، رشيد رضا.

ـ المجددون (الشيخ محمد عبده وتلاميذه المستنيرون).

ـ المجددون المحافظون (الشيخ رشيد رضا وتلاميذه).

وعن هذه المدرسة الأخيرة سنتحدث قليلاً.. لأنها ذات علاقة بموضوع بحثنا.

لقد قرر رشيد رضا أن يخوض معركتين لا معركة واحدة، معركة ضد علماء الأزهر الذين كان يريد أن ينتزعهم بعيداً عن نهجهم في «التقليد» وعن «تعصبهم المذهبي» وأخرى «ضد دعاة التفرنج» وكان رشيد رضا يشير دوماً إلى خطورة كلا التيارين.. ويرفضهما معاً وبنفس الحدة[62].

وفي كتابه «الخلافة أو الإمامة العظمى» يهاجم الشيوخ «الذين ازوروا إلى زوايا مساجدهم أو حجور بيوتهم» ويتهمهم بأنهم عاجزون عن أداء واجبهم وعن الإبقاء علي نقاء أقدس التقاليد وأنبلها، ويهاجم في نفس الوقت دعاة التفرنج قائلاً أنه من الجنون أن نسعى إلى انتزاع مقومات الأمة الإسلامية الدينية والتاريخية، واستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها..[63]

رويداً رويداً كان رشيد رضا يتخلى عن تعاليم الإمام، ويبتعد بهجماته العنيفة ضد دعوة «التجديد» عن معسكر أستاذه بل لعله كان يقترب من معسكر خصوم الإمام من دعاة «التقليد». فهو يدعو إلى العودة للمصادر الأولى.. وبالنسبة له فإن العمل والجهد والأمل يتركز في شيء واحد «الخلافة الإسلامية».. «فهي الحكومة المثلى التي بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية»[64]. والدولة الإسلامية الأصلية هي في الواقع خير الدول ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكن بالنسبة لسائر البشر فهي وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج المادية التي تفتك بها ميكروبات الفساد

---

[62] مارسيل كولومب ـ المرجع السابق ص ١٦٨.

[63] رشيد رضا، الخلافة أو الإمامة العظمى. مطبعة المنار بمصر (١٣٤١هـ).

[64] المرجع السابق ص ١١٦.

وأوبئة الهلاك فهي عرضة للزوال[٦٥]. وهو يبتعد كثيراً عن نهج أستاذه عندما يؤكد أن السيادة المطلقة في الدولة هي «لأولي الأمر» الذين «أمر الله بطاعتهم»[٦٦].

.. وهكذا تمضي دعوة الأستاذ الإمام على يد تلاميذ يضيقون بتجديده وليبراليته، فيتراجعون بها نحو «التقليد» و«المحافظة»، ويستمر التراجع.. فتلاميذ التلاميذ.. أكثر محافظة، وأكثر تمسكاً بضرورة العودة إلى التقليد.

وقد تأثر الشيخ حسن البنا بالأستاذ الإمام، لكنه تأثر أكثر بكثير برشيد رضا.. وبالنسبة لجماعة الأخوان المسلمين كان الأفغاني بمثابة «الأب الروحي» وكان الأخوان يقدمون حسن البنا في صورة «أفغاني» عصره[٦٧].

وإذا كان أحد الأخوان قد قال إن الأفغاني كان مجرد «مؤذن أو هو مجرد صرخة» وأن رشيد رضا كان مجرد «مؤرخ أو هو مسجل» وأن المرشد كان «بنا»[٦٨]، فإن الشيخ حسن البنا يورد تقديراً محدوداً لهؤلاء الرواد جميعاً «فالأفغاني كان يرى المشكلات ويحذر منها وكان محمد عبده يعلم ويفكر، ورشيد رضا يكتب أبحاثاً»، لكنهم كانوا جميعاً في نظره مجرد «مصلحين دينيين وأخلاقيين» يفتقدون الرؤية الإسلامية الشاملة[٦٩]. وربما كان أحد تلاميذ الشيخ البنا أكثر وضوحاً في تقديم هؤلاء الرواد فهو إذ يمايز بين دعوة محمد عبده ودعوة حسن البنا يقول أن دعوة الأخوان المسلمين تتميز عن غيرها بأنها تعني الجهاد والنضال والعمل.. وأنها ليست مجرد رسالة فلسفية[٧٠]

---

(٦٥) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٦٦) رشيد رضا ـ كتاب الوحي ـ ص ٢٣٩.

(67) **Smith, Wilfred Cantwell. Islam in the Modern history (1957) P. 51.**

(٦٨) الدعوة ـ ٢٠-٢-١٩٥١.

(٦٩) مذكرات الدعوة والداعية. المرجع السابق ص ٥٨.

(٧٠) احمد انس الحجاجي، الرجل الذي أشعل الثورة (١٩٥٢) ص ٤٣.

ومع ذلك فإنه يتعين علينا ألا ننسى أن الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا والد حسن البنا وأستاذه الأول كان تلميذاً من تلاميذ محمد عبده، وأن الطالب حسن البنا كان قارئاً مثابراً لمجلة المنار، ولعله مارس على صحفاتها أولى محاولاته في الكتابة[٧١].

وإذا استمر الشيخ رشيد رضا في تراجعه عن «التجديد» حتى اصبح متمسكاً «بالسلفية» مؤكداً أن «السلف» هم القادرون على فهم المغزى الحقيقي للمبادئ الإسلامية كما أنزلت في القرآن ووردت في الحديث[٧٢]. فإنه يستحق أكثر من غيره من الرواد ـ الذين كانوا أكثر منه تألقاً ـ مديح وثناء الشيخ البنا، الذي وصف مجلة المنار بأنها قدمت أجل الخدمات للإسلام في مصر وغيرها من البلدان[٧٣]. والذي تباهى بأن الشيخ رشيد رضا كان على وشك الانضمام لجماعة الأخوان المسلمين قبيل وفاته[٧٤].

.. وهكذا يحدد الشيخ حسن البنا موقفه كامتداد أكثر «سلفية» للتيار «السلفي» بين تلاميذ محمد عبده.

ويلخص ألبرت حوراني الموقف كله في عبارة تقول «إذا كان التاريخ هو ما تعيه ذاكرة الإنسان عن الماضي، فإن هذا الماضي يظل بالنسبة للبعض أملاً يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الإسلامي الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم»[٧٥].

* * *

---

(71) Mitchell - op. cit. P. 322.

(72) Khadduri -op. cit. P. 67.

(٧٣) مذكرات الدعوة والداعية ـ ص ٢٧٢.

(٧٤) لمزيد من التفاصيل حول المقارنة بين أفكار رشيد رضا وحسن البنا راجع:

Safran, Nadav - Egypt in Search of Political Community. (1961).P. 291.

(75) Hourani, Albert - Thought in The Liberal Age. 1789 - 1939 Oxford (1970) P.80.

وحتى الدين فهمه البعض فهماً ميكيافيلياً. وحاول وباستمرار استخدامه أداة في لعبة السياسة والصراع السياسي والاجتماعي.

وثمة عبارة قد تثير القشعريرة في أبدان البعض أوردها توماس هوبز صاحب «الليفياتان» أو «الوحش» حول هذا الموضوع (أستميح القارئ ليس فقط في أن أوردها بنصها وإنما في أن أطلب إليه أن يتذكرها من الآن فصاعداً، وهو يطالع صفحات هذا الكتاب.. فلربما كانت هذه العبارة قادرة على تفسير الكثير من المواقف التي قد تبدو - في إطار حسن النية - غير مبررة وغير منطقية). ويقول توماس هوبز «الدين هو مجرد مانعة للصواعق الاجتماعية.. والكنيسة قوة أخرى من قوات الأمن التي تستخدمها الدولة لحفظ الاستقرار الاجتماعي، لا تختلف عن البوليس والجيش في طبيعتها، ولكنها أفعل منهما أثراً وأوسع مدى، وربما أقل تكلفة، إنها تقيم على كل إنسان شرطياً ملازماً له داخله»[٧٦].

وقد نختلف حول تفسير معطيات هذه العبارة، وقد نرفضها رفضاً قاطعاً، لكنه يتعين علينا أن نستبقيها في ذاكرتنا لتفسير مواقف الكثير من القوى الرجعية تجاه الدين، ومحاولاتها استخدامه واستخدام بعض رجاله ومنظماته كأدوات في صراعها الاجتماعي.

وهكذا كان الأمر في مصر منذ مطلع القرن العشرين.. استمرت المحاولات من جانب الاحتلال البريطاني تارة.. والقصر الملكي تارة أخرى، ثم أحزاب الأقليات - عندما نشأت - مرة ثالثة لاستقطاب القوى الدينية واستخدامها أداة «أقل تكلفة» من البوليس في إحكام قبضتها على الإنسان المؤمن.. وإقامة «شرطي ملازم له من داخله» يعمل دوماً على إخضاعه لصالحها في كل مواقف الصراع السياسي والاجتماعي.

---

[٧٦] نقلاً عن: د. لويس عوض. تاريخ الفكر المصري الحديث - الجزء الثاني - كتاب الهلال عدد إبريل ١٩٦٩ ص ٢٨٢.

والأزهر قلعة الإسلام المكينة، ورمزه الشامخ في العالم أجمع كان لا بد له أن يكون محطاً لمؤامرات هذه القوى وإغراءاتها، وهدفاً لاستقطابه في خضم هذه الصراعات.

وقد حرص فؤاد منذ أن كان سلطاناً على أن يحكم قبضته على الأزهر وعندما كانت لجنة الثلاثين تصوغ دستور ١٩٢٣ كانت عين فؤاد مركزة أساساً على موضوع العلاقة بين الملك وبين أهم مؤسستين في ذلك الحين وهما: الأزهر والجيش.

وأتت نصوص المشروع الأول للدستور خالية من أية إشارة لسلطات الملك تجاه الأزهر الأمر الذي يعني أن لجنة الدستور لم تر منح الملك أية سلطات استثنائية تجاه الأزهر بل جعلت الإشراف عليه مثله مثل غيره من المؤسسات للوزارة المسؤولة أمام البرلمان[٧٧].. لكن مشروع لجنة الثلاثين قد خضع لتعديلات كثيرة، وبعد صراع مرير أسفرت المعركة عن نص يُحال إلى قانون يصدر فيما بعد لينظم «الطريقة التي يباشر بها الملك سلطته.. فيما يختص بالمعاهد الدينية وتعيين الرؤساء الدينيين وبالأوقاف التي تديرها وزارة الأوقاف، وعلى العموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها في البلاد»[٧٨]، «وإذا لم توضع أحكام تشريعية تستمر مباشرة هذه السلطة طبقاً للقواعد والعادات المعمول بها الآن»[٧٩]، وهكذا استخلص الملك بهذا النص اعترافاً دستورياً بأن له سلطة خاصة فيما يتعلق بمسائل الأديان وإقراراً دستورياً ببقاء الوضع الراهن حتى يصدر قانون جديد ينظم هذه السلطة.

ويعترف الشيخ الظواهري ـ الذي عينه فؤاد شيخاً للأزهر ـ بأن الملك فؤاد «كان حريصاً على أن يعرف كل شيء عن الأزهر والمعاهد الدينية، فقد

---

[٧٧] دستور ١٩٢٣ـ م. ١٥٣.

[٧٨] الكاتب ـ أغسطس ١٩٧٤ ـ طارق البشري، مقال الأزهر بين القصر والحركة الوطنية.

[٧٩] من مذكرات شيخ الإسلام الظواهري ـ المرجع السابق ـ ص ٧٩.

كان جلالته يعتبر هذه الناحية من الأمور المصرية الخاصة به يديرها جلالته بدون وساطة أحد وزرائه»[80].

ولقد رأينا في صفحات سابقة كيف حاول فؤاد استخدام الأزهر في مسألة الخلافة، والآن نرى كيف حاول استخدامه أيضاً في مسائل الصراع السياسي.. وبالذات في خصومته ضد سعد زغلول المحبوب من شعبه والذي كان من المستحيل مقاومة مثل هذا النفوذ الذي يتمتع به بغير استقطاب مؤسسة كالأزهر.

وقد بدأت محاولات السراي باستقطاب عدد من شيوخ الأزهر.. ثم في تبني بعض مطالب الأزهريين وإظهار حكومة سعد بمظهر الرافض لها.. وتطور الأمر إلى مطالبة بعض شيوخ الأزهر بما أسموه رفع الوساطة بين الملك وشيوخ الأزهر «كما لا وساطة بين جلالة الملك وبين رئيس الوزراء، إذ لا يليق في عهد جلالتكم الميمون أن يحال بين كبير رجال الدين وبين كبير رجال الدنيا»[81]، وفي ٥ نوفمبر ١٩٢٤ تبرز ظاهرة جديدة.. مظاهرة من طلاب الأزهر تتوجه لاستقبال الملك فؤاد لدى عودته من مصيفه بالإسكندرية وهي تهتف «يسقط سعد زغلول» «لا رئيس إلا الملك». وتستمر هذه الظاهرة يشجعها الملك وبوليسه والشيوخ من أصدقاء السراي.

وتزخر ملفات البوليس السياسي بتقارير وافية عن هذه المحاولات، ولنورد واحداً منها كنموذج:

محافظة القاهرة.

إدارة الضبط فرع «ب»

الموضوع: تقرير عن حالة الأزهر الشريف يوم ٤ فبراير ١٩٢٧ (نمرة ١٩٠ سياسي سري)

مطلوب رد

---

(٨٠) الأخبار - ٤-١١-١٩٢٤.

(٨١) الأخبار - ١١-١١- ١٩٢٤.

حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء لحضرة صاحب الجلالة الملك:

أتشرف بإخبار معاليكم أنه كان بالأزهر أمس عدد كبير جداً لمناسبة صلاة الجمعة. فألقيت فيه الخطب الكثيرة طول النهار وفي الليل أيضاً، وقد كانوا يصيحون بالنداءات الآتية من وقت لآخر «يحيا جلالة الملك ــ يحيا حسن نشأت باشا ـ يسقط البرلمان والحكومة وسعد باشا».

وقد كان البوليس مرابطاً على بعد من الجامع الأزهر، ولم تحصل مظاهرات ولم تقع حوادث.

وهذا لمعاليكم للمعلومية.

وتفضلوا معاليكم بقبول فائق الاحترام.

تحريراً في ٥ فبراير ١٩٢٧ ـ حكمدار بوليس مصر[٨٢].

ويعقب د. عبد العظيم رمضان على هذه العلاقة قائلاً: «استمرت علاقة التحالف بين القصر والأزهر طوال عهد الملك فؤاد وحتى نهاية حياته. ونظراً لأن القصر كان على علاقة تحالف أخرى مع الإنجليز، فلم يكن هناك مفر من أن يتأثر الأزهر بهذه العلاقة أيضاً. وحين اتجهت السياسة البريطانية في ربيع ١٩٣٥ تحت ضغط الحركة الوطنية إلى تقديم بعض الترضيات للجماهير المصرية، فرضت على الملك إخراج الشيخ الظواهري من منصب شيخ الأزهر وتعيين الشيخ محمد مصطفى مكانه ولم يجد مفراً من إجابة الطلب، وكان الشيخ مصطفى المراغي على صلة بالسلطات البريطانية منذ أن كان موظفاً كبيراً في السودان، وعندما نقل إلى مصر اتصل باللورد جورج لويد المندوب السامي البريطاني، وأصبح على علاقة وطيدة معه، إلى حد أنه لم يكن يمضي أسبوع دون أن يكون الشيخ مدعواً أو زائراً في دار المندوب السامي، كما حكى محمد شفيق رئيس القسم العربي بدار المندوب السامي»[٨٣].

---

[٨٢] جمال سليم ـ البوليس السياسي يحكم مصر ـ دار القاهرة للثقافة العربية ـ ص ٣١٥.

[٨٣] صباح الخير ـ ٣١-٣-١٩٧٧. د. عبد العظيم رمضان ـ مقال: الدين في الصراع السياسي.

وهكذا امتد التدخل في شؤون الأزهر وفي أمور الدين.. من الملك العاجز، إلى أحزاب الأقليات الفاشلة، إلى الإنجليز المحتلين.

فقط.. لنتذكر الأسطر السابقة ونحن نتابع في صفحات قادمة علاقات الشيخ حسن البنا بالقصر، وبالشيخ المراغي.. ونتابع مواقفه المتشددة تجاه الوفد والمتساهلة بل والصديقة تجاه أحزاب الأقلية.

هل اللعبة تتكرر؟

لسنا نريد إجابة سريعة، فلننتظر تسلسل الأحداث، ولنترك للاستقصاء العلمي وليس للعاطفة الحكم والقرار.

* * *

.. وهكذا يكون المسرح معداً كي يظهر «البطل».

فبغير الصفحات السابقة يكون الحديث عن الشيخ حسن البنا حديثاً علمياً وموضوعياً أمراً مستحيلاً.. ولقد يتصور البعض.. بل وحاولوا كثيراً استخدام أسلوب السيرة الذاتية البحتة في التعريف بالقادة السياسيين ومنهم حسن البنا، ونعتقد أن هذا وإن كان أيسر السبل إلا أنه أكثرها بعداً عن الأسلوب العلمي للتاريخ.

فعملية التأريخ لقائد سياسي ليست ممكنة بغير تقديم «بانوراما» واسعة وعميقة للمكونات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لشخصيته ومنهجه وسلوكه.

من هو إذن حسن البنا؟

لقد تكلمنا عن الصراعات الدائرة في تلك الفترة:

- الصراع بين العلم وحركة التنوير عامة وبين القوى المحافظة.
- الصراع بين الوطنية المصرية وبين دعاة الخلافة الإسلامية.
- التبشير.. والتبشير المضاد.
- التناقض بين دعاة الحضارة الغربية والمتوسطية وبين رافضيها.

• الصدام بين «التجديد» و«التقليد».

• دور الدين ومؤسساته في لعبة السياسة.

من هذه الصراعات والتناقضات وفي خضمها نبتت شخصية حسن البنا وتفاعلت واتخذت مواقفها.. ولهذا فإنه بغير بحثنا عن هذه الصراعات يوشك الحديث عن حسن البنا أن يكون مسطحاً وبغير عمق وأن يكون مجرد سرد لسيرة ذاتية معزولة عن أحداث مجتمعها.

وباختصار.. لقد كانت الصفحات السابقة حديثاً في صلب موضوعنا وليست مقدمة له.. ولا يبقى أمامنا كي نتعرف تعرفاً مبدئياً على الرجل سوى قليل من الكلمات عنه[٨٤]

• الاسم: حسن أحمد عبد الرحمن البنا «الساعاتي».

• تاريخ الميلاد: أكتوبر ١٩٠٦.

• محل الميلاد: المحمودية بحيرة.

• مهنة الوالد: مأذون الناحية وإمام مسجد القرية، وقد مارس أيضاً مهنة إصلاح الساعات ومن هنا كان لقب «الساعاتي».

وكان الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا واحداً من طلاب الأزهر على زمن الإمام محمد عبده وهو واحد من الأزهريين الذين واصلوا طوال حياتهم الدراسة والبحث في كتب الفقه.

وقد أنجب الشيخ أحمد خمسة أبناء أكبرهم «حسن» الذي حرص أبوه فيما بعد أن يؤكد أن مولده وطفولته قد أحاطت بهما هالات من الخوارق والكرامات. وعندما بلغ الطفل الثامنة من عمره دفع به أبوه إلى كُتّاب القرية حيث تتلمذ على يد أزهري شديد التدين هو الشيخ محمد زهران.

---

[٨٤] للمزيد من التفاصيل عن حياة حسن البنا راجع: مذكرات الدعوة والداعية.

ـ موسى إسحق الحسيني ـ الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة.

ـ أعداد مجلة «الدعوة» الصادرة في ذكرى وفاته في ١٣ فبراير ١٩٥١، ١٢، فبراير ١٩٥٢ و١٠ فبراير ١٩٥٣، ١٦ فبراير ١٩٥٤.

ويحاول الوالد - بعد وفاة ابنه.. أن يضيف إلى الصورة الباهرة له في أذهان مريديه مزيداً من التفاصيل.. فالطفل ابن الثامنة ينزعج من منظر تمثال لامرأة شبه عارية فوق أحد زوارق النهر في قريته فيلجأ للبوليس ويصمم على إزالة التمثال وينجح فيما أراد(٨٥).

ومن الكُتّاب إلى المدرسة الابتدائية في سن الثانية عشرة، وهناك التقى بمدرس متدين آخر ضمه إلى جماعة بالمدرسة اسمها «جماعة السلوك الاجتماعي» وهي جماعة استهدفت ترويض نفوس أعضائها من التلاميذ وإلزامهم بالتحلي بالأخلاق الحميدة في سلوكهم اليومي والتعفف عن الشتائم أو مخالفة تعاليم الدين، وكانت الغرامات المالية المرهقة بالنسبة لتلاميذ فقراء هي سلاح الإرغام في يد الجماعة.

وسرعان ما أصبح الفتى المتدين ابن الشيخ المتدين تلميذ معلم الكُتّاب المتدين رئيساً للجماعة، وسرعان ما اكتشف أيضاً ضعف منطلقات الجماعة فأسس مع عدد من زملائه الأكثر حماساً «جماعة النهي عن المنكر» وكان هدفها فرض الالتزام بتعاليم الدين من خلال توجيه خطابات تهديد إلى من ترى أنهم من بين سكان المدينة - لا يلتزمون بهذه التعاليم.

وسريعاً تأتي الخطوة التالية.. فمن جماعة النهي عن المنكر، إلى جماعة اسمها «أخوان الحصافية».. وهكذا أصبح الفتى التلميذ بالمدرسة الابتدائية «صوفياً» يحضر حلقات الذكر ويهتز في صفوفها مع رجال أكبر منه سناً بكثير. لكنه يلتقي في حلقات الذكر بتلميذ صغير السن مثله هو أحمد السكري، ولعل التلميذين على حداثة سنهما وجدا أن «التطوح» في حلقات الذكر لا يكفي وأنه من الضروري القيام بعمل ما للحفاظ على تعاليم الدين ولمقاومة النشاط التبشيري الذي هبط إلى المدينة الصغيرة فأثار كثيراً من المشاعر فيها.. وهكذا أسس التلميذان مع زمرة من زملائهما جمعية جديدة

---

(٨٥) المصور ٢٩-٨-١٩٥٢- الشيخ احمد عبد الرحمن البنا - مقال أورد فيه الكثير من القصص المماثلة.

اسمها «جمعية الحصافية» ظلت تعتبر نفسها فرعاً من الجماعة الصوفية الكبيرة لكنها تتميز عنها «بالعمل الجدي» للحفاظ علي تعاليم الدين، وعلى مقاومة البعثات التبشيرية.. وأصبح «حسن» سكرتيراً للجمعية، وكان لم يزل في الثالثة عشرة من عمره.

عام واحد أو عامان ـ إذن ـ قفز فيهما الفتى الصغير من «جماعة السلوك الأخلاقي» إلى «النهي عن المنكر» إلى حلقات الذكر الحصافية.. إلى «العمل الجاد» دفاعاً عن الإسلام.

عام آخر.. ويلتحق الفتى ابن الرابعة عشر بمدرسة المعلمين الأولية في دمنهور حيث ينغمس أكثر فأكثر في النشاط الديني وفي حلقات الذكر للحصافيين الأمر الذي يمكنه في عام ١٩٢٢ من أن يصبح عضواً عاملاً في صفوفهم.. ويبلغ به الحماس إلى درجة ارتدائه لبعض الوقت العباءة البيضاء والعمامة ذات الذؤابة.. وبدأ في دراسة كتب الفقه الإسلامي، وفي هذه الأيام يصطدم الفتى بكتاب أبو حامد الغزالي «إحياء علوم الدين» ويصطدم بما يقوله الغزالي من أن التعليم يجب أن يقتصر على ما هو ضروري «لتحقيق الواجبات الدينية واكتساب الرزق» ويتساءل الفتى في حيرة عن مدى فائدة استمراره في الدراسة بمدرسة المعلمين الأولية.. وبعد تردد واصل الفتى دراسته في الدراسة بمدرسة المعلمين الأولية حتى تركها في عام ١٩٢٣ ليلتحق بدار العلوم.

وهكذا يصل الفتى.. الحصافي الانتماء.. الريفي النزعة إلى قاهرة العشرينيات[٨٦]. التي كانت تموج بصراعات حزبية مريرة وبتيارات علمانية عارمة وباتجاه قوي نحو المدينة الحديثة.. وفي أثناء ذلك كانت الثورة الكمالية تلهم الليبراليين ودعاة التجديد المزيد من الشجاعة، والمحافظين ودعاة الخلافة المزيد من السخط والتشدد.. وتلفت الفتى حوله بعين متشكك يرى في كل ما حوله «إضعافاً لشأن الدين»[٨٧]. وفي هذا

---

[٨٦] محمد حبيب أحمد. نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ص ١٠٥.

[٨٧] أنور الجندي ـ قائد الدعوة: حياة رجل وتاريخ مدرسة، ص ١٣٧.

الخصم العارم ومنه جفل الفتى وزملاؤه.. «والله وحده يعلم كم أمضينا من ليال لبحث حال الأمة، نحلل العلة ونفكر في وسائل العلاج المكنة ولقد بلغ بنا القلق درجة وصلنا معها إلى حد البكاء»[٨٨]. ولا ملاذ لفتى ريفي شديد التدين يشعر بالغربة القاتلة في مدينة القاهرة سوى «الصوفية».. ومن جديد يعود الفتى للاتصال بجمعية الحصافية وإلى جوارها ينضم إلى جمعية أخرى تنظم المحاضرات الإسلامية هي «جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية»[٨٩].

هو إذن صوفي يأخذ نفسه بالجد في العبادات كغيره من أبناء جماعته... وهو باحث عن المعرفة الإسلامية يستمع إلى محاضراتها.. ولكن ذلك لا يصلح حال القاهرة المتمردة أمام عينيه، تلك المدينة التي يشعر تجاهها بغربة قاتلة وتجاه تصرفات جمهورها برفض قاطع.. هنا تتكون القناعة الأساسية التي حركت وجدان الفتى طوال ما بقي من حياته «المسجد وحده لا يكفي» فلابد من رجال يهبون حياتهم «للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».. ومنه ومن عدد من أصدقائه الطلاب في دار العلوم، والأزهر.. تكونت مجموعات للوعظ والإرشاد في المساجد والمقاهي وغيرها من التجمعات الشعبية.. وكان هدف البنا المحدد هو سد هذه الهوة التي تفصل بين الحياة الفعلية للإنسان المسلم وبين التعاليم الإسلامية، وذلك بحثّ المسلم على أن يتكيف بحياته ويحصرها في إطار هذه التعاليم.. ومن القاهرة إلى الريف انطلق الشبان الذين أصبح من الممكن اعتبارهم النواة الأولى لجماعة الأخوان المسلمين[٩٠].

وفي هذه الأثناء كان الفتى الشيخ حائراً يبحث عن مشورة لدى الجيل الأكبر سناً من رجال الدين.. وفي المكتبة السلفية تعرف على مديرها محيي الدين الخطيب ثم تعرف على الشيخ رشيد رضا.. وأيضاً بفريد وجدي

---

(٨٨) المؤتمر الخامس ص ٧.

(٨٩) المرجع السابق ص ٧.

(90) **Mitchell,Ibid. P.5.**

وأحمد تيمور باشا محاولاً أن يستلهم من هؤلاء طريقاً جديداً للعمل من أجل الإسلام[91].

والتقى أيضاً بمشايخ الأزهر فلم يعجبه منهم استسلامهم أمام التيارات غير الدينية.. وبدأت علاقاته بهذه الفئة من «الموظفين الدينيين» كما أسماهم هو تؤرقه.. فإذا كان شيوخ الأزهر على هذا الحال من الاستسلام.. فما هو السبيل؟

كان الفتى يدرك أنه لابد من عمل ما.. لابد من طريقة ما لنشر الدعوة الإسلامية ومقاومة هذه التيارات الجارفة للمدنية الحديثة وللدعاوي العلمية والعلمانية.

لكن واحداً ممن قابلهم لم يُسدِ له نصحاً وافياً ولا إجابة شافية.

وفي السنة النهائية بدار العلوم طلب إليه كتابة مقال مدرسي موضوعه «تحدث عن الآمال الكبيرة التي تراودك بعد إتمام دراستك، وبين كيف ستعد نفسك لتحقيق تلك الآمال»، وعبر الفتى عن كل طموحه ومشاعره «إن أفضل الناس هم أولئك الذين يحققون سعادتهم بتوفير سبل السعادة للآخرين والتفاني بالعمل الصادق في خدمة الإنسانية» أو «طريق التعليم وإسداء النصح».

ويسكب الفتى على الورق كل ما في نفسه من مرارة.. «أنني أعتقد أن شعبي قد ابتعد عن أهداف إيمانه نتيجة للمراحل السياسية التي مر بها والتأثيرات الاجتماعية التي تعرض لها وتحت تأثير الحضارة الغربية.. والفلسفة المادية والتقاليد الإفرنجية».

وهكذا فقد أصبح إيمان الشباب فاسداً وسادت بينهم «مشاعر الشك والحيرة، وبدلاً من الإيمان تفشى الإلحاد..» وبعد كل هذا القدر من النقد لمجتمعه يقرر الفتى الشيخ إطار مستقبله «أن يكون ناصحاً ومعلماً» وأن يكرس نفسه لتعليم الأطفال بالنهار وآبائهم بالليل، مبصّراً إياهم بأهداف

---

[91] مذكرات الدعوة والداعية. ص ٤٩.

الدين والمصادر الأصلية لرفاهيتهم وسعادتهم في الحياة، وهو يتعهد أن يبذل لهذه المهمة أقصي ما يمكنه من مثابرة ونكـران ذات، ومـن فهـم ودراسـة، واهباً لذلك جسداً يشوق لمواجهة المصاعب وروحاً نذرها لله. ثم يختم مقاله بعبارة: «هذا عهد بيني وبين ربي»[(٩٢)].

بهذه المشاعر يتخرج الفتى.. الشيخ حسن البنا من كلية دار العلوم عـام ١٩٢٧.. وعين مدرساً للغة العربية بمدرسة ابتدائية في مدينة الإسماعيلية.

وهكذا أعد المسرح.. وتهيأ البطل.

ولا يبقى أمامنا سوى أن نتابع الأحداث.

---

(٩٢) أحمد أنس الحجاجي ـ روح وريحان ـ ص ٨٥.

الشيخ.. مرشداً

.. نحن الآن نقترب من نهاية العشرينيات.. ويمسك الشيخ البنا قلمه ليصف هذه الفترة قائلاً «أنه الوقت الذي تأرجحت فيه الأمة المصرية في حياتها الاجتماعية بين إسلامها الغالي العزيز الذي ورثته وحمته وألفته، وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرناً كاملة، وبين هذا الغزو الغربي العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة ووسائل الدعاية»[1] .

وكانت محاولات الاستفزاز للمشاعر الإسلامية مستمرة، وتتداخل فيها عناصر مريبة، فصحيفة «إسرائيل» لصاحبها البرت موصيري وكانت جريدة صهيونية صرفة تجاهر بصهيونيتها[2] تشن حملاتها حول موضوع «التبشير» فتنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان «كيف حاولوا تنصيري» تتحدث فيها عن محاولات تنصير التلاميذ اليهود والمسلمين في المدارس الكاثوليكية[3]. وتتصاعد في نفس الوقت الموسيقى المصاحبة من الجانب الآخر حيث تمارس جماعات مشبوهة محاولاتها للتبشير، بل وشرذمة واستقطاب عدد من المسيحيين نحو مذاهب لم تكن معروفة في مصر.

وكانت التجربة الدستورية تتعثر والبناء الرأسمالي يتعثر أيضاً، والأزمة الاقتصادية العالمية تنعكس آثارها عنيفة على مصر لِتُشعر الجميع

---

(1) مذكرات الدعوة والداعية ـ ص ٤٩.

(2) طارق البشري ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣٨.

(3) «إسرائيل» ـ ٣١-٧-١٩٣١.

بالإحباط. ويحاول البعض أن يجد في «الإسلامية» مخرجاً من هذه الأزمات المتلاحقة[٤].

وفي ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ يبتدئ العام الدراسي، ويكون على المدرس الشاب أن يرحل إلى مدينة جديدة تماماً، وهو يعترف بأنه لم يكن يعرف موقعها على الخريطة، وكل ما كان يعرفه عنها أنها ترتبط بقناة السويس.. وأن فيها معسكرات للمحتلين الإنجليز.

وفي الإسماعيلية يهب الشاب حياته لتنفيذ الفكرة التي آمن بها والتي سجلها كتابه في موضوع بحثه الذي قدمه لدار العلوم والذي أشرنا إليه سابقاً.. كان يعلم الأطفال نهاراً، وآباءهم ليلاً ومعظم هؤلاء الآباء عمال وموظفون صغار وتجار بسطاء[٥]. ومن المدرسة إلى المسجد يلقى خطباً ومواعظ، ومن المسجد إلى المقاهي يتحدث ويخطب ويناقش، ومن خلال ذلك كله ينتقى أكثر الناس اهتماماً ليكوّن منهم مجموعات خاصة يمنحها المزيد من وقته وجهده.

ويحدد المدرس الشاب أسهم اتجاهه.. إنه يريد أن يمسك بمصادر النفوذ في المدينة وقد حدد هذه المصادر:

١ ـ العلماء.

٢ ـ مشايخ الطرق الصوفية.

٣ ـ علية القوم.

٤ ـ النوادي[٦].

---

[٤] يلاحظ أن انهيار التجربة الدستورية السريع في الداخل، وتفاقم الأزمة الاقتصادية على نطاق المعسكر الرأسمالي كله، وإصرار الكثير من المفكرين وحتى الليبراليين منهم على رفض الاشتراكية.. لم يترك أمامهم سوى «الإسلامية» مخرجاً وأملاً.. ويبدو ذلك من نزوع الكثيرين من أمثال د.محمد حسين هيكل وعباس العقاد ود.طه حسين وتوفيق الحكيم نحو البحوث والكتابات الإسلامية.

[٥] فتحي العسال ـ حسن البنا كما عرفته. ص ٥٤.

[٦] مذكرات الدعوة والداعية ـ ص ٢٢.

وكانت المدينة تعاني من السيطرة الأجنبية الكاملة.. كل شيء للاحتلال ولشركة قناة السويس حتى لافتات الشوارع مكتوبة بالإنجليزية.. أما المصريون فلا يخصهم في هذه المدينة سوى «البؤس». وعلى أية حال فإن دعوة حسن البنا «لم تكن موجهة إلى كبار موظفي شركة القناة وإنما إلى العمال المطحونين وإلى الفقراء، وهؤلاء الذين عاشوا الحرمان في مواجهة الامتيازات الصارخة للمجتمع الأوربي في المدينة، كانوا على أتم استعداد للإنصات لدعوة البنا»[٧].

وبرغم انهماك حسن البنا في عمله الجديد في الإسماعيلية، وبرغم إحساسه بخصوبة التربة في الإسماعيلية وسرعة عطائها، إلا أنه لم يقطع علاقاته بالقاهرة.. تلك المدينة التي لم ينس لها أبداً «خطاياها».

وفي عام ١٩٢٧ أيضاً كانت هناك في القاهرة.. ولنفس الأسباب التي حركت وجدان الشيخ الشاب في الإسماعيلية.. حركة متقدة بين بعض الدعاة الإسلاميين انعكست «في تشكيل جمعيات دينية ذات طابع اجتماعي، تعمل على تربية الجيل الجديد وفقاً للتعاليم والأخلاقيات الإسلامية، ودونما خوض في الواجبات الملحة تجاه المجتمع ككل. وكانت أهم هذه الجمعيات «جمعية الشبان المسلمين»[٨]. وقد أسهم في تأسيس هذه الجماعة العديد من الشخصيات الإسلامية بعضها من رجال الحزب الوطني (عبد الحميد بك سعيد والشيخ عبد العزيز جاويش) وبعضها من تلاميذ الشيخ محمد عبده (أحمد تيمور باشا ومحب الدين الخطيب ومحمد الخضر حسين)[٩].. والحقيقة أن جمعية الشبان المسلمين برغم أنها «قد رفعت شعارات دينية صريحة إلا أنها لم تهتم في نشاطها العملي بتعميق التعاليم

---

(7) **Khadduri - Ibib,P. 74.**

(٨) المرجع السابق، ص٧

(٩) لمزيد من التفاصيل عن جماعة الشبان المسلمين راجع:

Heyworth - Dumme,J - Religious and political Trends in Egypt, (1950) PP. 11-14.

الإسلامية، كذلك فإنها قد توجهت أساساً إلى الشبان ودوائر المتعلمين ولم تبذل أي جهد للتوجه نحو الجماهير وكانت الحاجة ملحة في الدوائر الإسلامية إلى التركيز على العمل الديني في مواجهة التيارات العلمانية... وهكذا تكونت جماعات عدة ذات واجهات متطرفة لكن أحداً منها لم يستطع أن يعمق جذوره، وأن يكسب تأييداً كذلك الذي كسبته جماعة الأخوان المسلمين»[١٠].

وهكذا فإن حسن البنا برغم اتصاله بجماعة الشبان المسلمين، وبرغم أنه كان مراسلاً في الإسماعيلية لمجلة «الفتح» التي أشرف على تحريرها محب الدين الخطيب أحد قادة الشبان المسلمين إلا أنه كان يشعر بالحاجة إلى تأسيس جماعة من نوع جديد.

وكانت اتصالاته في الإسماعيلية تتبلور في عدد محدود، وبرغم جهده المكثف واتصالاته الواسعة.. تبلور الأمر في البداية في ستة من العاملين بالمعسكرات البريطانية.

كان ذلك في مارس ١٩٢٨.. عندما اجتمع البنا بالرجال الستة. وقد حرص البنا على أن يروي لنا قصة الاجتماع الأول، وأن يرويه بأسلوب درامي يوحي بأن الدعوة قد نبعت من نفوس أتباعه وأنه لم يفرضها على أحد.. لقد تجمع الرجال الستة.. وتوجهوا لحسن البنا وبعد أن شكروه على ما بذله من جهد في تعليمهم وتعريفهم بأمور دينهم قالوا.. «لقد سمعنا ووعينا وتأثرنا، ونحن لا نعرف السبيل العملي للوصول إلى عزة الإسلام وخدمة ورفاهية المسلمين. لقد سئمنا حياة الذل والقيد هذه.. وعار علينا أن نرى العرب والمسلمين بلا منزلة ولا كرامة إذ أنهم ليسوا أكثر من أجراء وتابعين للأجانب. ونحن لا نملك شيئاً إلا دمنا وأرواحنا.. وقليل من المال، وإنا لنشعر بالعجز عن تفهم الطريق إلى العمل كما تفهمه أنت، ولا نعرف الطريق إلى خدمة الوطن والدين كما تعرفه أنت. وكل ما نرغب فيه الآن هو

---

(10) **Khadduri - Ibib,P. 70.**

أن نقدم لك ما نملكه حتى نصبح في حل من المسؤولية أمام الله، ولكي تصبح أنت مسؤولاً أمامه عما يجب أن نقوم به، فإذا تعاهدت مجموعة أمام الله وبإخلاص على أن تحيا في سبيل دينه وأن تموت في سبيله، وعلى ألا تسعى إلا إلى ما فيه رضاه، فسوف تضمن نجاحها وفلاحها مهما قل عدد أعضائها»[١١].

وتبدو الصورة الدرامية واضحة من فخامة الأسلوب وعمق الفكرة، ولعلها تبدو كذلك أيضاً عندما يؤكد الشيخ البنا في حرص على أن الدعوة قد جاءته ولم يطلبها، والبيعة قد أتته ولم يذهب إليها، وأنه حمل على كتفيه ـ دون أن يطلب ـ مسؤولية القائد.

وتكتمل الصورة الدرامية عندما يتحدث البنا عن تأثره العميق بكلمات الرجال الستة، وتهيبه من تحمل المسؤولية التي ألقيت على عاتقه، وكيف أنهم أقسموا جميعاً على أن يكونوا «جنداً لرسالة الإسلام» وتباحثوا في اسم للجماعة فقال البنا «نحن أخوة في خدمة الإسلام ومن ثم فنحن الأخوان المسلمون»[١٢].

وبرغم اختلاف الشيخ البنا على الجماعات الدينية السابقة إلا أنه قد أعلن عن نفسه في البداية كجماعة دينية خالصة هدفها «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[١٣].

ويلاحظ أن البنا قد أكد أن جمعيته لم تكن في البداية سوى امتداد للجمعية الحصافية الخيرية التي دعت إلى مكارم الأخلاق ومقاومة المنكرات وحملات التبشير «وقد كافحت الجمعية في سبيل رسالتها مكافحة مشكورة وخلفتها في هذا الكفاح جمعية الأخوان المسلمون»[١٤] وكان البنا يؤكد في

---

[١١] مذكرات الدعوة والداعية، ص ٧٣ ـ ٧٤.

[١٢] موسى إسحق الحسيني. المرجع السابق، ص ١٧.

[١٣] د. يونان لبيب رزق ـ الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية (الأهرام) (١٩٧٧) ـ ص ٨٨.

[١٤] مذاكرات الدعوة والداعية، ص١٦.

البداية أن هدف جمعيته «يتلخص في الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله، وتطهير العقول من الخرافات والأوهام، وإرجاع الناس إلى هدى الإسلام الحنيف»[١٥].

ويلاحظ أحد الباحثين أن هذه الأهداف لم تكن لتختلف مطلقاً عن هدف أية جمعية إسلامية خيرية[١٦] ويعزز استنتاجه هذا برؤية لأحد مؤسسي الجماعة هو د. عبد الرحمن حسب الله في ذكرياته التي يؤكد فيها أن الجماعة كانت في البداية تمثل جمعية خيرية[١٧].

لكن البنا يعود فيؤكد «أيها الأخوان: أنتم لستم جمعية خيرية ولا حزباً سياسياً ولا هيئة موضوعية الأهداف محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة ينجيه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المادة بمعرفة الله»[١٨].

ويلاحظ باحث آخر أن البنا كان يقدم لأتباعه مزيجاً من «التقاليد الصوفية المتجردة مع الفكر العقائدي ولكن دون محتوى نظري ولو حتى في إطار إسلامي بحت»[١٩].

وربما كان ذلك بسبب حرص البنا على عدم التمذهب بجماعته.. بمعنى عدم إعلان انتماء جماعته أو تفضيلها لمذهب من المذاهب الأربعة أو لغيرها من المدارس أو الحركات التي ظهرت على الامتداد التاريخي للعمل الإسلامي.. فالمذاهب الأربعة واجبة الاحترام والاختلافات بينها يتعين النظر إليها بعين الحب والإخاء.. فقد حرص البنا على ألا يدع مجالاً للاختلاف بين المسلمين إزاء دعوته[٢٠].

---

(١٥) المرجع السابق، ص١٤٢.

(١٦) السيد محمد عشماوي ـ تاريخ الفكر السياسي المصري ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢.

(١٧) السيد محمد عشماوي ـ تاريخ الفكر السياسي المصري ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢.

(١٨) حسن البنا ـ بين الأمس واليوم ص٢١.

(19) Gibb,W.A.R, Modern Trends in Islam (1947) P.7.

(٢٠) حسن البنا ـ بين الأمس واليوم، ص٩.

على أية حال فقد «نجحت جماعة الأخوان في تقديم نفسها كحركة دينية واعتبرت نفسها البديل عن تعثر الاتجاهات العلمانية وتعثر أنماط وأنظمة الحكم والقيم الأوربية «المستوردة». وقدمت نفسها إلى أنها قادرة على تقديم الحلول المحددة للقضايا الأيديولوجية والتناقضات الاجتماعية التي واجهت المجتمع المصري في ذلك الوقت، مؤكدة أن القرآن هو الأساس القوي لقيام مدينة فاضلة»[٢١].

وقبل أن نحاول فحص هذه المقولة تفصيلاً تلح علينا ملاحظة أوردتها باحثة في تاريخ الفكر السياسي المصري إذ لاحظت ذلك الحماس غير المعتاد الذي استقبلت به جريدة كالأهرام.. جماعة الأخوان المسلمين. فمنذ نشأة الجماعة والأهرام يتابع بصورة غريبة نشاط الجماعة مقرظاً ومؤيداً.. في يناير ١٩٢٩ صورة للمؤسسين وعددهم اثني عشر عضواً.. وفي فبراير ١٩٢٩ خبر عن تأسيس فرع للجماعة في أسيوط ثم خبر عن افتتاح فرع القاهرة في شارع القصر العيني، وبعدها أخبار عدة عن تأسيس فروع في نجع حمادي وبنها.. الخ[٢٢].

ثم تعاود جريدة الأهرام التي اشتهرت بتحفظها التقليدي تجاه الجماعات الدينية وخاصة الإسلامية منها اهتمامها بل ودعايتها للجماعة: «أن الأخوان يقدمون للبيئة المصرية معهداً علمياً متكاملاً بإنشائها قسماً ليلياً للغات الحية وآخر للفنون الجميلة نذكر منها الموسيقى الشرقية، وفن التمثيل من الناحية الأخلاقية، وأنشأت قسماً للحفر - بالإضافة إلى القسم الرياضي، وبجانب هذه الأقسام اهتمت الجماعة بتكوين مكتبة عامرة بالمؤلفات النفيسة والمطبوعات مما جعلها مرجعاً وافياً بحاجة الأعضاء»[٢٣].

---

[٢١] السيد محمد عشماوي - المرجع السابق ص ٤٠٠.

[٢٢] آمال محمد كامل بيومي - التيارات السياسية في مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢. رسالة ماجستير غيرمنشورة - ص٢٥.

[٢٣] الاهرام ٢٠ يناير ١٩٣٠.

.. ونتجاوز هذه الملاحظة.. ونتركها كعلامة استفهام.

ونحاول أن نتقدم في بحثنا.. وأمامنا خطوتان هامتان.

أن نلقي نظرة على.. الرجل.

.. وأخرى على.. الجماعة.

فقط يتعين علينا أن نحذر من أن مجرد محاولة فصل الرجل عن الجماعة تشبه محاولة الجراح استخدام مشرطه بين عضلتين في عضو واحد.

الرجل..

ماذا يمكن أن يحدث عندما ينصهر في بوتقة واحدة ولاء الصوفي لشيخه، بيعة المريد لإمامه، بوفاء السياسي لزعيمه؟

الإجابة.. يحدث ذلك النوع الغريب من الحب الذي ربط كل أخواني بالشيخ حسن البنا.. «ارم بنا حيث شئت، فو الله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك»[1] هكذا حدثه أحد أتباعه.

«كان كل منا يشعر أنه يقف منه موقف المريد من شيخه، وقد أسلم له القياد ليأخذ بيده إلى الله»[2] هكذا تحدث عنه واحد من كبار قادة الإخوان.

«كان يجلس على الحصير إذا كان المجلس أرضا، وفي آخر الصفوف إذا اصطفت المقاعد للجلوس، منكمشاً فلا يكاد يرى، متواضعاً فلا يكاد يعرف، يلبس في غالب أحيانه الجلباب العادي من أرخص الأقمشة»[3] هكذا وصفه زعيم أخواني آخر.

ويتحدث عنه كاتب أمريكي فيقول «زرت هذا الأسبوع رجلاً قد يصبح من أبرز الرجال في التاريخ المعاصر، وقد يختفي إذا كانت الحوادث أكبر منه، وذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الأخوان» ويقول «كان الرجل خلاب المظهر، رقيق العبارة، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية، لقد حاول أتباعه الذين كانوا يترجمون بيني وبينه أن يصوروا لي أهداف هذه الدعوة وأفاضوا في الحديث على صورة لم تقنعني، وظل الرجل صامتاً حتى إذا بدت الحيرة على وجهي قال لهم: قولوا له شيئاً واحداً هل قرأت عن محمد؟ قلت نعم، قال هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قلت نعم، قال هذا

---

[1] مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين (١٣٥٧هـ) (من خطاب لمحمود الجندي جمعة عضو مكتب الارشاد العام).

[2] الدعوة، ١٥-٢-١٩٥٥- حسن العشماوى مقال :ماذا أقول عن حسن البنا؟.

[3] الدعوة، ١٥-٢-١٩٥٥- عبدالرحمن البنا مقال :الرجل لم يحمل ضغنا .

هو ما نريده. لقد نظرت إلى هذا الرجل.. سمته البسيطة، ومظهره العادي، وثقته التي لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته، وكنت أتوقع أن يجئ اليوم الذي يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا في مصر وحدها، بل في الشرق كله»[٤].

ويمضي الكاتب الأمريكي «لقد حمل حسن البنا المصحف ووقف له في طريق رجال الفكر الحديث».. و«وكان الرجل القرآني يؤمن بأن الإسلام قوة نفسية قائمة في ضمير الشرق وأنها تستطيع أن تمده بالحيوية التي تُمكّن له في الأرض».

.. وهكذا يمكننا أن نجد العشرات والعشرات من الآراء التي تثير دهشة القارئ لما قد يلمحه فيها من مبالغة.. والعجيب أن هذا القدر من الإفراط في الحب لدى أتباع الشيخ يقابله مثله ، وربما أكثر ـ من الخصومة والرفض لدى مناوئيه.

أي رجل هذا...؟

نعود مرة أخرى.. إلى فحص ملفه.

مدرس لغة عربية في مدرسة ابتدائية بالإسماعيلية.. وعندما بدأ نشاطه الجم في صفوف العمال والحرفيين خاض غمار هذا النشاط بحماس يفوق الوصف.. وكان حماسه هذا يأسر أتباعه وخصومه معا.. كان لا يعرف اليأس ولا التعب.. يقحم نفسه على المجلس أي مجلس محتمياً بدعوته إلى القرآن والدين.

قرر يوماً أن ينشئ فرعاً لجماعته في أبو صوير فسافر إلى البلدة وحيداً ولم يكن يعرف فيها أحداً ومضى في الشارع يتفرس في وجوه الناس في الطرقات والمقاهي والحوانيت حتى رأى صاحب دكان «وقوراً مهيباً سمحاً فيه صلاح وله منطق ولسان. ورأيته يبيع ويتحدث إلى زبائنه فتوسمت فيه

---

[٤] الهلال ـ إبريل ١٩٧٧ـ مقال :رأى كاتب أمريكي في حسن البنا ــ بقلم روبير جاكسون ــ ترجمة أنور الجندي .

الخير فسلمت عليه وجلست إليه وإلى من معه في الدكان وقدمت لـه نفسي والغرض الذي من أجله زرت أبو صوير وأنني توسمت فيه الخير ليحمل أعباء هذه الدعوة. وأخذت في حديثي ألفت نظر الجالسين إلى نقط أساسية: إلى سمو مقاصد الإسلام وعلو أحكامه وإلى ما في المجتمع من فساد وشر وسوء، وإلى أن ذلك ناتج من تركنا لإحكام الإسلام. وإلى وجوب الدعوة إلى تصحيح هذا الوضع وإلا كنا آثمين لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة فريضة واجبة. وإلى أن الطريقة الفردية وحدها لا تكفي»[(٥)].

ويمكن القول أن رحلة أبو صوير هذه قد تكررت مئات بل وآلاف المرات. والشيخ الشاب يحمل حقيبة صغيرة فيها ملابسه يتجول من قرية لقرية، ويقصد أعيان القرى يقيم في مضايفهم، يتحدث ويناقش ويدعو، فإن لم يجد صدراً رحباً فالمسجد موجود فيه يستريح، وينام ويدعو الناس.

«وكان أعجب ما في الرجل صبره على الرحلات في الصعيد.. هذه الرحلات التي لا تبدأ إلا في فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلي في حالة غليان.. وفي أحشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام. وهناك تراه غاية في القوة واعتدال المزاج.. لا الشمس اللافحة ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه ولا هو يضيق بها».. «وقد أمدته هذه الرحلات في خمسة عشر عاماً زار خلالها أكثر من ألفي قرية.. وزار كل قرية بضع مرات بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض.. وألوانها السياسية وأثرها في قراها، ورضا الناس عنها وبغضهم لها.. وما بين البلاد أفراداً وأحزاباً وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات.. وكان يزور أحياناً بلداً من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى فيقصد إلى المسجد مباشرة، أو يغير طريق سفره فلا يستقبله أحد إلا بعد أن يكون

(٥) مذكرات الدعوة والداعية، ص١٠٠.

قد قصد إلى دار عامل فقير في البلد.. وكنت إذا قلت له فلان الحسني مثلاً أو الحديدي أو الحمصاني، قال لك.. إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع إحداها في القاهرة والثانية في دمنهور والثالثة في الزقازيق والرابعة في.. فأيهما تقصد؟.. وقد حدثني أنه كان يدخل بلداً من البلاد أحياناً لا يعرف فيه أحداً فيقصد إلى المسجد فيصلي مع الناس ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام.. وأحياناً ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت رأسه والتف بعباءته»(٦).

كانت هذه الشبكة الواسعة جداً من العلاقات الشخصية هي مصدر زعامة حسن البنا وهيمنته على الجماعة.. فإن عشرات الألوف من أعضاء الجماعة كانوا يفخرون بأنهم أصدقاء شخصيون للمرشد(٧).. ومن هذه الصداقات وبها أقام المرشد جماعته وهيمن عليها.. وعندما كانت الجماعة بصدد شراء المبنى الذي أصبح مركزاً عاماً لها وأشفق البعض من ضخامة الثمن المطلوب قال البنا ببساطته المعهودة «إنني أعرف شخصيا عشرة آلاف من الأخوان المسلمين، كل منهم مستعد أن يعطيني أي شيء أطلبه منه.. وقد غطى المبلغ خلال أسبوع».

وإذا كان البنا يجذب مريديه ببساطته وعلاقاته الشخصية، فإن أتباعه قد بالغوا إلى حد كبير في إضفاء هالات من الزعامة حوله.. فإذا كان هو قد اختار لنفسه لقب «مرشد» فإن أتباعه كانوا يطلقون عليه أسماء عدة منها رجل الساعة ـ والقائد الإسلامي ـ والأخ الروحي ـ والمناضل العربي ـ والمصلح الاجتماعي ـ والمؤمن القوي(٨). وإذا كانت دراسات عديدة قد أفاضت في أسباب وبواعث قوة جماعة الإخوان المسلمين فإن كتاب ومفكري الجماعة أنفسهم قد أكدوا أكثر من مرة «أن سر نجاح الحركة كان يكمن في

---

(٦) الهلال - إبريل ١٩٧٧- رأى كاتب أمريكي في حسن البنا، المرجع السابق.

(٧) الرسالة، ٢٨- ٤ - ١٩٥٢.

(8) **Mitchell - Ibid.P.297.**

شخصية البنا»[9] بل إن كاتباً آخر من مؤرخي الإخوان يقول «أن سيطرة البنا على أتباعه كانت مطلقة كاملة إلى درجة تصل إلى السحر»[10].

وقد وصفت جريدة مصرية في تهكم واضح طبيعة العلاقة بين المرشد وأتباعه فقالت «إذا عطس المرشد في القاهرة قال له الإخوان في أسوان يرحمكم الله»[11].

.. وعندما مات البنا كتب أحد أتباعه قائلاً «سأحيى وأموت مقيماً على ولائي لك»[12].

لقد كان البنا زعيماً حقاً لا جدال في ذلك.. ولقد أعد نفسه منذ البداية ليكون كذلك.. فهو يقول «يجب أن يكون الزعيم تربى ليكون كذلك، لا زعيماً خلقته الضرورة وزعمته الحوادث فحسب، أو زعيماً حيث لا زعيم.. أن زعماء خلقتهم الظروف، أرادوا أن يستعجلوا النتائج قبل الوسائل وخدعتهم غرارتهم بقيادة الشعوب ومكائد السياسة فظنوا السراب ماء»[13].

ومنذ البداية صمم المرشد على أن يعود أتباعه على الطاعة المطلقة.. أليست هي «البيعة في المنشط والمكره»، وعندما كان المرشد يستعد لمغادرة الإسماعيلية منقولاً إلى القاهرة مدرساً بمدرسة عباس بالسبتية اختلف مع بعض أعضاء الجماعة هناك حول من يخلفه في قيادة الشعبة.. ولاين البنا المختلفين معه لكنهم صمموا على اختلافهم وأبلغوا ضده النائب العام على أساس أنه قد بدد أموال الجماعة.. فلما خرج من التحقيق بريئاً حاولوا ملاحقته بالاتهام لدى ناظر مدرسته بالقاهرة.. وهنا ظهرت لأول مرة قوة

---

(٩) فتحي العسال، حسن البنا كما عرفته. المرجع السابق .

(١٠) موسى إسحق الحسيني، المرجع السابق، ص ٥٤.

(١١) أبوالحسن الندوى، مذكرات سائح في الشرق العربي (١٩٥٤) ص ٤.

(١٢) احمد أنس الحجاجي، الرجل الذي اشعل الثورة (١٩٥٢) ص ٤.

(١٣) مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٤٦.

الردع البدني في الجماعة حيث تجمع عدد من أصدقاء المرشد «واعتدوا على المنشقين بالضرب وقبض عليهم وقدموا للمحاكمة»[١٤].

والغريب أن البنا يورد الواقعة دونما تحرج أو استنكار لأسلوب «التعدي» على الخصوم السياسيين.. وبعد حادث مدرسة عباس الابتدائية بالسبتيه.. بدأ الضرب والاعتداء البدني على خصوم الجماعة أسلوبا معتمداً من الأخوان.

ويتحدث البنا عن هذا الاختلاف قائلاً «الواقع أن هذا المظهر كان جديداً وغريباً على أوضاع الإخوان التي لم تعرف إلا الوحدة الكاملة والاندماج الكامل، فرأى أحدهم هو رأى جميعهم..» بل هو يؤكد أن المخالفين له قد تلبسهم الشيطان وزين لهم ذلك.. ثم لا يلبث أن يسميهم بالخوارج ويؤكد ضرورة أخذهم بالحزم «فإن من يشق عصا الجمع، فاضربوه بالسيف كائنا من كان لكنه يتأسف لأننا تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التي يسترونها بألفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية»[١٥].

ولنتأمل هذه العبارة فهي تلخص كل فلسفة الشيخ في العمل التنظيمي وفي حقوق المختلفين معه في الرأي.. وهي تشرع للإخوان الحق في أن يضربوا المختلفين معهم في الرأي «بالسيف».. ولعلهم قد أطاعوا شيخهم كثيراً في هذا الصدد.

وعلى أية حال فإن المرشد لم يكن ليخفى سيطرته المطلقة على الجماعة بل لعله كان حريصاً على إبرازها فهو يقول «أن فرعي جمعية الأخوان بالمحمودية وشبراخيت سوف لا ينفعان كثيراً لأنهما أنشئا بغير أسلوبي ولا ينفع في بناء الدعوة إلا ما بينت بنفسي وبجهود الأخوان الحقيقيين والذين يرون لي معهم شركة في التهذيب والتعليم وهم قليلون»[١٦].

---

(١٤) المرجع السابق، ص ١٦٦.

(١٥) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(١٦) المرجع السابق، ص ١٥١.

والأخ المثالي في نظر المرشد هو من لا رأي مستقل له «والأخ الشيخ.. له أساليبه الخاصة، وهو ينظر لي كأخٍ وزميل فلا يصغي لآرائي إلا قليلا، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكر ضرباً من التعسر، فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك»[١٧]، وهو يشكو.. ويشكو من رجاله، إنني أتمنى أن يكون إلى جانبي رجال يفهمون ويدبرون فأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلاً وأطمئن إلى مقدرتهم.. ولكن أين هم(!)[١٨].

لكن أغرب ما كتبه البنا في هذا الصدد عبارة تستحق التأمل لأنها توضح طبيعة تقييمه للمتعاونين معه من رجاله فهو يشكو من أنه يجد نفسه بين «ضعف الأمين وخباثة القوي» ونتأمل هذه العبارة ولا نملك إلا الدهشة.

وكان البنا هو المنظم الأساسي للجماعة وصاحب نظريتها التنظيمية فصاغ للجماعة «فكراً وتنظيماً بما يجعلها مرتبطة به شخصياً، وما يجعله المسيطر الأوحد عليها، المسك بأعنتها والموجه لنشاطها وقد استغل في ذلك عاملين أولهما: الغموض المحيط بأهدافها وبطبيعتها وبمناهجها العملية كدعوة سياسية، وثانيهما: بناء تنظيم الجماعة بطريقة تجعله صاحب الأمر وحده وتجعل سائر أجهزة التنظيم ومستوياته ولجانه كيانات استشارية يملك عليها الأمر ويجب عليها له السمع والطاعة»[١٩].

وعندما اجتمع المؤتمر الثالث للإخوان ليحدد الهيكل التنظيمي للجماعة وبشكل هيئاتها المختلفة فإنه ينتهي إلى فقرة تقول «وقد ترك المجتمعون لفضيلة المرشد العام تحديد مهمة كل هيئة من هذه الهيئات ووضع البيان الذي يوضح ذلك التحديد»[٢٠]. وهكذا منح المؤتمر تفويضاً شاملا للمرشد بالسيطرة على كل أجهزة الجماعة وهيئاتها.

---

(١٧) المرجع السابق، ص ١٤٢.

(١٨) المرجع السابق ، ص ١٤٣.

(١٩) طارق البشري، المرجع السابق ص٣٦٧.

(٢٠) مذكرات الدعوة والداعية، ص ٢٠٦ .

وكانت الهيئة التأسيسية لجماعة الأخوان تتكون من ١٥٠ عضواً «وهي بمثابة مجلس الشورى العام، والجمعية العمومية لمكتب الإرشاد وتضم من سبقوا للعمل للدعوة.. وهي من يمنح العضوية لنفسها بمعنى أنها شكلت أولاً بالاختيار ثم تتولى هي اختيار الأعضاء لها.. وينبني الهيكل الأساسي للتنظيم على مبدأ الاختيار من أعلى»[٢١].

وكان مكتب الإرشاد يتكون من ١٢ عضواً، ٩ أعضاء من القاهرة، ٣ من الأقاليم[٢٢]. ويشير بعض معارضي البنا إلى أن مكتب الإرشاد كان في بداية الأمر مكوناً من عشرين عضواً فلما ثارت أزمة صهره عبد الحكيم عابدين والتهم الأخلاقية التي وجهت إليه استخدم البنا سلطته في تخفيض عدد أعضاء مكتب الإرشاد إلى ١٢ عضواً ليسهل سيطرته على المكتب بعد أن يتخلص من خصوم صهره[٢٣]. وعلى أية حال فإن كل تاريخ الجماعة يؤكد أن سلطات المرشد كانت مطلقة.

وعندما بدأ عبد المجيد حسن (قاتل النقراشى) يدلى باعترافاته قال «قد أخبرني عبد السميع الغنيمي الذي استقال من جماعة الإخوان أن سبب خروجه من الجماعة هو أن الأستاذ حسن البنا كان يفرض إراداته على مكتب الإرشاد العام»[٢٤].

وثمة شاهد آخر هو صالح عشماوي فهو يكتب قائلاً «عند أول عهدي بعضوية مكتب الإرشاد ثار البحث هل الشورى في الإسلام ملزمة أم غير ملزمة؟ أي هل يتقيد فضيلة المرشد العام برأي مكتب الإرشاد أم أن المكتب هيئة استشارية للمرشد له أن يأخذ برأيها أو يخالفه إذا شاء. وكان رأي

---

(٢١) محمد شوقي زكي، الإخوان المسلمون والمجتمع المصري ـ دار العهد الجديد للطباعة (١٩٥٤).

(٢٢) قانون النظام الأساسي لهيئة الإخوان المسلمين العامة، م ١٩، ص ١٦.

(٢٣) الجمهورية، ٢٣- ٩- ١٩٥٤.

(٢٤) لطفي عثمان، قضية مقتل النقراشي باشا ـ القاهرة (١٩٥٠) ص٣٧.

الإمام الشهيد أن الشورى ليست ملزمة وللمرشد أن يأخذ برأي المكتب ويجوز له أن يخالفه»[٢٥]. والغريب أن عشماوي يورد هذا الأمر مدحاً في فضيلة المرشد الذي ما ضاق أبداً بمطالبة البعض بالديمقراطية.. وان كان قد حرمهم منها بحزم.

ولكن هناك شاهد ثالث من كوادر الإخوان سجل في صراحة فريدة معارضته بل وتهكمه لأسلوب المرشد في السيطرة على الجماعة.. يقول هنداوي دوير أحد قادة الجهاز السري للإخوان في شهادته أمام محكمة الشعب الأستاذ البنا ترك ١٠٠ شخص أو أكثر كلهم قد بعض ولا يدينون لأحد بالولاء.. والأستاذ البنا كان غاوي بترينات.. يعنى المحل مثلاً في الظاهر والبترينة في شارع فؤاد.. ومعنى ذلك أنه كان يضم إلى الجمعية التأسيسية أناساً لا صلة لهم بالاخوان المسلمين، فمثلاً جه واحد من النيابة خرج برشوة، وبصينا لقيناه عضو في الجمعية التأسيسية، والواقع أن الشيخ حسن البنا كان يضعهم في الظل لأنه رجل عملاق. فلما الأستاذ البنا أخذ بهذه الصورة لم يكن للهيئة التأسيسية قوة إرادية أو أى صفة»[٢٦].

ولم يكن ذلك غريباً على منطق الإخوان.. فقد كانت أدبياتهم تؤكد أنه «يجب على الأخ أن يعد نفسه إعداداً تاماً ليلبي أمر القائد في أية ناحية، وأن الدعوة تتطلب منا أن نكون جنوداً طائعين لقيادة موحدة لنا عليها الاستماع للنصيحة، ولها علينا الطاعة كل الطاعة فى المنشط والمكرة»[٢٧].

وفى رسالة «التعاليم» التي صاغها المرشد جاء أنه يتعين على العضو «الثقة بالقائد والإخلاص والسمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكرة»[٢٨] وقد

---

(٢٥) الدعوة، ١٢ـ ٢ـ ١٩٥٢. مقال صالح عشماوي.

(٢٦) محكمة الشعب ـ الجزء الأول ــ المحاكمات التي تمت من ٩ـ١٣ نوفبر ١٩٥٤، محاكمة محمود عبد اللطيف، شهادة هنداوي دوير ص٣٣.

(٢٧) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٢٦ـ١٠ـ١٩٤٦ـ حديث الأسبوع.

(٢٨) حسن البنا رسالة التعليم.

كتب أحد قادة الإخوان مخاطباً المرشد قائلاً «أن مـن علينـا الطاعـة ، علـى هذا بايعنا وعاهدنا ، ولنا فيك الثقة الكاملة وعندك الطمأنينة الشاملة»[٢٩].

ولكنه من حـق الإخـوان علينـا أن نعـود بـالأمر إلى جـذوره الأصليـة.. فالجوهر في كل ذلك هـو فكـرة البيعـة. وقسـم البيعـة عنـد الإخـوان يقـول «أعاهد الله العلي العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسـلمين والجهـاد في سبيلها والقيام بشرائط عضويتها والثقة التامة بقيادتها والسـمع والطاعـة في المنشط والمكرة. وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه والله على ما أقـول وكيل»[٣٠]. والبيعة في رأى المفكر الإسلامي ابـن خلـدون «هـي العهـد علـى الطاعة ، كان المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسـه وأمـور المسلمون ، لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه من الأمر في المنشط والمكرة»[٣١].

وتستند فكرة البيعة إلى حديثين شريفين ، الأول يقول «من مـات وليـس في عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية» ويقول الثاني «من بايع إمامـاً فأعطـاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ونازعه فاضربوا عنـق الآخر».

ويحاول أبو الأعلى المودودى وهو واحد من أشهر المفكرين الإسلاميين في نظر الإخوان المسلمين أن يضع الإطار النظري لفكرة الخضوع المطلق للمرشـد فيقول «لا ينتخب للإمارة إلا من كان المسلمون يثقون به وبسـيرته وبطباعـه وخلقه ، فإذا انتخبوه فهو ولى الأمر المطاع في حكمه ولا يعصـى لـه أمـر ولا نهي ويعتمد عليه في تنفيذ الأوامر اعتماداً كاملاً». والمودودى لا يعتد بـرأي الأغلبية «فالإسلام لا يجعل من كثرة الأصوات ميزاناً للحق والباطل .. فإنه

[٢٩] أنور الجندي، الإخوان المسلمين في ميزان الحق - ص ٦٩ .

[٣٠] قانون النظام الأساسي لهيئة الإخوان المسـلمين وشـعبها طبقـا للتعديـل الـذي أقرتـه الجمعيـة باجتماعها غير العادي (٣٠ يناير ١٩٤٨) ص٧.

[٣١] د.حسين فوزي النجار، الإسلام والسياسة. دار الشعب - القاهرة (١٩٧٧) ص ١٧٤.

من الممكن في نظر الاسلام أن يكون الرجل الفرد أصوب رأياً وأحدّ بصراً في مسألة من المسائل من سائر أعضاء المجلس، فإن كان الأمر كذلك فليس من الحق أن يرمي برأيه لأنه لا يؤيده جمع غفير، فالأمير له الحق أن يوافق الأقلية أو الأغلبية في رأيها وكذلك له الحق أن يخالف أعضاء المجلس كلهم ويقضى برأيه»[٣٢].

ولم يفعل البنا أكثر من أنه قد سار على هذا النهج.

وهكذا استمد البنا قوته المهيمنة علي الجماعة.. من النظرية التي ألبست فكرة البيعة ثياب الخضوع المطلق .. ومن إمساكه بزمام كل أمور الجماعة ما خفي منها وما ظهر .. فقد علم عن المرشد أنه كان يخفى لنفسه وحده كثيراً من المصادر والشخصيات.. التي يستمد منها العون كلما أراد وبحيث «يكون في خفاء بعض علاقاته خفاء لبعض جوانب شخصيته عن الآخرين وخفاء لبعض مصادر قدرته ومصادر معرفته»[٣٣].. ويذكر السادات أن حسن البنا كان يجمع خلال الحرب السلاح ويخزنه بغير أن يطلع أقرب الناس من كبار الإخوان على ذلك.. ويقول السادات «أن حسن البنا وحده كان الرجل الذي يعد العدة لحركة الإخوان ويرسم سياستها ثم يحتفظ بها لنفسه، وأن أقرب الناس إليه لم يكن يعرف من خططه شيئاً ولا من أهدافه شيئاً»[٣٤].

وكان الجهاز السري .. والسلاح مَصْدَرين جديدين من مصادر القوة الطاغية للشيخ .. كذلك فإنه في تنظيم كجماعة الإخوان المسلمين.. تكون الغيبية هي الأخرى سلاحاً في إطلاق الأمام أو الشيخ.

يقول طارق البشري في إشارة إلى هذه المسألة «وعندما يغيب عن الفرد الفهم وتصبح صور الماضي هي الرصيد الوحيد لديه.. وإذا كان الهدف غير

---

[٣٢] أبوالأعلى المودودي، نظرية الإسلام السياسية ـ القاهرة (١٩٧٧) ص٢٩-٣٠.

[٣٣] إسحق موسى الحسيني، المرجع السابق ص١١٤.

[٣٤] أنور السادات، أسرار الثورة المصرية ـ ص٦٦.

واضح فستكون وسيلته هي العمل الخارق للعادة غير المستند إلى فهم الواقع، وتتعلق الأبصار بالفكرة القديمة فكرة المهدوية والإمام الذي سيملأ الأرض عدلاً ونوراً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، ويفصل الأمل في التحرر عن الواقع.. وتكون غاية الإنسان هنا لا أن يشارك في صنع مستقبله ولكن أن يكل إلى غيره زعيماً أو إماماً رسم المستقبل وصنعه، ولهذا يبايعه على السمع والطاعة ويدرب نفسه على الانصياع لأوامره ونواهيه، ويجد تحقيق ذاته في هذا الانصياع»[٣٥].

وتأتي هذه الهيمنة على الفرد من خلال تداخل الجماعة وعقيدتها في شؤون الفرد ودخائل حياته وتسللها إلى كل وقائعها فهي تضع مئات من الأوامر والنواهي تحكم حركته وتصرفاته في حياته اليومية. فهي تنصحه بالتزام طريقة معينة في التحدث والضحك وهي تلزمه بتعليمات معينة متعلقة بصحته (المكيفات. التدخين. النظافة. الرياضة. الطعام) وبتعليمات متعلقة بثقافته (ماذا يقرأ ومتى وكيف؟). وتعليمات متعلقة بتعامله مع الناس (الحياء ـ التأثر ـ الشجاعة ـ الصدق ـ الوفاء... الخ) وتعليمات متعلقة بتعاملاته المالية، وتعليمات حول علاقته بربه وأخرى حول علاقته بالدعوة وثالثة تحدد له واجبات ما قبل النوم ورابعة تحدد له واجبات لحظات الاستيقاظ.

...وهكذا تحيط الجماعة بالفرد وتقيم من تعليماتها سياجاً يحصره تماماً في إطارها وتهيمن على كل نثريات حياته وبالتدريج يشعر هو وكأنه يستمد وجوده المادي من الجماعة.. ومن إمامها.

وهي تحتم على العضو «أن يتخلى عن صلته بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة الدعوة»[٣٦].

ويتم هذا كله في مناخ يسوده عبق سلفي وتهويمات غيبية تحيط بالإمام والجماعة ومنشآتها وأفرادها.. ويروي حسن البنا كيف أن أحد الشيوخ قد

---

[٣٥] طارق البشري، المرجع السابق، ص٦٩.

[٣٦] أنور الجندي، الإخوان المسلمون في ميزان الحق، ص٤٢.

نصحه بأن يعمق عبق السلفية في جماعته قائلاً «يا أخي سم، فأقول وما أسمّي يا سيد محمد؟ فيقول: سم إخوانك وأصحابك ومنشآتك قل لهذا أنك تشبه أبا بكر، ولهذا أنك تشبه عمر فإن هذا يبعث فيهم الحمية.. وسم منشآتك معهد حراء للبنين، مدرسة أمهات المؤمنين للبنات، نادي الخندق»[٣٧]. وأتقن الشيخ البنا فن إطلاق التسميات بصورة بعثت الفخر في نفوس رجاله الذين أسماهم «رهبان الليل وفرسان النهار».

وفوق هذا كله كان الرجل خطيباً قادراً على أن يدير رؤوس أتباعه بحلو كلامه وبساطته وعمقه. وأن يحيط نفسه وكلماته برحيق إسلامي يؤثر في نفوس هؤلاء الأتباع.

وكان «حديث الثلاثاء» وسيلة للهيمنة المباشرة على قلوب أتباعه..

ومنذ عام ١٩٣٩ بدأ حسن البنا يعقد مساء كل ثلاثاء لقاءات مع أعضاء الجماعة في المركز العام[٣٨]. ليحدثهم عن أمور الدعوة.. وتاريخ الإسلام، وليحدثهم عن المشكلات الاقتصادية والاجتماعية من وجهة نظر إسلامية[٣٩]. وكان قادراً دوماً على أن يخلق رباطاً روحياً بينه وبين مستمعيه[٤٠]. وبحديث الثلاثاء الذي واظب حسن البنا عليه.. أصبح البنا بشخصه أقوى أداة تثقيف وإعلام في الجماعة[٤١].

وقد ظل يوم الثلاثاء ذا تأثير خاص في نفوس أعضاء الجماعة جميعاً.. يوم يحتشدون بالآلاف في فناء المركز العام ثم يطلع عليهم الإمام «في جلبابه الأبيض، وعباءته البيضاء وعمامته الجليلة بينما تنطلق الحناجر بالهتاف.. الله أكبر ولله الحمد»[٤٢].

---

(٣٧) مذكرات الدعوة والداعية، ص٩٨.

(٣٨) عبد الباسط البنا تاج الإسلام وملحمة الإمام، القاهرة (١٩٥٢) ص٢

(٣٩) عبد الخبير الخولي قائد الدعوة الإسلامية، حسن البنا (١٩٥٢) ص٢١.

(٤٠) محمد لبيب البوهي، الإيمان والرجل ـ القاهرة (١٩٥٠) ص٥٩.

(41) **Mitchell - Ibid.P.189.**

(٤٢) الهلال، أبريل ١٩٧٧ـ رأى كاتب أمريكي.. المرجع السابق .

وفي خطبه كان البنا يقدم ردوداً سهلة وبسيطة في ظاهرها، ولكنها تستهدف الإمعان في تعميق المناخ السلفي، بل ويصل الأمر إلى تشبيهه نفسه في بعض الأحيان بالرسول.. وقد سأله واحد من الحاضرين يوماً ـ وربما في محاولة لإحراجه ـ من أين ينفق؟ ـ وكان قد ترك وظيفته الحكومية ـ فقال في هدوء «كان محمد يأكل من مال خديجة، وأنا آكل من مال «أخو خديجة» يقصد صهره»[٤٣].

وبالنسبة للبنا كانت الخطابة سلاحاً هاماً.. بل لعلها كانت أحد الشروط التي حددها كضرورة يتعين توافرها في أي كادر من كوادر الجماعة، بل لقد كان يشرف بنفسه على تعليم هؤلاء الكوادر فنون الخطابة الإسلامية. وفي عام ١٩٣٨ أشرف البنا بنفسه على أول «مدرسة للكادر» نظمتها الجماعة لتلقين الكوادر «الدعوة والإرشاد»[٤٤].

..ولنواصل فحصنا لملف الشيخ بحثاً عن مختلف جوانب شخصيته.. فالذين تابعوا الحياة السياسية للشيخ يرون كيف استخدم المناورة أسلوباً لتعامله السياسي.. وكيف أنه فهم الحياة السياسية على أنها مناورات ودسائس، يتعين على كل من يخوضها أن يتقنها وأن يمارس هذه الأساليب بل وأن يتفوق على غيره في هذا الصدد.

وربما قادة ذلك إلى بعض «اللامبدئية» يلاحظها كل من تابع خطوات تحالفاته السياسية وتقلبها دون مبرر مقبول إلا المصلحة الذاتية.

و«اللامبدئية» مغرية تستدرج السياسي.. إلى الأسهل والأقرب لكنها تقوده في النهاية إلى موقع الخطر.. وهي مغرية بمعنى أنها عندما يتلمسها الإنسان تحتويه وتقوده في كل تصرفات حياته ابتداء من العلاقة مع السلطة والرؤساء إلى أبسط نثريات الحياة.

يحكي صالح عشماوي، وهو واحد من المقربين من المرشد، أنه هاجم ذات مرة إحدى الهيئات الرسمية فطلبت إليه الحكومة أن يعدل عن هجوه

---

(٤٣) المرجع السابق.

(44) Mitchell - Ibid.P.190.

أو تقدمه إلى المحاكمة فرفض العدول، ولكن الشيخ البنا نصحه قائلاً «أكتب يا صالح ما يطلب منك». ويمضي صالح قائلاً «لقد عرفت عن الإمام قوله: أوصي الذين يتعرضون للعمل العام ويرون أنفسهم عرضة للاحتكاك بالحكومات ألا يحرصوا على الكتابة فذلك أروح لأنفسهم وللناس، وأبعد عن فساد التعليل وسوء التأويل»[٤٥]. أنه «الغموض» كمدرسة وخطة في العمل السياسي سوف نرى آثارها في صفحات قادمة. كذلك قولته لصالح عشماوي هذه «أكتب يا صالح ما يطلب منك» تقودنا إلى أحد مفاتيح شخصية الشيخ.. وتذكرنا أنه هو نفسه قد كتب ذات يوم ما طلب منه.. كتب يدين رجاله وهم رهن القيد ويصفهم بأنهم «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين» مؤملاً بموقف «لا مبدئي» أن ينقذ بعضا من بقايا الجماعة في محنة ١٩٤٨.. لكن الواقع أثبت أن خصومه كانوا أكثر منه ذكاء إذ أيقنوا أن خطوة واحدة إلى الخلف من القائد سوف تدمر الجيش كله وتدفع السجناء إلى الانهيار.. والاعتراف. وقد كان.

.. ومرة أخرى نعود إلى ملف الشيخ.

كانت الجماعة في أيامها الأولى بالإسماعيلية تحاول أن تجمع تبرعات لبناء أول مقر لها.. وجاءت أولى التبرعات من شركة قناة السويس خمسمائة جنيه (وتلك علامة استفهام نسجلها ونمضي) ويفزع بعض المخلصين من أتباعه ويتساءلون حول جواز قبول تبرع من شركة استعمارية كشركة قناة السويس وحول جواز بناء مقر للجماعة ومسجد بهذا المال، ويجد الشيخ المخرج السهل «هذا مالنا لا مال الخواجات، والقناة قناتنا والبحر بحرنا، والأرض أرضنا وهؤلاء غاصبون في غفلة من الزمن»[٤٦].

وكان البنا يستخدم في بعض الأحيان وسائل في الإقناع تكشف عن نفس النهج.. أغضبه الموقف السلبي لشيوخ الأزهر من جماعته ودعوته. فوجه

---

[٤٥] الدعوة، ٢٢- ٤- ١٩٥٢.

[٤٦] مذكرات الدعوة والداعية، ص٩٦.

حديثة إليهم قائلاً «إن لم تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذي تأكلونه فإنه إذا ضاع الإسلام في هذه الأمة ضاع الأزهر وضاع العلماء فلا تجدون ما تأكلون ولا ما تنفقون فدافعوا عن كيانكم إن لم تدفعوا عن كيان الإسلام».. ونتأمل هذه الكلمات ولا نملك إلا الدهشة.

والشيخ يتخذ من التعليم الحديث موقفاً شديد «السلفية»، بل هو يرتد بموقفه هذا إلى مواقف تناساها حتى السلفيون أنفسهم. وفي خطابه الأول في مسجد الإخوان بالإسماعيلية حرص على الدعوة لإقامة دور للتعليم الديني مهاجماً مدارس التعليم الحديث واصفاً إياها بالمدارس المبتدعة التي يخرج منها الأبناء «وقد تسممت عقولهم بالإفكار الخبيثة الفرنجية وحشيت أدمغتهم بالآراء الإلحادية وشبوا على التقليد والإباحية»[٤٧].

* * *

ويتحول الإعجاب بالمرشد إلى مبالغات يتوقف عندها الباحث لا ليتساءل عن مدى صحتها، وإنما عن هذا الحماس في المبالغة في الحديث عن الشيخ.. فكاتب أمريكي ـ مثلاً ـ يقول لقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس، وعجب لها كل من رآها واتصل بها.. كان فيه من الساسة دعاؤهم، ومن القادة قوتهم ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماسهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم، ثم هو فوق كل هذا «يعرف لغات الأزهريين والجامعيين والمهندسين والصوفية وأهل السنة، ويعرف لهجات الأقاليم في الدلتا وفي الصحراء وفي مصر الوسطى والعليا وتقاليدها. بل إنه يعرف لهجات الجزارين والفتوات وأهالي بعض أحياء القاهرة. وكان في حديثه إليهم يروى لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم، بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعي الطريق والقتلة وقد ألقى إليهم مرة حديثاً (!)»[٤٨].

---

[٤٧] المرجع السابق، ص ١٣٨.

[٤٨] الهلال ـ مايو ١٩٧٧. مقال: حسن البنا في راى كاتب امريكي.

وإذا كان البنا قد أخذ من الأزهريين لغتهم وحججهم ومن الصوفيين إيمانهم فإنه لم يقبل منهم ولا من غيرهم مشاركة له ولجماعته في كونها «جماعة المسلمين» أي صاحبة الحق في تمثيل مصالح مجموع المسلمين.. فالأزهريون قادتهم وجمهورهم في نظر الشيخ «دينيون رسميون» وكانت لهجته تجاه رجال الأزهر لهجة عدائية دومًا.. وهو يُحمّل علماء الأزهر، بسلبيتهم وعزوفهم عن خدمة الإسلام خدمة حقيقية، جزءاً من مسؤولية «تدهور أحوال الأمة الإسلامية»[٤٩]. ولكن الشيخ كان حريصاً على ألا يخوض معركة سافرة وصريحة ضد رجال الأزهر وعلمائه وإن أتى بعض أتباعه ليفجر هذا الصراع عنيفاً معلنا أن في مصر مجموعتين إسلاميتين: المجموعة الرسمية والمكونة من رجال الأزهر ومجموعة «الجمعيات الإسلامية» وهما لا تلتقيان[٥٠] ويقول محمد الغزالي، وهو أحد قادة الإخوان، «لقد نام علماء الأزهر وتبعهم المجتمع الإسلامي»[٥١].

بل إن الشيخ الغزالي يغالي في هجومه على علماء الأزهر قائلاً «أن إسلام الأزهر هو الإسلام الذي يدعمه الاستعماريون»[٥٢].

وإذا كان الشيخ البنا يرى أن فشل الأزهر في رسالته يرجع إلى أنه يهتم بتخريج علماء حفظوا مواد العقيدة عن ظهر قلب ولم يستوعبوها روحيا[٥٣] فإن محمد الغزالي قد تطرف إلى درجة القول بأنه «يعرف رجالاً من شيوخ الأزهر يعيشون كما تعيش ديدان البلهارسيا والانكلستوما من دماء الفلاحين والبؤساء»[٥٤]

---

(٤٩) مجلة الشباب، ١٤-١١-١٩٤٧، ص٣.وراجع أيضا أحمد أنس الحجاجي، رسالة من المريخ، ص٥٦.

(٥٠) محمد الغزالي، الإسلام المفترى علية بين الشيوعيين والرأسماليين (الطبعة الثالثة ١٩٥٣) ص٢٦.

(٥١) محمد الغزالي، في موكب الدعوة - (١٩٥٠) - ص١٢.

(٥٢) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي - القاهرة (١٩٥٠) - ص١٢.

(٥٣) عبد المجيد الباجوري، حسن البنا.القاهرة - (١٩٥٢) - ص ١٢. وراجع أيضاً: عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه (١٩٥٢) ص٢٢.

(٥٤) محمد الغزالي، الإسلام المفترى علية بين الشيوعيين والرأسماليين - المرجع السابق ص٢٧ .

أما «الصوفيون» فقد لاينهم الشيخ البنا.. فهو منهم أولاً وأخيراً كذلك عدد كبير من مريديه.. وإن كان قد حذر منهم تحذيرات خفية.. وأتى الشيخ الغزالي ليكمل كعادته حلقة الهجوم.. فالصوفية في نظره أو في نظر جماعة الإخوان المسلمين «من بقايا عصور الإقطاع تُستخدم لتخدير الجماهير»[٥٥].

وكأن الشيخ لم يكفه كل ما حازه من نفوذ وهيمنة على نفوس أتباعه، فلجأ بالإضافة إلى كل ما سبق إلى نسج هالات من الغموض والقداسة والخوارق حول نفسه.. ولم يكن المرشد بالرجل الذي يقول ذلك بطريقة فجة قد تأتي بعكس النتائج المرجوة بل يقول هذه المسائل عرضا.. ودون تكلف، ولهذا كانت تأتي فعلها في نفوس الأتباع وتخلق حوله هالات من التقديس..

فكل الأمور مهما تعقدت تحل في سهولة ويسر، وحلول المشكلات تأتني عفو الخاطر بإلهام سماوي.. حتى اسم الجماعة يأتيه بنوع من الإلهام.. وكثيراً ما يستطيع رؤية المستقبل.. «رأى في نومه وهو طالب أنه يراجع صفحات سئل فيها فعلاً في امتحان الغد» بل أنه يحكي عن نفسه قصصاً تفوق الخيال.. حول تلك العناية غير المرئية التي أحاطت به دوماً تنجيه وتنقذه وترعاه، «وقع ببيت عليه وعلى أخيه فلم ينجهما منه، إلا استناد السقف على حاجز السلم، وأنه وقع من ارتفاع ثمانية أمتار فأنجاه ملطم المونة، وأنه امتد حريق إلى ثيابه وهو صغير فأغاثه رجال المطافئ، وإن جمحت به فرس تحت حاجز كاد أن يطيح برأسه فألهمه الله فاستلقى على ظهره حتى اجتاز الحاجز»[٥٦].

وإذا لم يكن من حق الباحث أن يتساءل عن مدى صحة كل هذه الروايات والمعجزات، فإن من حقه أن يتساءل بأي هدف حرص الشيخ البنا أن يروى كل هذه القصص لأتباعه..؟ وهذا سؤال هام لأنه يحدد نوعية

---

[٥٥] المرجع السابق ص٤٧.

[٥٦] الإخوان المسلمون ـ العدد الممتاز الصادر في عام ١٩٤٨ بمناسبة مرور عشرون عاماً على تأسيس الجماعة.

العلاقة التي أراد الشيخ أن يقيمها بينه وبين أتباعه. فأي شيء كان الشيخ يريد من رواياته هذه إن لم يكن تعمده إضفاء هالات من التقديس حول نفسه.

أليس هو الرجل «الذي كان يحقق سيرة رسول الله في نفسه» كما قال عنه أخوه عبد الرحمن[٥٧]، ولم يكن الشيخ حسن وأخوه عبد الرحمن وحدهما في هذه المحاولة فأبوه أيضاً يروى قصصاً خيالية عن كرامات ابنه، الذي كان رضيعاً في الشهر السادس من عمره يستغرق في النوم مع والدته وتجثم بجواره أفعى ممدودة الرأس إلى رأسه «وينجيك الله يا ولدي من شرها لإرادة سابقة في علمه وأمر هو فيك بالغه»[٥٨].

وليس بإمكان أي باحث أن يتصور أن كل ذلك كان محض مصادفة.

وقبل أن ننتهي من فحص ملف الرجل.. نعتقد أن من حقه علينا أن نؤكد أنه كان يعرف من البداية أنه يسير هو وأتباعه فوق الشوك، وأن الذين لاينهم ولاينوه سوف يصطفون جميعاً ضده وضد دعوته. ولعل وعيه بهذه الحقيقة يحسب له، ولعله يفسر لنا أيضاً بعض أسباب إصراره على الغموض.. والخفاء السري والسلاح.. وإحكام قبضته على الجماعة.

يقول حسن البنا في حديث له إلى أتباعه «سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين من العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوي الجاه والسلطان، وستقف في وجوهكم كل الحكومات على السواء، وستدخلون بذلك ولاشك في دور التجربة والامتحان، فتسجنون، وتعتقلون، وتنقلون، وتشردون، وتصادر مصالحكم وتفتش بيوتكم»[٥٩].

.. وقد كان

* * *

---

(٥٧) فتحي العسال، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٥٨) المرجع السابق، ص١٢٧.

(٥٩) حسن البنا. بين الأمس واليوم.

وحتى بعد اغتياله يظل طيفه محلقا فوق الجماعة وفوق أصدقائها وخصومها معاً، ويظل الموقف منه معيار الموقف من الحركة كلها.

فعندما قامت ثورة يوليو وخلال شهر العسل الطويل نسبياً بينها وبين الإخوان المسلمين كان الموقف من حسن البنا هو الدلالة والمؤشر.

ففي الأيام الأولى للثورة زار اللواء محمد نجيب قبر الإمام الشهيد ووقف أمامه باكياً.

كذلك فقد قررت الثورة فتح ملف قضية اغتيال البنا.. وفي المحكمة وقف البكباشي محمد التابعي نائب الأحكام ليمجد الإمام الشهيد ويطالب برأس قاتليه: «إن للمغفور له الشيخ حسن البنا دعوة استشهد في سبيلها، تقوم على الإصلاح وترمي إلى التخلص من الاستعمار باعتباره رأس الفساد ومصدره»[٦٠].. لكن زمنا قليلاً يمضي ثم تشهد نفس القاعة محاكمة الإخوان المسلمين وهجمات المدعى العام ضد الدعوة وضد مؤسسها.

وعندما يبدأ «شهر العسل» في الانتهاء يحاول جمال عبد الناصر أن يستخدم «الشيخ» ضد «الجماعة». ووسط حملات إعلامية عنيفة ضد «الهضيبي» المرشد الجديد وضد الجماعة ككل يتوجه جمال عبد الناصر في صحبة عدد من أعضاء مجلس الثورة وعدد من الإخوان المسلمين الموالين له لزيارة قبر «الأمام الشهيد» مترحماً ومشيداً بالرجل وبأعماله..[٦١]

وتبقى شخصية الإمام الشهيد، برغم كل استفاضة في البحث، محلاً لتساؤلات تبحث عن إجابات.

---

[٦٠] محاكمات الثورة ـ الكتاب الأول ـ محاكمة إبراهيم عبد الهادي، ص١٧٩.

[٦١] الجمهورية، ١٣-٢-١٩٥٤.

.. وكانت الظروف ناضجة تماماً كي تنهض هذه المجموعة الصغيرة، وتنطلق، وتصبح كما أسميت بحق كبرى الحركات الإسلامية في العصر الحديث.

كانت مصر تتململ، وترفض قبضة الحكم الأوتوقراطي، وحكومات عميلة تماماً تزبح بقوة السراي والاحتلال حقوق حزب الأغلبية وتهدد الدستور الوليد، وحتى حزب الأغلبية هذا يخضع هو أيضاً لأسلوب التهادن والتردد، والأزمة الاقتصادية تستحكم، والقضية الوطنية بغير حل.. والناس جميعاً يستشعرون الرفض والحيرة معاً.. «وكان تكالب السياسيين المحترفين على الحكم بأي ثمن وما أتبعه من كراهية الكثيرين للنموذج الدستوري القائم فرصة أمام الإخوان المسلمين لكي يجذبوا إلى صفوفهم مئات الآلاف من الأتباع»[١].

ومن هذا الإحساس العارم بالرفض وعدم الرضاء بما هو قائم نجحت دعوة الإخوان المسلمين[٢].

وكانت المعركة بين السراي والحكومة حول الأزهر تحتدم «ولفترة قصيرة (١٩٢٩-١٩٣٠) تنتزع الوزارة من السراي منصب شيخ الأزهر»[٣]. ثم يعود القصر فينتزع الهيمنة على الأزهر.. ويتداخل الاحتلال أيضاً وهكذا يبدو رجال الدين التقليديون في مظهر العاجز.. الأمر الذي يحث المسلم المتحمس على البحث عن جديد.

---

(1) Vatikotis - The Modren Historn History of Egypt - op .cit .P.323.

(2) Khadduri - op.cit .P.73.

(3) Grunedaum - op .cit .P .186.

«والحقيقة أن المجتمع الحديث والدولة الحديثة قد وضعت المسلم المتدين وسط متناقضات عديدة»[٤] هكذا يقول أحد الباحثين ويستخلص من ذلك أحد أسباب نجاح دعوة الإخوان وانتشارها.

«وربما كانت جماعة الأخوان المسلمين أولى الهيئات المنظمة التي قدمت تصوراً يستهدف تغيير النظام السياسي التقليدي في مصر تغييراً شاملاً»[٥]. هكذا أكد باحث آخر.. واستخلص أيضاً أحد أسباب انتشارها.

لكن الإخوان المسلمين لم يحاولوا مجرد تعديل أو إصلاح النظام «بل قدموا أنفسهم كبديل قادر على أن يلعب دور ما يمكن أن يسمى بالسياسيين العلمانيين، ومن ثم كبديل لكل النموذج «المستورد» من أوربا لتنظيم المجتمع والحكومة، ورفضوا بشكل قاطع كل منجزاته ومؤسساته»[٦]، ولعل ذلك قد خلق الكثير من الصعوبات أمامهم.

.. وبعد هذه الأسطر التي عكست آراء عدد من الباحثين في وضعية جماعة الأخوان المسلمين نعود إلى المجموعة الصغيرة من الرجال التي التفت حول الشيخ البنا في الإسماعيلية.. ونحاول أن نسير معها خطوة خطوة.

كانت البداية كما قلنا في شهر ذي العقدة من عام ١٣٤٧ هـ (مارس ١٩٢٨)[٧] واتخذت الجماعة مقراً لها في أحد المنازل القديمة بالإسماعيلية.

---

[4] Ibid.P.247.

[5] Wheellock, Keith - Nassesr New Egypt .London (1960) - P.3.

[6] Vatikotis- op.cit .P.323.

[٧] هكذا أورد الشيخ، حسن البنا التاريخين معا، لكن أحد الباحثين في تاريخ الجماعة وهو روزنتال في مقاله «الإخوان المسلمون في مصر» المنشورة في مجلة «عالم الإسلام» عدد أكتوبر ١٩٤٧» اكتشف عند مقارنة التقويمين الهجري والميلادي أن ذي العقدة ١٩٤٧ هـ يوافق شهري أبريل - مايو ١٩٢٩. ونلاحظ أيضا أن الجماعة قد احتفلت بعيد تأسيسها العاشر في يناير ١٩٣٩ مما يرجع أن تاريخ التأسيس هو عام ١٩٢٩ فعلا. لكن الجماعة عادت فاحتفلت بالذكرى العشرين لتأسيسها في سبتمبر ١٩٤٨ الأمر الذي عاد بنا إلى ترجيح عام ١٩٢٨ خاصة وأنه هو التاريخ المذكور في المادة الأولى من النظام الأساسي للهيئة العامة للإخوان المسلمين، ص ٥.

وعندما قرروا بناء مقر جديد فتحوا باب التبرعات، ويمكن القول أن أهم تبرع حصلوا عليه كان من شركة قناة السويس التي تبرعت لهم بخمسمائة جنيه(!).

كذلك اقترضت الجماعة عدة مبالغ من عدد من التجار واستطاعت بذلك أن تبني مسجداً يضم مقر الجماعة ثم ألحقت به فيما بعد مدرسة للبنين ومدرسة للبنات ونادٍ[٨]. وأصبح هذا هو النمط الأساسي لمقار الجماعة.. مسجد ومقر مدرسة وناد، وربما مشروع اقتصادي لخدمة البيئة.

ويحتاج الأمر إلى أربع سنوات من العمل الدؤوب والجولات التي لا تنقطع في المدن والقرى القريبة من الإسماعيلية حتى تنهض عدة شعب للجماعة على امتداد الجانب الشرقي للدلتا (بور سعيد ـ السويس ـ أبو صوير) وعلى امتداد الجانب الغربي حتى شبراخيت.. وكانت هناك صلات محدودة بالقاهرة[٩].

لكن هذا النشاط لم يمر بعيداً عن أعين البوليس ولا المتشككين في هذا النشاط. وانهالت التقارير تكيل التهم للشيخ فهو تارة عميل شيوعي، وتارة وفدي مناوئ لحكومة صدقي، وتارة ثالثة جمهوري معاد للملك فؤاد، وتارة رابعة موظف انتهك تعليمات الحكومة.. وتلفت هذه الشكاوى نظر الدكتاتور إسماعيل صدقي الذي يصدر أمره لوزارة المعارف بالتحقيق مع الشيخ. ويثبت التحقيق براءته. لكن الشيء الأكثر أهمية من البراءة كان اهتمام إسماعيل صدقي بالجماعة وتفكيره في إقامة علاقات معها.. ضد خصومه[١٠].

ويتوقف بعض الباحثين عند عام ١٩٣٠ ودكتاتورية صدقي كعلامة طريق في تاريخ الجماعة. فمن ناحية كان إجهاض التجربة الدستورية على

---

[٨] مذكرات الدعوة والداعية، ص٩٦ - ١١٠.

[٩] المرجع السابق، ص ٨٤ - ١٠٨.

[10] Mitchell - op .cit.p.9.

يد صدقي «كفيلاً بنشوء النزعات السياسية المتطرفة التي ترفض النموذج السياسي القائم ككل»[11]، ومن جهة ثانية كانت فكرة الداهية صدقي في تشجيع الجماعة وحثها للتعاون معه ومع السراي في مواجهة الوفد.

والحقيقة أن الشيخ البنا لم يخفف هذه العلاقة الخاصة التي نشأت بينه وبين إسماعيل صدقي وإن كان أكد أنه تلقى من صدقي عرضاً بمساعدة مالية مغرية مقابل إعلان الإخوان المسلمين تأييدهم لصدقي ومناهضتهم لحزب الوفد، وأنه قد رفض هذا العرض الذي قدم له من خلال شقيقه عبد الرحمن[12].

والشيء الهام هنا في نظر الباحث أن الداهية صدقي قد التقط الخيط، وسواء نحج في إقامة علاقة خاصة مع الإخوان أم لم ينجح، فإن نجاحه الحقيقي كان يكمن في مجرد الفكرة التي أصبحت محل اهتمام وتنفيذ لاحق من قبل أجهزة السلطة المختلفة.

وبعد إجازة العام الدراسي ١٩٣٢ انتقل حسن البنا إلى القاهرة بناء على طلبه.. ليجد أن له مجموعة من الأعضاء تحاول هي الأخرى أن تنشط وليجد أن عبد الرحمن شقيقه الأصغر يرأس جماعة صغيرة اسمها «جماعة الثقافة الإسلامية»، وتندمج المجموعتان معاً لتؤسسا أول شعبة للإخوان المسلمين بالقاهرة.

وهكذا تدب حياة جديدة في صفوف الجماعة بتواجدها في قلب الحركة الإسلامية والسياسية في العاصمة.

وأصبح أغلب مؤسسي هذه الشعبة قادة لجماعة الإخوان المسلمين التي انطلقت لتوسع من نشاطها[13].

---

(11) Vatikiotis - op.cit.p.262.

(12) مذكرات الدعوة والداعية، ص١٠٩.

(13) المرجع السابق،ص١٠٨.

وإذا كان للأزمة الصغيرة التي حدثت في شعبة الإسماعيلية والتي أشرنا إليها سابقاً من أثر فلأنها قد لقنت الشيخ درساً في أن يتخير معاونيه في قيادة الجماعة من أقرب الناس إليه، وأيضاً في أن تظل مسائل عدة المالية ومواردها والعلاقات السياسية الهامة حكراً في يديه وحده.

وأعلنت شعبة الإسماعيلية ـ بعد أن تخلصت من المنشقين ـ انتقال المركز العام للجماعة إلى القاهرة حيث يوجد الإمام.. ويشهد المقر المتواضع بالقاهرة نشاطاً جماً كان محوره وعموده الفقري الشيخ البنا. كان يومه ويوم الجماعة يسير كالتالي: في الصباح الباكر يتوجه الشيخ إلى المركز العام، ثم يتوجه إلى المدرسة ليمارس نشاطه الوظيفي ثم يعود من المدرسة إلى المركز العام.. ثم يرتاح في منزله قليلاً ليعود مرة أخرى إلى المركز.. وطوال هذا الوقت كان الشيخ يوجه أعمال الجماعة التنظيمية والإدارية والثقافية، ويلقي المحاضرات، ويتحدث إلى الزوار الكثيرين الذين كانوا يأتون إلى المقر بدافع الرغبة في المعرفة أو حتى بدافع الفضول. وقد خصص الشيخ الفترة بين صلاة المغرب وصلاة العشاء لإلقاء محاضرات في تفسير القرآن، وكان معظم مستمعيه من سكان الحي من الحرفيين والتجار الصغار وبسطاء القوم الذين يصفهم أحد قادة الإخوان بأنهم كانوا قوماً «بلا تعليم وبلا رغبة في التعلم»(١٤) لكن هؤلاء القوم سرعان ما استجابوا لدعوة الشيخ وتكون منهم الوعاء الأساسي لعضوية الإخوان المسلمين.

فقد جذبت الجماعة أول ما جذبت «سكان المناطق الفقيرة الذين كانوا يعانون من الوحدة والغربة في مدينة القاهرة، والمهاجرون الوافدون إلى العاصمة الذين وجدوا الراحة النفسية في اجتماعاتها، وفي تأدية الصلوات الجامعة. وقد قامت فروع الجماعة بالنسبة لهؤلاء مقام التجمعات الصوفية وطوائف العمال القديمة»(١٥).

---

(١٤) لبيب البوهي، الإيمان والرجل ـ ص ١٠.

(15) N .Safran, Egypt in Search of Political community - (1961) P.202.

ويمكن القول بأن القاعدة الأساسية للجماعة كانت في هذه المرحلة مكونة أساساً «من أصحاب الحرف الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى الدنيا ومن صغار التجار»[١٦].

وبعد عام واحد من انتقال المركز العام إلى القاهرة كان للجماعة خمسون شعبة في مختلف أرجاء مصر[١٧].

لكن الباحثين في تاريخ الجماعة يلاحظون أن هذا الاتساع قد صاحبه تغيير في التركيب الاجتماعي (الطبقي) لعضوية الجماعة، فمع التطورات السياسية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع المصري في الثلاثينيات، ومع اتسام تصرفات قيادة حزب الوفد بالتهادن - إلى حد ما - فيما يتعلق بالقضية الوطنية[١٨]. اندفعت قوى كانت في الأساس من جماهير الوفد إلى صفوف الجماعات المتطرفة مثل الإخوان المسلمين ومصر الفتاة.. ويصف أحد الباحثين جمهور الحاضرين في حديث الثلاثاء فيشير إلى وجود القوى التي أشرنا إليها فيما سبق والتي يميز أصحابها بأنهم يرتدون «الجلاليب» لكنه يؤكد «أن الغالبية الساحقة من الحاضرين كانت من الطلاب والموظفين والمدرسين والمهنيين»[١٩].

وهكذا تغير الزي السائد من «الجلابية» إلى «البدلة»، وكان ذلك إيذانا بتطور جديد في علاقات الجماعة وأساليب عملها.

ورويداً تستقر الجماعة، وتنتقل بمقرها وجمهورها من أزقة القاهرة الضيقة إلى مناخ أرحب وجمهور أوسع، ويمتلئ المركز العام بالموظفين

---

[١٦] ليوناردو بايندر، الثورة العقائدية في الشرق الأوسط - تعريب خيري حماد، دارالقلم بالقاهرة (١٩٦٦). ص ٧٨.

[١٧] د.إسحق موسى الحسيني. المرجع السابق ص ٢١.

[١٨] لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع: د. رفعت السعيد، مصطفى النحاس - دار القضايا - بيروت (١٩٧٦).

[19] **Peters Donald, The Moslem Brotherhood: Terrorists or Zealots - Reporter, VIII (17 Mar .1953) P.8.**

المتفرغين بعد الظهر وذوي المرتبات المدفوعة.. بما يوحي باتساع نشاط الجماعة وزيادة عضويتها.

وبدأت القاهرة ومدن القطر المختلفة تشهد رجالاً يرتدون زياً جديداً عبارة عن «شال» يضعونه فوق الكتفين وعليه شارة الجماعة، وفي البداية كان لون الشارة أخضر ثم ما لبث أن أصبح أبيض. وكثيراً ما كان «الدعاة» من أعضاء الإخوان المسلمين يزودون هذا الشال بجيب كبير يتدلى على الصدر يوضع فيه مصحف ظاهر[٢٠].

وإذا كان هذا الزي - بما يتكلفه من مال ومن مظهر وقور - قد اقتصر على الميسورين من أعضاء الجماعة فإن تعليمات الجماعة لأعضائها كانت تحتم في مطلع الثلاثينيات أن يضع العضو في خنصر اليد اليمنى خاتماً من الفضة ذي عشرة أضلاع ترمز إلى الآية الكريمة «قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً» وبه سيفان متقاطعان ومصحف[٢١].

ويشير بعض الباحثين إلى أن هذا الزي الإخواني كان أول استخدام مصري لفكرة الزي الحزبي الموحد التي سرعان ما انتشرت في مصر في منتصف الثلاثينيات في صورة القمصان الملونة والتي كانت امتداداً أو تقليداً لزي التنظيمات الفاشية والنازية التي اجتاحت أوربا في ذلك الحين.

وعلى أية حال فإن اتساع عضوية الجماعة قد جعل من المستحيل إلزام الجميع بزي أو شارات معينة.. وهكذا نسيت هذه العادة.

ومع استقرار الجماعة تعقد مؤتمرها الأول في مايو ١٩٣٣، وقد تركزت أعمال المؤتمر في بحث النشاط الذي تمارسه البعثات التبشيرية المسيحية وكيفية مواجهتها. وقرر المؤتمر توجيه رسالة إلى الملك فؤاد يطالب فيها بضرورة إخضاع نشاط هذه البعثات الأجنبية لرقابة حكومية فعالة[٢٢].

---

(٢٠) عبد الباسط البنا، المرجع السابق.

(٢١) مذكرات الدعوة والداعية. ص ٢١٧.

(٢٢) عبد الباسط البنا، المرجع السابق. ص٢٦.

وفي نفس العام يعقد الإخوان المسلمون المؤتمر الثاني لجماعتهم والذي خصص لدراسة مسائل التثقيف والدعوة، وقرر المؤتمر تأسيس شركة صغيرة لإنشاء مطبعة خاصة بالإخوان المسلمين[٢٣]. وكالعادة كان البنا هو صاحب الفكرة وهو المحرك والمنظم في تنفيذها.. وبجهد مكثف منه أثمرت نتائج المؤتمر الثاني مجلة أسبوعية هي «الإخوان المسلمون» لكنها لم تستمر طويلاً.. ثم صدرت «النذير» كلسان حال للجماعة.. ولكنها ما لبثت أن انشقت عن الجماعة. لكن أهم ما أسفر عنه هذا التوجه نحو الدعوة والإعلام هو سلسلة الرسائل التي كتبها حسن البنا شارحاً فيها أهداف الجماعة وأساليبها ورؤيتها للمجتمع المصري ولمشاكله وللدعوة الإسلامية وطرق تعزيزها. وقد كانت هذه «الرسائل» وظلت لأمد طويل ــ وربما حتى الآن ـ الأساس النظري والفكري لجماعة الأخوان المسلمين.

وهكذا قفز البنا بجماعته القفزة الأولى نحو الصعود.. وهو توسيع نطاق الدعوة والإعلام وتنشيط خطوط الاتصال بين الحركة والجماهير.

وبعد الأعلام يأتي التنظيم، وهكذا كان الشيخ منطقياً في تفكيره.. وهكذا تحددت مهام المؤتمر الثالث الذي عقد في مارس ١٩٣٥ حيث بدأ المرشد يضع قواعد العمل التنظيمي. فبعد توسيع نطاق الدعوة والاتصالات والإعلام لابد من ضوابط للعضوية. ولابد من بناء حزبي محكم وإلا هددت الجماعة بأن تصبح مثل غيرها من الهيئات والأحزاب التي تواجدت في ذلك الحين مجرد لافتة وجماهير ــ قلت أو كثرت ــ تنظيم هلامي غير محدد المعالم.

وصاغ الشيخ شروط العضوية ومراتبها ودور العضو في كل مرتبة، وأهم من هذا أنه وضع النواة الأولى لتنظيم «الجوالة» الذي لعب فيما بعد دوراً حاسماً في تاريخ الجماعة.

ويحدد المرشد كتابة وبشكل واضح وصارم شروط العضوية ومراتبها:

---

[٢٣] مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٤٥.

«على العضو الراغب في الانضمام أن يتحلى بالأخلاق والسمعة الحسنة والسلوك المتين، ويكون لديه الاستعداد للطاعة التامة وتنفيذ ما يلقى عليه من أوامر. وهو في هذه المرحلة يكون أخاً مساعداً إذا أعلن استعداده ووقع استمارة العضوية وتعهد بسداد الاشتراك المالي.. ثم إذا أثبت حسن أدائه للواجبات من حفظ للعقيدة وتعهد بالتزام الطاعات وعكف عن المحرمات وحضر الاجتماعات الأسبوعية يصير أخاً منتسباً ويرتفع بعد ذلك لأن يصبح أخاً عاملاً إذا ما أضاف لسابق الواجبات والصفات قدرة على دراسة عقيدة الإخوان، وتعهد بالورد القرآني، وحضر مجالس القرآن الأسبوعية وكذلك إذا ما اشترك في صندوق الحج ولجنة الزكاة وانضم إلى فرق الرحلات ما دامت سنه تسمح بذلك، وعليه في هذه المرحلة أن يلتزم التحدث بالعربية الفصحى بقدر المستطاع، مع عمله الدائم على تثقيف نفسه في الشؤون الاجتماعية العامة وحفظه للأربعين حديثا نبويا.. أما الدرجة الرابعة وهي أسمى الدرجات فهي درجة الجهاد وهي من حق الأخ العامل والذي يثبت لمكتب الإرشاد بمحافظته ومواظبته على كل الواجبات السابقة ويصبح بذلك داعية مجاهداً. والداعية مرتبة سامية إذ لابد أن يكون مؤمناً بفكرة يدعو إليها بالكتابة والخطابة والحديث العادي.. والعمل الجدي في سيرته الخاصة والعامة بكل ما يستطيع من وسائل الدعاية، كما يتحلى بالبلاغة فيكون محدثاً وقدوة يؤثر في الناس بعمله وشخصه»[٢٤].

وهكذا وضع البنا أسس تنظيم حديدي محكم استطاع أن يخوض به التجربة التي حلم كثيراً بها.

وكانت «الجوالة» هي فكرة البنا في بناء قوة ضاربة وفاعلة للتنظيم، ومن الجوالة جاءت فكرة الكتائب في عام ١٩٣٧ التي اعتبرت تنظيماً للصفوة أو للكادر الأساسي للجماعة.. والتي ربما كانت هي والجوالة البذور الأولية لفكرة الجهاز السري.

---

[٢٤] حسن البنا تذكرة الداعي ـ مقال منشور بمجلة الإخوان الشهرية العدد التاسع ـ بدون تاريخ.

كذلك وافق المؤتمر الثالث على «عقيدة الجماعة» والتي تقول:

١ ـ «أعتقد أن الأمر كله لله، وأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم رسله للناس كافة، وأن الجزاء حق، وأن القرآن كتاب الله، وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة، وأتعهد بأن أرتب على نفسي حزباً من القرآن الكريم، وأن أتمسك بالسنّة المطهرة وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة.

٢ ـ أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام. وأتعهد بأن أكون مستقيماً أؤدي العبادات وأبتعد عن المنكرات: فاضلا أتحلى بالأخلاق الحسنة، وأتخلى عن الأخلاق السيئة، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت، وأوثر المحبة والود على التحاكم والتقاضي، فلا ألجأ إلى القضاء إلا مضطراً، وأعتز بشعائر الإسلام ولغته وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة في طبقات الأمة.

٣ ـ أعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والكسب والتكسب، وان في ماله الذي يكسبه حقاً مفروضاً للسائل والمحروم، وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشي وأقتصد لمستقبلي وأؤدي زكاة مالي وأخصص جزءاً من إيرادي لأعمال البر والخير وأشجع كل مشروع اقتصادي نافع، وأقدم منتجات بلادي وبني ديني ووطني ولا أتعامل بالربا في شأن من شؤوني ولا أتورط في الكماليات فوق طاقتي.

٤ ـ أعتقد أن المسلم مسؤول عن أسرته وأن من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها. وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدي وأن أبث تعاليم الإسلام في أفراد أسرتي. ولا أدخل أبنائي مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التي تناويء تعاليم الإسلام.

٥ ـ أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وأن راية الإسلام يجب أن تسود البشر وأن مهمة كل

مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام. وأتعهد بأن أجاهد في سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت وأضحى في سبيلها بكل ما أملك»[٢٥].

ولقد تعمدت أن أورد النص كاملاً.. ولا يملك الباحث إلا أن يسجل ملاحظة واحدة وهي أن النص أخلاقي صرف ولا بأس من ذلك لكنه لا كلمة واحدة عن الاستعمار ولا عن القضية الوطنية في بلد يهيمن الاحتلال على مقدراته.. ولا كلمة دفاع واحدة عن الفقراء ولا حل واحد لمشكلة من مشكلات مصر أو شعبها وباختصار هو مجرد اقتباسات أخلاقية تصلح أهدافاً لأي مسلم في أي بلد وفي أي زمان.

لكن أخطر ما في الموضوع هو قرار المؤتمر بأنه «على كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة»[٢٦]. ويلاحظ أحد الباحثين خطورة هذا المبدأ ويرى «أن الجماعة تصادر به الدين لمصلحتها وبهذا لا تصبح مجرد جمعية تطبق الدين كما يحاول غيرها أن يفعل، وإنما تؤكد أن منهجها وحده هو الإسلام الصحيح ومن ثم فإن من يقف ضدها كجماعة يكون خارجاً على الإسلام ذاته.. إنه مبدأ يسعى للسيطرة على الإسلام لا للاتصاف به فقط»[٢٧]. وبهذا فقد يمكننا أن نفسر حملات القتل والاغتيال التي نظمها أعضاء الجماعة ضد خصومها، فإن خصوم الجماعة هم ببساطة خصوم الإسلام ذاته، والخارجون عليها والرافضون لها ليسوا سوى مجرد رافضين «لجماعة المسلمين» والرافض لجماعة المسلمين جزاؤه القتل.

ويأتي المؤتمر الخامس في ١٩٣٩ ليمثل انطلاقة جديدة. وفي هذا المؤتمر يحدد البنا الطبيعة الشاملة لجماعته فهي «دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، ومنظمة سياسية، وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية،

---

[٢٥] د. يونان رزق، المرجع السابق، ص ١٠٧.

[٢٦] مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٨٣.

[٢٧] طارق البشري، المرجع السابق، ص ٥٢.

وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية»[٢٨] وأكد البنا «أن جماعته ترفض التدخل في الخلافات المذهبية التي بين الأعيان والأعلام والأحزاب والجماعات وأنها تكرس جهدها للتنظيم والعمل والسعي الدائب لكسب أعضاء جدد»[٢٩].

وإذ يحاول بعض أتباعه من الشبان «المتسرعين والقلقين» رفض المنهج المتأني والحذر الذي يرسمه الشيخ بعناية وحرص فإنه يحدثهم قائلاً أن الطريق ما زال طويلاً وشاقاً ويحدد لهم توقيت الهجوم العام وقواته.. «في الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الإخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسياً وروحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدرب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجاج البحار واقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل أن شاء الله»[٣٠].

هكذا يكون الجيش مستعداً.

وقد يلاحظ القارئ أننا لم نشر للمؤتمر الرابع للجماعة.. وقد عقد هذا المؤتمر في عام ١٩٣٦ وخصص للاحتفال بتتويج الملك فاروق، ولذلك قصة أخرى لعلنا نوردها في فصل قادم.

* * *

نحن الآن نفتتح صفحة جديدة..

صفحة ما بعد المؤتمر الخامس..

كل ما قبل ذلك كان تحضيراً وإعداداً.. أما اليوم فهو القول الفصل.. هو بدء «التنفيذ»، كان مجرد إعداد للثلاثمائة كتيبة استعداداً لخوض لجاج البحر، واقتحام عنان السماء.

---

[٢٨] المؤتمر الخامس، ص ١٤.

[٢٩] المرجع السابق، ص ١٦.

[٣٠] المرجع السابق، ص ٢٤.

ولعله من الضروري هنا أن نلقي نظرة على البناء التنظيمي الذي ابتدعه وأقام أسسه بنجاح تام الشيخ حسن البنا.

كانت الجوالة هي أول عمل تنظيمي خاص أقامه البنا، ولعلها كانت في البداية محاولة «لبلورة» النشاط الرياضي والاجتماعي الذي اهتم به الشيخ غاية الاهتمام مقتدياً بالحديث الشريف «المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف» وبالحكمة البليغة «العقل السليم في الجسم السليم»[٣١].

وفي أعقاب المؤتمر الثالث للجماعة (١٩٣٥) زاد الاهتمام بصورة مكثفة بفرق الجوالة.. واعتبرت تنظيماً مستقلاً ذات هيكل مستقل تابع مباشرة للمركز العام.. ولعلها أصبحت في ذلك الحين محط اهتمام أكبر من الشيخ فقد بدأت القمصان الملونة خضراء (مصر الفتاة) وزرقاء (الوفد) تملأ شوارع القاهرة والمدن الأخرى تستخدم الردع السياسي والردع المضاد.

وكان لابد لجماعة كالإخوان من فريق للردع خاص بها.. ولعل الشيخ كان أكثر من أتقن ذلك من قادة العمل السياسي المصريين.

وفي عام ١٩٣٩ عيَّن البنا واحداً من أخلص رجاله ـــ هو محمود لبيب (ضابط سابق بالجيش) قائداً عاماً لفرق الجوالة وكوّن لها مجلس قيادة من سبعة أشخاص.

وباختصار كانت فرق الجوالة هي الوعاء الذي يستوعب أخلص شباب الجماعة وأكثرهم ولاء.. ويصقلهم ويدربهم، ويعودهم على الطاعة التامة والتفاني المطلق.. ولعل الشيخ وهو يصوغ جنينيات هذا الوعاء، كان يدرك أن ثمة خطوة أخرى قادمة هي اختيار أخلص هؤلاء الخلصاء.. وأنشط هؤلاء النشطاء في وعاء سرى تماماً هو «الجهاز الخاص».. لكن لذلك قصة أخرى.

والمهم أن فرق الجوالة قد نشطت، واتسعت وامتد عملها إلى مجالات عدة في الريف والمدينة ابتداء من محو الأمية ومقاومة الكوليرا وخدمة البيئة إلى ردع الخصوم السياسيين إلى المشاركة في الاحتفالات العامة كجيش

---

[٣١] محمد شوقي زكي، المرجع السابق، ص ١٢١.

خاص بجماعة الإخوان المسلمين.. وفي عام ١٩٤٨ كان عدد أعضاء فرق الجوالة من الإخوان المسلمين ٤٠,٠٠٠ عضو.

ولقد أثارت فرق الجوالة هذه الكثير من الجدل.. فالهيئة العامة للكشافة قاومت في بداية الأمر نشاطها فقانونها يؤكد أن «الكشاف» لا يتداخل في السياسة.. والأحزاب الأخرى قاومتها واعتبرتها نهجاً «فاشستياً» في التنظيم.

وبرغم ذلك فقد نجح الإمام في أن يبرز شباب جماعته في صورة زاهية تماماً فقد كانوا حريصين دوماً على خدمة الجمهور، وقدموا بالفعل خدمات هامة وخاصة في أوقات المحن العامة كوباء الكوليرا والملاريا.

ومع «الجوالة» كانت «الكتائب».. «كتائب أنصار الله». فالجوالة للرياضة والشباب والخدمة العامة وأما «الكتائب» فهي مجموعات تضم كل منها أربعين عضواً من الأعضاء النشطين في الجماعة.. ويلتقون معاً ليلة كل أسبوع حيث يقضون أكثر الليل في العبادة وتلاوة القرآن.. وتفسيره وقراءة الأوراد. وكان الهدف الأساسي الذي وضعه الشيخ لهذه الكتائب هو ربط العضو بالجماعة، وتطوير علاقته بها من علاقة «انتماء» إلى علاقة «إيمان» فهو يعبد الله في إطارها وبين صفوفها.. ولعل فكرة هذه الأمسيات الدينية، ذات العبادة المكثفة قد واتت الشيخ من خلال انتمائه السابق للصوفيين.. كذلك كانت الكتائب وعاء يختبر فيه الرجل رجاله.. ويفرز من بينهم من هو أكثر إخلاصاً وولاء.. وكان شعار الكتائب «العمل ـ الطاعة ـ الصمت»[٣٢].. لكن لماذا «الصمت»؟..وأي حاجة للصمت في ليال ليس فيها سوى التعبد وذكر الله.. ربما كان الرجل ينتقي من أخلص خلصائه.. رجالاً لعمل جديد لعله «الجهاز الخاص».

وبعد فترة.. استنفدت «كتائب أنصار الله» غرضها بالنسبة للمنظم الفذ الذي استشعر أنه قد انتقى ما شاء من رجال ..وأنه قد آن الأوان لوضع

---

[٣٢] الدعوة، ١٥-٤-١٩٥١.

نظام يشمل أعضاء الجماعة جميعاً.. وكانوا قد أصبحوا بضع مئات من الألوف، وكان نظام الأسر.

وقد بدأ تنفيذ هذا النظام في عام ١٩٤٣ في ظل التزايد الواسع للعضوية وما صاحب بعض فترات الحرب العالمية من ضغوط على الجماعة(٣٣).وفي بداية الأمر سمي «نظام الأسر التعاوني» ثم أصبح اسمه «نظام الأسر». وتقوم الفكرة التي وضعها الشيخ البنا على أساس تجميع الأعضاء النشطين في كل شعبة وتقسيمهم إلى مجموعات كل مجموعة لا تزيد عن خمسة أعضاء (أصبحت عشرة فيما بعد)(٣٤) وتسمى المجموعة «أسرة» وتنتخب كل أسرة رئيساً يسمى«نقيباً» ويقوم بتمثيل مجموعته أمام قيادة الفرع. وتعتبر الأسرة وحدة متكاملة مسؤولة مسؤولية جماعية عما تكلف به. وتكون كل أربع أسر«عشيرة» يرأسها «نقيب» الأسرة الأولى من أسر العشيرة. وتكون كل خمس عشائر «رهط» و«الكتيبة» تضم خمسة «رهوط»(٣٥).

وهكذا وصل البنا إلى الطموح التنظيمي الذي يريد.. والذي حلم به، فقد نجح نظام الأسر في أن يحيل الجماعة كلها إلى شبكة متصلة الحلقات متماسكة الفعل ورد الفعل، قادرة على أن تستجيب ــ وعلى الفور ــ لإرشادات وتوجيهات القائد.. وفي المركز العام كان «قسم الأسر» تحت إشراف مباشر من «المرشد» وحركة «الأسر» أقوى جهاز في الجماعة.. بل وأقوى جهاز سياسي منظم في مصر كلها.

والأسرة تعقد اجتماعات أسبوعية حيث تمارس معاً العبادات، وتقرأ القرآن والأوراد، ويقدم كل عضو حساباً عن نشاطه وعمله وماليته. وكان البنا يحث الإخوان «على أن يعززوا علاقات الأخوة في إطار الأسرة الإخوانية». فاجتماعات «الأسرة» الأسبوعية تعقد خارج الشعبة ويستحسن

---

(33) **Mitchell - op .cit.p.196.**

(٣٤) نظام الأسر: نشأته وأهدافه، ص ١٨.

(٣٥) المرجع السابق، ص ١٨.

أن تعقد في منازل أعضائها بالتناوب، وبخلاف الاجتماعات الأسبوعية كان على الأسرة أن تنظم أمسية إسلامية كل شهر.. ويستحسن أن تقضيها في مكان خلوي حيث ينامون ويقرأون الأوراد ويصلون معاً ويتناولون طعامهم معاً.. والأسرة تصلي الجمعة معاً وتحل مشكلاتها المالية بينها.. وعلى أساس نظام «التكافل» الإسلامي إذ تحتفظ الأسرة بصندوق تعاوني تضم إليه تبرعات أعضائها وترسل الأسرة خمس إيرادها إلى الشعبة لتمول منه المشاريع الاجتماعية التي تديرها الشعبة.

وقد حرص «البنا» على تعزيز نظام «الأسر» كسبيل لارتباط العضو بالجماعة ليس فقط سياسياً وإنما اجتماعياً واقتصادياً.. فقد حرص «البنا» على أن تصبح الجماعة موئل العضو وأسرته ودرعه ومحط آماله وكان يروي دوماً كيف فقد أحد أعضاء الجماعة مورد رزقه فقدم له أخٌ في الأسرة «نصف مرتبه، فلما سئل: كيف تعيش بنصف راتب؟ أجاب: وكيف يعيش أخي بلا دخل؟».

وقد أوصى البنا الإخوان بأن يقيموا نظام «الأسر» على أساس أعمدة ثلاثة: التعارف ـ التفاهم ـ التكافل ـ مستلهمين الآية الكريمة «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» والحديث الشريف «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[٣٦].

وتتجلى براعة البنا كمنظم في أنه قد ربط بالجماعة وأهدافها كل عضو فيها.. ومنحه القدرة على العمل في إطارها فأصبحت «الإخوانية» أسلوباً للحياة[٣٧].

..هكذا يكون الجيش مستعداً.. الأعضاء منتظمون في «الأسر» تشدهم إلى المرشد برباط وثيق، والشباب الأكثر حيوية والأكثر إخلاصاً منتظمون في فرق «الجوالة» يتدربون ويتعودون الطاعة التامة والتفاني في الإخلاص لبيعتهم

---

[٣٦] المرجع السابق، ص ١٥.

[٣٧] رضوان محمد رضوان، المأثورات.

للمرشد وفوق هذا هناك «الجهاز الخاص» المدرب والمسلح والمجهز تجهيزاً عالياً ليكون أداة الردع التي لا يعرف أحد عنها شيئاً سوى المرشد نفسه.. وبهذا يحكم المرشد قبضته تماماً على الجماعة كلها.

..وكما حاول البعض أن يتهكم.. كان الأمر حقيقة «إذا عطس الإمام في القاهرة.. قال الإخوان في كل مصر.. يرحمكم الله».

* * *

وإلى المجال الصعب بالنسبة لأي مسلم «سلفي».. وهو مجال العمل وسط النساء وتنظيمهن.. وصلت اهتمامات البنا، فمنذ البدايات الأولى في الإسماعيلية اهتم البنا بالعمل وسط «الأخوات» محاولاً برغم تمسكه «بالحجاب» وبضرورة «استقرار المرأة في البيت» أن يجد لجماعته موضع قدم في الحركة النسائية. ذلك أن البنا كان يؤكد وباستمرار أهمية الدور الذي تلعبه «الأسرة الإسلامية» في تنشئة جيل مسلم، فكيف يمكن تصور «أسرة إسلامية» بغير «أخوات مسلمات»؟

وهكذا كان من بين مشاريعه الأولى وهو لم يزل بعد في الإسماعيلية تأسيس «مدرسة أمهات المؤمنين»، وفي إبريل ١٩٣٣ أصبحت هذه المدرسة أول فرع رسمي للإخوات المسلمات[٣٨].

واستمر العلم وسط النساء تعرقله التوجهات السلفية للجماعة تجاه قضية تحرير المرأة وحقها في العمل وتجاه الحجاب وقضية الأحوال الشخصية، وتعرقله أيضاً مقاومة وتأفف بعض أعضاء الجماعة من العمل وسط «الحريم»، وهكذا مضت سنوات عشر كاملة على تأسيس الفرع الأول للإخوات المسلمات بالإسماعيلية قبل أن تتكون قيادة مركزية «للإخوات المسلمات» بالمركز العام .. وبدفع خاص من جانب الشيخ البنا تحقق الأخوات المسلمات نجاحاً يعتبر بمقاييس الأربعينيات وبمقاييس العمل النسائي أكبر من كبير.. فقد وصل عدد الإخوات المسلمات في عام ١٩٤٨

---

(٣٨) احمد انس الحجاجي، روح وريحان ـ المرجع السابق ص ٢٠٠.

رقماً عالياً جداً هو خمسة آلاف عضوة[٣٩].. لكن الملاحظة الهامة هي أن الإخوان إذ حققوا في الجامعات نجاحاً باهراً وسط طلاب الجامعات في الأربعينيات إلا أن عدد الطالبات المحجبات في الجامعة كان ضئيلاً جداً إلى درجة ملفتة للنظر.. إذ يبدو أن «الفتيات المتعلمات كن يتصورن دعوة الأخوان دعوه سلفية تعود بالمرأة إلى عصر الحريم»[٤٠].

وفي أيام «المحنة الأولى» (١٩٤٨ ــ ١٩٥٠) لعبت الأخوات المسلمات دوراً هاماً في رعاية أسر المعتقلين وفي تأمين الاتصال بين سجناء الأخوان في مختلف السجون وبينهم وبين من بقي من الأخوان في الخارج.

ومن صفوف الإخوات المسلمات لمعت بعض أسماء.. وبرز أحد هذه الأسماء (زينب الغزالي) ليلمع في قمة قيادة الدعوة.

* * *

وإذ يستعد الجيش لمرحلة «التنفيذ» فلا بد من جهاز إعلامي قوي يمكنه من أداء مهامه.. والبنا الذي يرفض الغرب وحضارته.. وكل منجزاتها حرص على أن يوصى الأخوان بأن «يتعلموا من الغرب فنون الدعاية»[٤١].

وكانت المطبعة الصغيرة التي أسسها البنا بعد المؤتمر الثاني للجماعة مستمرة في طبع رسائله إلى الإخوان والتي أصبحت سلاحاً إعلامياً يحقق للشيخ الهيمنة الفكرية على الجماعة.. والهيمنة الفكرية للجماعة على قطاعات كبيرة من التيارات الإسلامية .. ورويداً رويداً تنمو المطبعة الصغيرة بفضل الاهتمام الدائب من المرشد لتصبح واحدة من أهم المشروعات الاقتصادية للجماعة[٤٢].

---

[٣٩] لمزيد من التفاصيل راجع: الإخوات المسلمات، الرسالة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٥١.

[40] Mitchell - op .cit.p.173.

[٤١] حسن البنا، الرسائل الثلاث. ص ١١.

[٤٢] الدعوة، ١٢-٢-١٩٥٢.

وبرغم البداية المتواضعة فقد نجح البنا في أن يصدر أول مجلة إخوانية تحمل دعوته إلى الجمهور.. وكانت مجلة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية التي صدرت لتعلن أنها صوت دعوة الحق والقوة والحرية، وكانت المجلة مملوكة لواحد من كبار السلفيين الذين أثروا تأثيراً كبيراً في الإمام عندما كان طالباً.. هو الشيخ محب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية. وبجنيهان فقط كانا كل ما يمتلكها الشيخ حسن في جيبه أغرى الشيخ محب الدين الخطيب على مشاركته في إصدار هذه المجلة باسم «الجماعة».. وصدر العدد الأول في مايو ١٩٣٣ لتكون أول مجلة تصدر عن الجماعة ولتستمر في الصدور أربعة أعوام كاملة[٤٣].

ومع مرحلة «التنفيذ» كان لابد للجماعة من سلاح إعلامي جديد.. «النذير» التي كان لها من اسمها الكثير والتي كانت «إعلاناً» صريحاً وصارماً من الشيخ لكل سياسيي مصر بأن «الإخوان المسلمين» قد اقتحموا ميدان السياسة.

لكن «النذير» تخرج مع المنقسمين على الجماعة.. هي ورئيس تحريرها وصاحب امتيازها لتصبح في عام ١٩٣٩ لسان حال المنشقين الذين أسموا أنفسهم «شباب سيدنا محمد»[٤٤]. ويستخدم البنا علاقاته الوثيقة بالشيخ رشيد رضا وبأسرته، ليحصل على مجلة «المنار» التي تعثر صدورها بعد وفاة الشيخ رشيد عام ١٩٣٥ فأصدرها البنا باسم جماعته منذ عام ١٩٣٩ حيث أصدر منها ستة أعداد.. إلى أن ألغت الحكومة ترخيص المجلة كجزء من ضغطها على الجماعة الإخوان وألغت في نفس الوقت مجلة إقليمية كانت تصدر عن الجماعة باسم «التعارف»[٤٥].

لكن شهر العسل يعود سريعاً.. ويجد المرشد سبيلاً للصلح مع الحكام.. وفي عام ١٩٤٢ وكجزء من المصالحة العامة، وكتعبير عن مصالحة جديدة

---

(43) Mitchell - op .cit.p.185.

(٤٤) مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٤٩.

(45) Heyworth - Dunne - Ibid .p .57.

بين الوفد والإخوان تنهض الجماعة من جديد لتصدر في أغسطس ١٩٤٢ مجلتها الأسبوعية «الإخوان المسلمون» والتي صدرت في بداية الأمر كل أسبوعين.. وفي مايو ١٩٤٦ صدرت «الإخوان المسلمون» يومية.. وواصلت صدورها حتى حل الجماعة في ديسمبر ١٩٤٨.

وفي نوفمبر ١٩٤٧ أصدرت الجماعة مجلة شهرية للدراسات الإسلامية باسم «الشهاب» لعلها أقرب ما تكون إلى«منار» الشيخ رشيد رضا .. كذلك أصدرت الجماعة مجلة طلابية كانت توزع أساساً على طلاب الجامعات[٤٦].

وإذ رفض البنا التعليم الحديث باعتباره انعكاساً غريباً مرفوضاً يعلم التلاميذ الضلال والعلمانية، وإذ رفض التعليم الأزهري باعتباره مجرد حفظ لموضوعات دينية وأنه خال من الاهتمام الروحي والوجداني.. فقد حلم بتعليم من نوع جديد. وكعادته عندما يقتحم أي ميدان يبدأ بمشروع صغير ثم يبذل من طاقته وجهده ما يجعل أي صغير كبيراً.

وقد بدأت المؤسسة التعليمية للإخوان المسلمين منذ الأيام الأولى في الإسماعيلية كنموذج يقدمه «الإمام» لنوعية جديدة من التعليم تستهدف نهضة الإسلام.. وتستهدف نقد التعليم الحديث ودحضه باعتباره «تعليماً علمانياً»[٤٧].

وفي عام ١٩٣٥ شكلت الجماعة وفداً لزيارة رئيس الوزراء ووزير المعارف العمومية وممثلي الأحزاب السياسية للمطالبة بتعديل أسس التعليم تعديلاً جذرياً بحيث يقوم على أسس إسلامية حقة[٤٨]. وقد سجلت الجماعة أكثر من مرة انتقادها المرير للحكومة المصرية لكونها حكومة بلد إسلامي وتسمح في نفس الوقت للبعثات المسيحية بافتتاح مدارس ولأن مدارس الحكومة

---

(46) Vatikiotis - op .cit.p .361.

(47) Mitchell - op .cit.p.284.

(٤٨) حسن البنا، الرسائل الثلاث. ص ١١٧.

تدرس تاريخ أوربا ولا تدرس تاريخ الإسلام[٤٩]. وتلاحظ أنه في عام ١٩٤٨ خاضت صحف الجماعة وشعبها معركة عنيفة ضد المدارس الكاثوليكية. وقد أرسل الأب هنري عيروط إلى جريدة الإخوان المسلمين رسالة رد على هذا الهجوم لكن الجريدة لم تنشر هذه الرسالة. وأخيراً نجح الأب عيروط في مقابلة الشيخ حسن البنا، ونشرت جريدة «الاخوان المسلمون» موضوعاً عن هذه المقابلة ركزت فيه على ضرورة اتحاد رجال الأديان ضد الإلحاد والملحدين[٥٠].

وفي عام ١٩٣٨ وعندما طلب وزير المعارف العمومية إلى شيخ الأزهر تقريراً عن توحيد نظامي التعليم «الأزهري والحديث» أسهم حسن البنا في هذا الأمر بتقرير تفصيلي وجهه في شكل رسالة إلى الوزير أكد فيها أن هزيمة «العلمانية» لن تكون بغير إتقان رجال الدين لمختلف فروع العلوم والمعرفة. ومن ثم فقد أكد البنا أنه لا يريد تعليماً إسلامياً صرفاً، ولا علمانياً صرفاً وإنما مزيج من الاثنين[٥١].

وفي عام ١٩٤٦ بدأ البنا يولى شبكة التعليم الأخوانية اهتماماً خاصاً حيث تكونت «لجنة» تأسيس المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات «ثم تكونت لجنة الشؤون الثقافية»[٥٢]. ودعا البنا أنصاره للتبرع.. وانهالت التبرعات.. ويلاحظ أن إحدى القوائم قد ضمت تبرعاً بخمسة آلاف جنيه مع وعد تبرع بألف جنيه أخرى لكل مدرسة تؤسسها الجماعة.. وفي عام ١٩٤٦ كان وزير المعارف محمد حسن العشماوي صديقاً شخصياً للشيخ حسن البنا فوجه رسالة رسمية للجماعة يدعوها إلى المساهمة في مشاريع الوزارة لمحو الأمية وتعميم التعليم. وقدمت الوزارة معونة للجماعة ٧٥ قرشاً مقابل كل تلميذ يدرس في مدارسها ثم قدمت لها الكتب والأدوات اللازمة

---

[٤٩] عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه.

[٥٠] الإخوان المسلمون، ٥ - ٨ - ١٩٤٨.

[٥١] الإخوان المسلمون، ١٧ - ٧ - ١٩٤٦.

[٥٢] الإخوان المسلمون، ١٠ - ٧ - ١٩٤٦.

لمدارسها مجاناً، ثم قررت الوزارة تغطية نفقات هذه المدارس بالكامل.. وقد دعمت هذه المساعدات ميزانية شبكة التعليم الإخوانيـة وفـوق ذلـك قدمـت لها اعترافاً رسميـاً. ثـم عمـد البنـا إلى تأسـيس شـركات مسـاهمة لتأسـيس المدارس وقد نجحت هذه الفكرة أيضاً.

واتسعت شبكة المدارس الإخوانية إلى درجة أن الشيخ البنـا قـد أكـد أن كل شعبة من شعب جماعته الألفين أسست مدرسة أو أكـثر[٥٣]. ولابـد لنـا من أن ندرك أثر ذلك في انتشار الجماعة ونفوذها في صفوف التلاميذ وأولياء الأمور والمدرسين والمدرسات.

.. وأسهمت الجماعة أيضاً في مختلف أوجـه النشـاط الاجتمـاعي. وقـد أشرنا إلى دور فرق الجوالة الإخوانية في مقاومة الملاريا والكوليرا، كذلك فقد وجه البنا جماعته لتأسيس قسم طبي عام ١٩٤٤.. ثـم افتتـح الشـيخ البنـا عيادة طبية وأجزاخانة ومستشفى صغير بلغ عـدد المـترددين عليـه ٥١٣٠٠ مريـض في عـام ١٩٤٧ ووصلـت ميزانيـة القسـم الطـبي في عـام ١٩٤٨ إلى ٢٣٠٠٠ جنيه.

وفي ميدان الخدمات الاجتماعية بـدأت الجماعـة نشـاطاً ملحوظـاً، وفي عام ١٩٤٦ كان لهـا ١٠٢ فرعـاً للخدمـات الاجتماعيـة زادت في ١٩٤٨ إلى ٥٠٠ فرع.

وحتى تستطيع هذه الفروع الاستفادة من المعونات الماليـة الكبـيرة الـتي تقدمها وزارة الشؤون الاجتماعية لمثل هذا النشاط ـ والذي يتعين عليه وفقـاً للقانون ألا يرتبط بأي جماعة سياسية ـ كونت الجماعة فرعاً مستقلاً عنهـا للإشراف على هذا النشاط.

وهكـذا امتـدت يـد الجماعـة إلى مختلـف جوانـب الحيـاة في المجتمـع المصري وأصبحت مؤسساتها التعليمية والصحية والاجتماعيـة ركـائز بالغـة الأهمية تعزز مكانتها وتدعم ماليتها، وتقوى جذورها وسط الجماهير.

* * *

---

[٥٣] حسن البنا، قول فصل ـ ص ٣٤.

والسؤال الملح والمحير هو: كيف استطاع البنا أن يمول كل هذه المشروعات.. وكيف استطاع أن يدبر الموارد المالية الكافية لجماعة تمتد شعبها لتغطي كل أنحاء مصر.. ولفرق الجوالة بملابسها ومعداتها، وللمدارس، والمستشفيات والمشاغل والمصانع والشركات والمؤسسات.. وهذه المجموعة الهائلة من المتفرغين السياسيين والإداريين.. وفوق هذا وذاك.. للجهاز السري بمخابئه وأسلحته وأفراده.

وعند صدور قرار حل الجماعة لاحظ الجميع أن إجمالي أصول الجماعة.. من ممتلكات وشعب وأثاثات وشركات ومدارس ومصانع ومزارع ومشاغل ومستشفيات.. الخ قد وصل رقماً خيالياً بالنسبة لحزب سياسي أيا كانت جماهيريته خصوصاً إذا ما كان التركيب الطبقي لهذه العضوية ينزع نحو البرجوازية الصغيرة (الطلاب، الفلاحين، الحرفيين، صغار الموظفين) وهؤلاء جميعاً ليسوا في مستوى مالي يمكنهم من تغطية هذه النفقات.

ومنذ البداية ونحن نلاحظ سلسلة من علامات الاستفهام:

* تبرع شركة قناة السويس الاستعمارية للجماعة (وهو أمر أكده الشيخ البنا نفسه).

* إقرار الشيخ البنا إن إسماعيل صدقي قد عرض عليه معونة مالية مقابل خدمات سياسية من الجماعة (وإن كان البنا قد أكد عدم قبوله لهذه المساعدة).

* إن معظم الخلافات التي ثارت في صفوف الجماعة قد اتخذت من موضوع التمويل ومصادره مادة للهجوم على الشيخ البنا (فمنذ انقسام الإسماعيلية وحتى انقسام شباب سيدنا محمد ثم انقسام السكري كانت المسائل المالية عنصراً مشتركاً).

* إن الشيخ البنا إذ أحكم قبضته على كل أوجه نشاط الجماعة، انفرد تماماً وبشكل خاص بموضوع المالية.

* إن كثيراً من حملات التبرع التي كان ينظمها الشيخ البنا كانت تغطى سريعاً.. وبطاقات تفوق الإمكانيات المالية المحدودة لأعضاء غالبيتهم

العظمى من محدودي الدخل.. وأن الكثيرين من الإقطاعيين والرأسماليين قد قدموا تبرعات مالية وعينية للجماعة مبررين ذلك بتشجيع الجماعة على محاربة الشيوعية[٥٤].

* إن اتهامات كثيرة قد ترددت في أن تمويلاً خاصاً قد تعاطته الجماعة من الإنجليز تارة ومن الأمريكيين تارة أخرى[٥٥].

وبالرغم من كثرة ترديد الاتهام في العديد من الأبحاث والمصادر.. إلا أن الباحث المدقق يكتفي بطرح هذه التساؤلات ما لم يجد إجابة مؤكدة.. ومعها يستمر أيضاً في طرح سؤال هو: من أين إذن كل هذا السيل المتدفق من التمويل؟

ولكي نؤكد أن هذا السؤال الأخير في محله تماماً، يكتفي أن نقدم نموذجاً ومن استثمارات جماعة الإخوان المسلمين:

- شركة الإخوان للصحافة ورأسمالها ٥٠٠٠٠ جنيه.
- شركة الإخوان للطباعة ورأسمالها ٧٠٠٠٠ جنيه.
- شركة الإعلانات العربية، ويقال أن رأسمالها قد بلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه[٥٦].
- شركة المعاملات الإسلامية وقد بلغ رأسمالها عام ١٩٤٦ ٣٠٠٠٠ جنيه[٥٧].
- الشركة العربية للمناجم والمحاجر ورأسمالها ٦٠٠٠٠ جنيه.
- شركة الإخوان المسلمين للغزل ورأسمالها ٨٠٠٠ جنيه.

---

(54) Mitchell - op .cit.p.182.

(55) Ibid - p .182.

(56) Heyworth - Dunne - Ibid .p .57.

(57) Mitchell - op .cit.p.275.

• شركة التجارة والأشغال الهندسية ورأسمالها ١٤٠٠٠ جنيه[٥٨].

• شركة التوكيلات التجارية بالسويس (لم نصل إلى رقم رأسمالها).

• شركة مزرعة العركي (وكانت تمتلك ٨٠٠ فدان)[٥٩].

من أين أتت الجماعة بكل هذه الأموال؟

سؤال يفرض نفسه.. فالأرقام كبيرة جداً خصوصاً إذا ما أضفنا إليها الأصول الأخرى كالمدارس والمقار والمشاغل.. الخ.

والإجابة المباشرة صعبة.. إلا إذا وجد الباحث الجرأة في استصدار أحكام قاطعة مستنداً فقط إلى الشبهات القوية وليس أمامنا سوى أن نواصل البحث.. فلعلنا في فصل قادم نجد المزيد من الضوء نسلطه حول منطقة «الغموض» هذه في تاريخ الرجل وتاريخ الجماعة.

---

(58) **Mitchell - op .cit.p.275.**

(٥٩) المصور، ١١ - ١١ - ١٩٥٥.

الصعود.. هبوطاً..

وإذ يعزز الشيخ البنا صفوف جماعته، وينتقل بها في هدوء ويسر وبلا ضوضاء من مرحلة لمرحلة محققاً نجاحاً كبيراً ليس فقط في إقامة بناء تنظيمي محكم، وإنما أيضاً في إخفاء هويته عن الجميع.. متباعداً عن أي اشتباك، محاذراً من أن يعادي أحداً أو يعاديه أحد.

إذ ينجح الشيخ في اجتياز مرحلتي الدعوة والإعداد وإذ تقترب سفينته من شاطئ «التنفيذ» يلبس ثياباً جديدة، وتبدو جماعته في طور جديد تماماً.

..«إلى الآن أيها الإخوان لم تخاصموا حزباً ولا هيئة، كما أنكم لم تنضموا إليهم، ولقد تقول الناس عليكم فمن قائل أنكم وفديون نحاسيون، ومن قائل أنكم سعديون ماهريون، ومن قائل أنكم أحرار دستوريون، وأنكم بالحزب الوطني متصلون، أو لمصر الفتاة منتسبون، إلى غير ذلك، وإنكم لبريئون، فما اتبعتم غير رسوله زعيماً، وما اتخذتم سوى الإسلام غاية، فدعوا الناس جانباً وخذوا في الجد والزمن كفيل بكشف الحقائق»[1]

ويحين الحين.. فلابد أن تكشف الجماعة عن هويتها السياسية، لكن الشيخ الشديد الحذر يظل دوماً حريصاً على تغليف كل موقف، وعلى إضفاء غمامة من الغموض على جماعته.

«يقولون نحن في حيرة من أمر الإخوان المسلمين أهي طريقة صوفية أم جمعية خيرية، أم حزب سياسي وأي شيء يقصدون، وفي أي طريق

[1] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية،ص١٥٢.

يسيرون، أما نحن الإخوان فقد تجاهلنا هذه المسميات وأخذنا في الطريق الأول الذي لا يصلح أمر الناس إلا عليه.. الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله، ونهجنا منهج الإسلام ووسيلتنا إيمان ومحبة وعمل»[٢].

ويمضي الشيخ يوسع من قاعدة جماعته ونفوذها.. مكتفياً بشعارات عامة قد لا يختلف عليها أحد. في عام ١٩٢٩ كان لها أربع شعب أصبحت خمساً في عام ١٩٣٠ ثم عشراً في عام ١٩٣١ ثم ٥١ في عام ١٩٣٢.. ثم تأتي مرحلة سنتحدث عنها طويلاً فيما بعد - يقفز فيها عدد شعب الجماعة إلى ٣٠٠ شعبة في عام ١٩٣٨. أنها مرحلة التقاء الثالوث «علي ماهر - الشيخ المراغي - حسن البنا» في محور واحد مناهض لحزب الوفد وموال للسراي، ويستمر الصعود.. ففي عام ١٩٤٠ تصبح الشعب ٤٠٠ شعبة.. حتى تصل إلى ألفي شعبة في عام ١٩٤٨.

ويقول الشيخ البنا في شهادة له أمام القضاء أن عدد أعضاء جماعته في عام ١٩٤٥ كان (حسب الإحصاء نصف مليون عضو)[٣]. ولا يمضي سوى وقت قليل - بضعة أشهر فقط - حتى يعلن الشيخ البنا في حديث له لمجلة آخر ساعة «في مصر ألف وخمسمائة شعبة تضم مليوناً من الإخوان ولنا شعب أخرى في الشرق كله تجعل منا مليوناً ونصفاً من الإخوان العاملين عدا الإخوان المناصرين وهم كثيرون»[٤]. (ولعلنا هنا نلحظ الاختلاف الكبير في الأرقام بما يوحي ببعض المبالغة من جانب الشيخ ومحاولة للتظاهر بالقوة). لكن جريدة الإخوان تعود فتقول أن شعب الإخوان «تعدو الألفين وخمسمائة، وعدد أعضائها يربو على نصف مليون»[٥]. بل إن الشيخ البنا نفسه يعود للتواضع مرة أخرى فيقول في شهادة له أمام محكمة أخرى «أن

---

[٢] الإخوان المسلمون - نوفمبر ١٩٤٤ - حسن البنا، مقال بعنوان «لحن».

[٣] محاضر جلسات المحكمة. العسكرية العليا في القضية رقم ٣٧٣ لسنة ١٩٤٥ والخاصة باغتيال أحمد ماهر باشا. شهادة الشيخ حسن البنا، ص١١٥.

[٤] آخر ساعة، ١٥ - ٣ - ١٩٤٦.

[٥] الإخوان المسلمون (الإسبوعية) ٢٧ - ٧ - ١٩٤٦.

جماعة الإخوان المسلمين تتكون من نحو ألف شعبة ما بين ٢٠٠,٥٠ عضو وبذلك يكون مجموعهم ما بين ٥٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ من مختلف الطبقات، عدا الطلبة فهم لا يدخلون ضمن الإحصاء إذ لا يمنحون حق العضوية.. وقد توزع عليهم نشرات الجماعة للعلم بها»[٦].

ومرة أخرى يتكرر رقم النصف مليون على لسان الشيخ البنا فيقول في آخر رسائله «قول فصل» والذي كتب بعد أن صدر قرار حل الجماعة.. أن عدد أعضاء الجماعة نصف مليون عضو ونصف مليون من الأنصار والأصدقاء[٧].

ولكن بعض الباحثين يقدم رقماً عشوائياً يصل إلى ٢ مليون عضو[٨]. وعلى أية حال فإن البنا ـ وأيا كان عدد الأعضاء الذين التفوا حوله ـ قد أعطى نفسه الحق في أن يتحدث باسم «٧٠ مليون عربي و ٣٠٠ مليون مسلم»[٩].

والذي لا جدال فيه.. أن جماعة «الإخوان المسلمين» كانت واحدة من أكثر القوى السياسية نفوذاً وأحسنها تنظيماً وأن الإخوان كانوا بالنسبة لأصدقائهم ولخصومهم على السواء ملء السمع والبصر.

ويشهر حسن البنا سيفه، مقتحماً ميدان السياسة.. متسائلاً في تحد وربما في سخرية أيضاً «هل اطمأنت الجنوب في المضاجع؟ هل جفت الجفون من المدامع؟ هل حوربت الجريمة واستراح المجتمع من شر المجرمين؟ وهل استغنى الفقراء، وأسبغت الملايين التي تفوق الحصر بطون الجائعين؟ هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن التي ملأت الفضاء وسرت مسرى الهواء العزاء إلى المحزونين؟».

---

(٦) محضر التحقيق في قضية اغتيال أحمد الخازندار بك. أقوال الشيخ حسن البنا.

(٧) حسن البنا، قول فصل ص ٢٣.

(8) Florence Elliot and Michael Summerskill - A Dictonary of politics- 4th ed .(1964) P.247

(9) Khadduri - op .cit.P .75.

والجـواب جـاهز عنـد الشـيخ وقـاطع أيضـاً وهـو لا.. «فالأمـة في قلـق واضطراب وحيرة وارتباك وقد يئست من صلاحية هذه المنـاهج والنظـم» ثـم يعلـن «أن واجبنـا أن نقـود هـذه النفـوس الحـائرة ونرشـد هـذه المشـاعر الثائرة»[١٠].

.. وهكذا يقتحم الشيخ البنا ميدان السياسة معلناً أنـه سـيقود «النفـوس الحائرة».. ولكن السؤال الكبير ستحاول الصفحـات القادمـة الإجابـة عليـه هو.. يقود من؟. وإلى أين؟.

---

[١٠] حسن البنا، الإخوان المسلمون تحت راية القرآن ـ ص١٢.

سياسة.. بلا برامج

.. ولم تكن الأسماء بغير مدلول.

فالشيخ الذي أتقن فن استخدام الكلمات يعرف كيف ينتقيها.

«النذير» كان الاسم الذي اختاره حسن البنا لمجلته التي قرر أن يقتحم بها ميدان معركة «التنفيذ» ويعلن بها نفسه كقوة سياسية جديدة.

وقد صدر العدد الأول من «النذير» في مايو ١٩٣٨، وفي افتتاحيته أعلن البنا أنه وجماعته سوف ينتقلان «من دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال». وإذ يعدد البنا القوى السياسية في مصر فإنه يؤكد لأتباعه أنهم لن يقفوا بعد الآن موقفاً سلبياً بل «ستخاصمون هؤلاء جميعاً في الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم»[١].

نحن سياسيون.. كانت هي صيحة الشيخ البنا الذي ظل ولفترة طويلة يناور بحثاً لجماعته عن مكمن تعيش فيه وتنمو.. «فالإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه.. ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقد جعل النبي الحكم عروة من عرى الإسلام، والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع. فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منهما عن الآخر»[٢]. وهؤلاء الذين يظنون أن تعاليم «الإسلام إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظن، فالإسلام عبادة وقيادة ودين ودولة، وروحانية وعمل، وصلاة وجهاد، ومصحف وسيف، لا ينفك واحد من هذين عن الآخر»[٣].

---

[١] النذير، العدد الأول (مايو ١٩٣٨) حسن البنا ـ الافتتاحية.

[٢] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية ـ ص٢٨٣.

[٣] المرجع السابق، ص ١٥١.

ويستند البنا في دعواه هذه إلى منطق عدد من الدعاة الإسلاميين.. وخاصة أبو الأعلى المودودي الذي كانت له بالجماعة علاقات فكرية وعملية وثيقة.. يقول المودودي «الإسلام نظام جامع محكم أسس على مبادئ حكيمة مثقفة، ومن أركانه الكثيرة المهمة إلى الجزئيات الصغيرة الدقيقة كلها ترتبط بتلك المبادئ ارتباطاً منطقياً، وكل وضع فيه للحياة الإنسانية بمختلف شعبها من النظم، إنما قد أخذ روحه واقتبس جوهرة من تلك الأصول الأولية، ومن هذه المبادئ والأصول تخرج الحياة الإسلامية بمختلف فروعها، ولذلك فإن أدرنا أن نعرف شعبة من شعب الحياة الإسلامية معرفة صحيحة صادقة فلا محيد من أن نرجع إلى أصلها فإننا لن نتمكن من الدخول إليها من غير ذلك الباب، ولن نعرف حقيقتها وماهيتها إلا بالإمعان في أصولها وقواعدها»[٤].

ثم يؤكد المودودي في كتاب آخر «إن كلمة الدين في القرآن تقوم مقام نظام بأكمله يتركب من أجزاء أربعة هي:

١ـ الحاكمية والسلطة العليا.

٢ ـ الطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة.

٣ ـ النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

٤ ـ المكافأة التي تكافئها السلطة العليا على أتباع ذلك النظام والإخلاص له»[٥].

ولقد تمسك البنا بهذا الموقف، لكن الغريب أنه أسبغ على الملك الفاسد فاروق وعلى طاغوت القصر الملكي صفة «الحاكمية» بما تكفله لها هذه النظرية من سلطات تستوجب «الطاعة والإذعان».

---

[٤] أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام السياسية ـ المرجع السابق ص٥٥.

[٥] أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن ـ تعريب محمد كاظم سباق ـ الطبعة الخامسة (١٩٧١) دار القلم ـ الكويت، ص.١٢.

على أية حال.. لقد آن الأوان لكي تكشف الجماعة عن هويتها السياسية وبدأت تخوض حرباً إعلامية تبرر فيها نهجها الجديد، «أتحسب أن المسلم الذي يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعجزة والآثمين والدخلاء والمستعمرين يُسمى مسلماً؟ كلا إنه ليس بمسلم فحقيقة الإسلام جهاد وعمل ودين ودولة»[٦]. وهي تستند إلى دور الرسول في قيادة الدولة الإسلامية الأولى. «لقد كان رسولنا الكريم يوقع المعاهدات ويباشر المفاوضات ويراسل الملوك ويسير الجيوش في الوقت الذي كان فيه رجلاً يصلي بالناس ويقيم شعائر الإسلام فهل كان في هذا رجلاً سياسياً؟ نعم. كان كذلك ونحن من بعده نسير على منهاجه ونعتقد أن السياسة على قواعد الإسلام وإعلاء كلمة الله من صميم فكرتنا»[٧].

بل أن الشيخ البنا نفسه وهو الذي يقول حاذر الاقتراب من السياسة طوال السنوات العشر الأولى من دعوته يقول «أستطيع أن أجهر في صراحة بأن المسلم لا يتم إسلامه إلا إذا كان سياسياً بعيد النظر في شؤون أمته مهتماً بها غيوراً عليها.. وأن على كل جمعية إسلامية أن تضع في رأس برنامجها الاهتمام بشؤون أمتها السياسية وإلا كانت تحتاج نفسها إلى أن تفهم معنى الإسلام»[٨].

والإسلام عند الإخوان «وطن» و«جنسية». يقول عبد المجيد حسن - قاتل النقراشي باشا - في أقواله أمام المحقق «الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وسياسة قوة، وثقافة وقانون بمعنى أنه في عهد المسلمين الأوائل، ما كانش فيه حاجة اسمها سياسة، فكان الحاكم هو الإمام وهو الحاكم في

---

[٦] الإخوان المسلمون (الإسبوعية) ٤-٣-١٩٤٥. حنفي محمود بدير، مقال بين الدين والسياسة.

[٧] الإخوان المسلمون (الإسبوعية) ٤-٣-١٩٤٥. الصاوي محمد عوض، مقال: هل السياسة من صميم فكرتنا؟

[٨] الإخوان المسلمون، ١٦-٤-١٩٤٦. حسن البنا، مقال: الإسلام سياسة وحكم.

الوقت ذاته، وهو قائد الجيوش، يتفرغ للسياسة والدين على أن السياسة جزء من الدين»[٩].

وهذه الكلمات هي مجرد انعكاس لتعاليم الشيخ البنا التي تقول «أيها الناس الإسلام فكرة وعقيدة ونظام ومنهاج لا يحده موضع ولا يقيده جنس، ولا يقف دونه حاجز جغرافي ولا ينتهي بأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها»[١٠].

لكن البنا كعادته لا يوصد أي باب، بل يترك لنفسه منفذاً.. ولهذا يلجأ دوماً ـ وفي مسألة العلاقة بالسياسة بالذات، إلى التعمية والغموض ويتعمد التعميم والألغاز «هل نحن طريقة صوفية، جمعية خيرية، مؤسسة اجتماعية، حزب سياسي، نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة.. نحن نجمع بين كل خير»[١١]. لكنه لا يلبث أن يقول «أن الإخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة علمية ثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية»[١٢]. ثم يعود البنا إلى إنكار كلماته، ليلتوي بالألفاظ في اتجاه معاكس «أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضعية الأغراض محدودة المقاصد، ولكنكم روح جديد، ونور جديد، وصوت داو»[١٣].

ونعود مرة أخرى إلى الألفاظ التي لا تحمل مدلولاً محدداً «روح جديد» «نور جديد» «صوت داو». ولا يملك الباحث سوى الحيرة.. هل كان الأمر يحتمل كل هذا التخبط أم أنه تخبط مخطط ومقصود.. فإذا ما حاصر

---

(٩) محضر التحقيق في القضية ٥١ لسنة ١٩٤٩ والخاصة بمقتل محمود فهمي النقراشي باشا ـ أقوال المتهم عبد المجيد حسن، ص١٤.

(١٠) حسن البنا، الإخوان المسلمون تحت راية القرآن ـ ص٢٦.

(١١) أنور الجندي، الإخوان المسلمون في ميزان الحق ـ ص ١١.

(١٢) المرجع السابق ص ١٥.

(١٣) المرجع السابق، ص٥١.

السؤال المحدد «الشيخ» أجاب في براءة «ليس هناك شيء اسمه دين وشيء اسمه سياسة، هذه بدعة أوربية»[١٤]. ولا يكون أمام أي باحث مهما كان محايداً إلا أن يفترض أن الشيخ كان يتعمد وبشكل ظاهر الخلط والمراوغة.. وتصف باحثة غربية هذا الأسلوب بأنه «أسلوب ذو فاعلية واقتدار فهو يؤكد على الطابع الديني للجماعة إذا ما جابهه في الحكومة رئيس قوى، ولكنه لا يلبث أن ينغمس في الصراعات السياسية إذا ما وجد أمامه رئيساً ضعيفاً للحكومة»[١٥]. ويأتي باحث مصري ليعلق على هذا الموقف فيقول: «وهكذا استطاع البنا أن يراوغ الحكومات والأحزاب والرأي العام بوجهي الدعوة، وكان هذا الغموض يحل مشكلة أخرى للجماعة، فهي تنظيم سياسي، أي حزب يسعى للسلطة بينما تنادي بالقضاء على الحزبية وإلغاء كل الأحزاب.. ثم كان هذا الغموض أيضاً يعفي الجماعة من تحديد الأهداف الواضحة فيما يتعلق بالقضايا السياسية الجوهرية التي تواجه الأمة كالمسألة الوطنية، ومشاكل نظام الحكم الداخلي، ويعفيها من تفسير الموقف العملي الذي تتخذه في كل مناسبة، ويمنحها القدرة على أن تطرح للناس موضوعاً أو مشكلة مغايرة تماماً لما يشغل الجميع من مشاكل سياسية حادة في أية لحظة»[١٦].

ولعله من المفيد.. وقبل أن نخوض مع الشيخ حسن البنا بحر السياسة المتلاطم الأمواج المختلط المواقف أن نشير إلى معارضات قوية ذات وزن إسلامي حقيقي حاولت أن تفند فكرة الشيخ وجماعته من قضية الدين والسياسة.

يقول الباحث المدقق حسين فوزي النجار «ويضع محمد مبادئ للحكم والسياسة، ولكنه لا يضع نظاماً للحكم ولا يتخذ في السياسة قاعدة أو

---

[١٤] النذير، العدد العاشر (مجموعة عام ١٩٣٨).

[15] **Harris, christina, Nationalism and Revolution in Egypt .The Role of Muslim Brotherhood (1964) p .182.**

[١٦] طارق البشري، المرجع السابق ص ٥٤.

أسلوباً إلا ما يتفق مع مبادئ الأخلاق وهدى الرسالة وخير المسلمين»، ويرد على مقولة الشيخ حسن البنا من أن النبي كان يجمع بين مهمة رجل الدين ورجل الدولة فيقول «من الخطأ أن تقول أن محمداً كان يسوس أمور الدين إلى جانب قيامه بشؤون الجماعة الإسلامية، فإذا حق لنا أن نقول أنه قام مع الصحابة بسياسة المسلمين فما كان في أمور الدين إلا مبعوثاً واختاره الله لتبليغ رسالته إلى العالمين»[17] ويقول «لقد تحولت الجماعة الإسلامية غداة التآمها بالمدينة إلى جماعة سياسية بحكم ما واجهت من ظروف حياتها الجديدة، ولعل ذلك كان من أسباب الخلط بين فكرتي الدين والدولة في الاسلام، ولم يجمع النبي بينهما، ولم يأت في القرآن ما يشير إلى إقامة الدولة، وإن ورد فيه ما يشير إلى الأمة الإسلامية بمعنى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[18]. ويؤكد على أن «التشريع الإسلامي تشريع للحياة وللحضارة وليس تشريعاً للدولة»[19].

.. فقط أردنا الإشارة إلى أن دعوى الشيخ لم تمر بغير معارضة من الباحثين الإسلاميين.. ولنعد، إلى مقولته عن الدين والسياسة.. ولنسجل ملاحظاتنا سريعاً على مواقفه العملية.

فالبنا إذ يعلن نفسه كزعيم سياسي.. ويقدم جماعته كهيئة سياسية لا يستنكف من أن يحرم الآخرين جميعاً من حق العمل السياسي.. «لقد آن الأوان أن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية في مصر. وأن يستبدل به نظام تجتمع فيه الكلمة وتتوفر جهود الأمة حول منهاج قومي إسلامي صالح»[20].

والشيء الذي قد يبدو محيراً للباحث المحايد هو أن البنا كان يؤكد أن الأحزاب والنظام الحزبي ليسا ضروريين لقيام حكومة تمثل الشعب إذ

---

[17] حسين فوزي النجار، المرجع السابق ص٦٧.

[18] المرجع السابق، ص ١٤٨.

[19] المرجع السابق، ص ٢٥٠.

[20] الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ٩ - ٤ - ١٩٤٦. مقال لحسن البنا.

يمكن لهذه الحكومة أن تقوم بدون حزبية ذلك لأن الأحزاب تقسم الأمة ولا تتفق مع النهج الإسلامي[21].

وإذ يدعو البنا صراحة إلى حل كل الأحزاب القائمة فإنه لا يجد غضاضة في أن يطالب الجميع بأن يفسحوا له الطريق وحده «فحل الأحزاب السياسية سيتلوه قيام حزب واحد على أساس برنامج إسلامي إصلاحي»[22]. ولعله يبدو غريباً أن يمعن البنا في فكرة تصفية كل الأحزاب السياسية ما عدا حزبه إلى درجة الاستشهاد بتجربة الحزب الواحد في روسيا وتركيا وكلاهما دولتان لا ترضى جماعة الإخوان عن نهجهما[23].

وتستمر علامات الاستفهام وعلامات التعجب في التراكم. ولا نملك إلا أن نمضي مع رحلة الشيخ السياسي لنسجل ملاحظتنا.

فالبنا يقدم نفسه كحزب سياسي يريد السلطة.. بل ويؤكد أكثر من مرة أنه لن يسعى إلى السلطة وإنما السلطة هي التي ستسعى إليه « فنحن لا نسعى للحكم، ولكن هو الذي سيسعى إلينا فيما نعتقد.. وحينئذ نفكر في تحديد موقفنا منه.. أنقبله أم نرفضه! »[24]، لكنه مع ذلك لا يقدم أي برنامج سياسي، بل لعله قد تهرب كثيراً من تحديد أي موقف سياسي واضح من أية قضية قومية أو وطنية أو اجتماعية. وإذا ما سئل كأي زعيم سياسي عن برنامجه أجاب «نحن مسلمون وكفى، ومنهاجنا منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفى، وعقيدتنا مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وكفى»[25]. ثم هو لا يزيد الأمر تفصيلاً، فإذا أبدى البعض شكوكه حول إمكانية العمل السياسي دون برنامج سياسي.. اتهمه الشيخ بأنه

---

[21] حسن البنا مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي - ص٤١.

[22] حسن البنا، الرسائل الثلاث، ص١١٢.

[23] الإخوان المسلمون، ٢٢-٧-١٩٤٦. مقال لحسن البنا.

[24] المصور، ١ -٣- ١٩٤٦.

[25] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٥٣.

«مريض القلب، سيئ الظن، غير سليم القلب، فهو يطعن ويتجنى ويتلمس للبراءة العيب، وكلا الأمرين وبال على صاحبه وهلاك للمتصف به».

غير أن الأمر ليس بهذه السهولة.. إذ لا يمكن لرئيس جماعة سياسية أن يقتحم ميدان العمل السياسي معلناً أن الإسلام «طاعة وحكم ومصحف وسيف» دون أن يدفع الجميع إلى التساؤل من سيستعمل السيف؟ وضد من؟ ولعل التساؤلات بدت في محلها تماماً عندما استخدم السيف بالفعل أسلوباً في تعاملات الجماعة مع خصومها.

والإخوان لا ينكرون حقيقة أنهم جماعة سياسية بغير برنامج سياسي.

يجيب واحد من قادة الإخوان المسلمين ـ هنداوي دوير ـ في شهادة له أمام المحكمة.. رداً على سؤال المدعي: ألم تضعوا أبحاثاً عن كيفية الحكم بالإسلام؟ قائلاً «أيام الأستاذ البنا طلبت منه أن يكتب في هذا فقال لي.. أذكر بالضبط أنه قال لي أن إحنا شبعنا كتب وكتابات. وأن المكتبة الإسلامية مليئة، وأن مهمتنا مش إننا نعمل كتب بل مهمتنا إننا نعمل رجالة».

«ويعود المدعي ليسأله: يعني مفيش تحديد ولا نص؟

فيجيب: الواقع أن الإخوان لم يعدوا هذا الدستور. وأنا قلت لحضراتكم أنني قلت للأستاذ البنا إحنا عاوزينك تفضي شوية على أساس أنك تكتب لنا إيه اللي يطبقه الإخوان.. وأذكر أنه قال في مناسبة ما أن الناس يجتمعون على مبادئ لا على تفاصيل.. لأننا إذا دخلنا في التفاصيل فسنختلف ونتفرع ولا ننتهي إلى خير كثير.. وإن إحنا ماشيين على مبادئ إسلامية ولو تعرضنا للتفاصيل فيمكن يجئ فقيه ويختلف معنا وجايز نستهلك في مسائل فرعية»[٢٦].

ويؤكد قائد آخر من قواد الجماعة.. هذه الفكرة، ويؤكد أن انعدام البرنامج كان أمراً مقصوداً. يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد

---

[٢٦] محكمة الشعب ـ الجزء الأول. محاكمة محمود عبد اللطيف. المرجع السابق. شهادة هنداوي دوير، ص ٦٣.

العام في شهادته أمام محكمة الشعب خلال محاكمة الأستاذ المرشد حسن الهضيبي:

« ـ وكيل النائب العام: هل لجمعية الإخوان برنامج لنظام الحكم؟

ـ الشاهد: ليس لجمعية الإخوان برنامج مفصل لنظام الحكم.

ـ وكيل النائب العام: على أي أساس تقوم دعوتهم؟

ـ الشاهد: الجمعية أو الهيئة تنادي بالدعوة الإسلامية، وتدعو إلى الفكرة العامة الإسلامية، الفكرة الإسلامية كفكرة عامة، ولا تضع نظاماً أو نظام محدد دقيق يسمى نظام الحكم الإسلامي. ولكنها ترسم خطوطاً عريضة إذا تحققت وجد نظام الحكم الإسلامي، ويمكن أن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقى كلها إسلامية، إذا كان متوفر فيها الشروط العامة التي يضعها الإسلام. أما اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامي فهذه فكرة دقيقة، وهذا هو ربما من الأسباب التي دعت الجمعية بألا ترسم صورة وتفرضها بتسميتها أنها نظام الحكم الإسلامي واكتفت ببيان الدعوة الإسلامية أو الأسس الإسلامية في الناحية السياسية مطالبة به في منحى الحياة العامة.

ـ وكيل النائب العام: ونظام الحكم في مصر هل يخالف الإسلام؟

ـ الشاهد: الإسلام يضع القواعد العامة، والحكم يبقى إسلامي إذا كان فيه شورى بأي صورة من الصور ومفيش صورة محددة. وما دام قائماً على العدالة ومسؤولية الحاكم عن أعماله الفردية هذه المعاني لو تتوافر يبقى نظام إسلامي.. وإذا استكمل الوضع الدستوري في الوضع الحالي أي لما يستكمل نظام الشورى بإعادة الحياة النيابية يبقى الوضع الإسلامي»[(٢٧)].

ونتوقف أمام أكثر من علامة استفهام ترد في شهادة عضو مكتب الإرشاد العام.

---

(٢٧) محكمة الشعب ـ الجزء السادس ـ المحاكمات التي تمت من ٢٢ إلى ٢٥ نوفمبر ١٩٥٤ ـ محاكمة حسن الهضيبي ـ شهادة منير الدلة. ص ١٢٠٨.

* لا نظام إسلامي واحد محدد بل «يمكن أن يوجد داخل هذه الخطوط عدة أنظمة تبقى كلها إسلامية»!.

«اختيار نظام معين وتسميته أنه نظام إسلامي فكرة دقيقة»!

* نظام الحكم الذي كان قائماً في مصر عام ١٩٥٤ نظام إسلامي فقط تنقصه «الشورى»!.

ولعله من حق الجماعة علينا أن نفحص هذه الأفكار فلقد تكون كلاماً أرسل من سجين رهن القيد، كما اعتاد الكثير من الإخوان أن يفعلوا في اعترافاتهم.. ولهذا فلعله من الضروري أن نتلمس حقيقة «النظام الإسلامي» الذي دعا الإخوان المسلمون إليه.

يقول الشيخ حسن البنا في رسالته الحاسمة إلى الزعماء المصريين في عام ١٩٣٨ والمعنونة «نحو النور»: «لابد من جديد في هذه الأمة، هذا الجديد هو تغيير النظم المرقعة المهلهلة التي لم تجن منها الأمة غير الانشقاق والفرقة.. هو تعديل الدستور المصري تعديلاً جوهرياً توحد فيه السلطات». ثم إذا به يتوعد بأنه ما لم يستجب الزعماء لمطلب توحيد السلطات هذا «فإذا أبوا فجاهدوهم به جهاداً كبيراً»[(٢٨)].

وفي رسالة المؤتمر الخامس يقول البنا «أن من نصوص الدستور المصري ما يراه الإخوان المسلمون مبهماً غامضاً يدع مجالاً واسعاً للتأويل والتفسير الذي تمليه الغايات والأهواء، فهي في حاجة إلى وضوح وإلى تحديد وبيان. هذه واحدة والثانية هي أن طريقة التنفيذ التي يطبق بها الدستور.. طريقة أثبتت التجارب فشلها وجنت منها الأمة الأضرار لا المنافع فهي في حاجة شديدة إلى تحرير وإلى تعديل يحقق المقصود ويفي بالغاية.. ولابد أن تكون فينا الشجاعة الكافية لمواجهة الإخطار وللعمل على تعديلها. أما الأمثلة التفصيلية والأدلة الوافية ووصف طرائق العلاج والإصلاح ففي رسالة خاصة إن شاء الله»[(٢٩)].

---

(٢٨) حسن البنا، نحو النور.

(٢٩) حسن البنا رسالة المؤتمر الخامس.

لكن البنا سرعان ما يتراجع خوفاً من أن يتهم بمناهضته للدستور فيقول «إن الدستور بروحه وأهدافه العامة لا يتناقض مع القرآن من حيث الشورى وتقرير سلطة الأمة وكفالة الحريات. وأن ما يحتاج إلى تعديل منه يمكن أن يعدل بالطريقة التي رسمها الدستور ذاته»[٣٠].

بل هو يواصل تراجعه.. إلى درجة تثير الدهشة «ما كان لجماعة الإخوان المسلمين أن تنكر الاحترام الواجب للدستور باعتباره نظام الحكم المقرر في مصر، ولا أن تحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده وحضهم على كراهيته، ما كان لها أن تفعل ذلك وهي جماعة مؤمنة مخلصة تعلم أن إهاجة العامة ثورة، وأن الثورة فتنة، وأن الفتنة في النار»[٣١].

لماذا كل هذه القعقعة إذن؟ ولماذا الحديث عن الجهاد وعن النظام الإسلامي وعن التغيير الجذري.. إذا كان النظام القائم سواء في عهد «جلالة الملك» فاروق (صديق الإخوان) أو في عهد جمال عبد الناصر (عدوهم) مقبول من جانبهم.. ولا ينكرون «الاحترام الواجب له، باعتباره نظام للحكم المقرر».

لقد خشي الشيخ البنا من التصادم مع السلطة وخشي من الثورة فأوقع نفسه بنفسه بين شقي الرحى، يريد ولا يريد، طالب بنظام إسلامي وبالجهاد بحد السيف من أجل تحقيقه، ثم يقبل ما هو قائم «ولا يحاول الطعن فيه أو إثارة الناس ضده».

والدهشة لم تتملكنا وحدنا من هذا الموقف المتناقض.. فالباحث الأمريكي ريتشاد ميتشل يعرب عن دهشته قائلاً «دعا البنا إلى النظام الإسلامي، لكنه استخدم هذا التعبير استخداماً مطاطاً وأحياناً عنى به الدولة الإسلامية، وعلى أية حال فقد قال البنا وأكد الهضيبي من بعده هما وعدد من كتاب الإخوان أن النظام الدستوري البرلماني القائم في مصر يمكنه

---

[٣٠] أنور الجندي، الإخوان المسلمون في ميزان الحق ـ ص٦٢.

[٣١] النذير ـ العدد ٣٣ ـ حسن البنا، مقال الإخوان المسلمون والدستور المصري.

إذا ما أدخلت عليه بعض إصلاحات، يمكنه أن يلبى المتطلبات السياسية للدولة الإسلامية. ويواصل ميتشل تعليقه قائلاً «وإذا كان هذا صحيحا فإن النشاط السياسي للإخوان المسلمين إنما يهدف إلى شيء آخر الإطاحة بالنظام القائم»[٣٢]. لكن باحثاً أمريكياً آخر يرى أن كل هذه الأقوال كانت مجرد ستار من الدخان يخفي سعى الإخوان للانقضاض على النظام، ذلك أن أحداً لا يختلف في أن النظام المطبق في مصر لا يجعل منها دولة إسلامية»[٣٣]. والأمر لا يقتصر فقط على الدستور وإنما يمتد أيضا إلى «القانون» فقد أكد الإخوان في أكثر من موضع وبلسان جهابذة من قادتهم أن القانون المطبق في مصر ـ باستثناء بعض النصوص ـ يتفق مع نصوص الشريعة ولا يتناقض مع مبادئ العامة[٣٤]. وقد أكد هذا الموقف بتفصيل واف وإسهاب الأستاذ حسن الهضيبي أثناء محاكمته عندما قال أنه عندما كان يطبق القانون المدني وهو قاض لم يكن يناقض الشريعة الإسلامية.

ويعود ريتشارد ميتشل إلى التساؤل ـ وهو محق تماماً ـ «إذا ما كان الأمر كذلك، فلماذا إذن إصرار الإخوان على تطبيق الشريعة الإسلامية؟»[٣٥].

وإذا كان البنا قد حاذر أشد الحذر من إبداء رأيه في التطبيق التفصيلي للشريعة الإسلامية حرصاً على ألا يؤدي بخوضه في هذا الأمر إلى الفرقة والخلاف.. أو إلى التصادم مع النظام القائم أو حتى القول باحتمال هذا التصادم.. فإن بعض أتباعه من قادة حركة الإخوان ومفكريها قد حاولوا من التناقض القائم بين الشريعة الإسلامية وبين النظام القائم ولكن لصالح هذا النظام وتبريراً له.. فالمذاهب هي مجرد اجتهادات، وهي ذات قيمة

---

(32) Mitchell- op .cit .P .236.

(33) Safran - op .cit .p .290.

(٣٤) راجع لمزيد من التفصيل: عبد القادر عودة، الإسلام بين أبنائه وعجز زعمائه (١٩٥٢) ص٢٣.

(٣٥) لمزيد من التفاصيل راجع: الإخوان المسلمون، ٢٩ـ ٧ـ ١٩٥٤. وأيضاً: محمد عبد الله السمان، الإسلام المصفى (١٩٥٤).

تاريخية في الماضي، وإرشادية في الحاضر، لكن المسلمين لهم كامل الحرية في التصرف في أمور دنياهم ووفقاً لظروفهم.

ويؤكد سيد قطب ـ كبير مفكري الإخوان بعد وفاة الشيخ البنا ـ أن السلطات الممنوحة لولي الأمر تعطيه حق التشريع مهتدياً بمسألتين: المصلحة المرسلة وسد الذرائع[٣٦]. ولابد لنا من أن نعيد ونكرر تساؤلنا.. فيم إذن كل الضجة عن العودة للنظام الإسلامي وعن جاهلية النظام الذي كان قائماً في الأربعينيات أو فيما بعدها.. إذا كان الإخوان المسلمون قادرون دوماً على التلون بأفكارهم ومبادئهم فهي تارة تتفق مع ما هو قائم، وتارة تطالب بإدخال تعديلات طفيفة عليه، وتارة ترفضه لأنه جاهلي وضلال، وكل ضلالة في النار، ولا مبرر ولا معيار لقفز الجماعة من موقف سوى المصلحة الآنية.. الأمر الذي يثير ريبة الباحث في مدى جدية الشعارات التي ترفعها الجماعة أو تدعو لها.

وحتى التعديلات التي طرحها الشيخ البنا على البناء الدستوري في ظل النظام الملكي لم تكن تتعدى «موضوع الشورى».. فما هو رأيه في الشورى؟ إنه يرى أن أهل الشورى يكونون إما من رجال الدين وإما من الرجال المتمرسين على القيادة مثل رؤساء العائلات والقبائل.. ولا تكون الانتخابات بمقبولة إلا إذا ما أسفرت عن اختيار أناس من هذين الصنفين[٣٧].

وهكذا يرتد الشيخ حسن البنا بتعديله المقترح إلى ما هو أسوأ من قانون الانتخابات المطبق ويعود به إلى المفاهيم الإقطاعية وشبه الإقطاعية المتخلفة والتي لا تثق في جمهور المواطنين الذين أكد الإسلام حقوقهم المتساوية مع الآخرين ـ سواسية كأسنان المشط ـ وإنما تركز ثقتها وطموحها في رؤوس العائلات الكبيرة وشيوخ القبائل.. الخ!.

---

(٣٦) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام.

(٣٧) حسن البنا، مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص٦٠.

وعند الإخوان المسلمين «فإن الشعب ليس حراً في اختيار نظام الحكم الذي يريد فالمواطنون معرضون للخطيئة ما لم يلزموا أنفسهم بحكومة تقوم على أسس دينية»[(٣٨)].

وليس هذا غريباً فأبو الأعلى المودودي يرفض الفكرة الديمقراطية من أساسها بل ويعتبر أن منح السلطة للجماهير وحتى للأغلبية المطلقة من هذه الجماهير هو مفسدة ومروق.. ولنتابع كلمات الفيلسوف المعتمد من جماعة الإخوان المسلمون «أن المبدأ الرئيسي للديمقراطية الجديدة أن الناس بيد أنفسهم حكمهم وتشريعهم، وإلى أنفسهم كل التصرف في القوانين، يضعونها كما يشاءون». وإذ يستنكر المودودي ذلك فإنه يوجه إهانته المباشرة لمجموع الشعب قائلاً «ومن البديهي أنه إذا كانت قوانين الحياة الجماعية كلها تابعة للرأي العام وكانت الحكومة كالعبد لإله هذه الديمقراطية الجديدة، فلا يمكن لسلطات القانون والسياسة أن تصون المجتمع عن الانحلال الخلقي، وماذا أقول بل هي تعود بنفسها عوناً على إفساد المجتمع ودفعه إلى المهالك.

ولا يكون للحق والخير والصلاح مقياس غير كثرة الأصوات بحق هذا الجانب أو ذاك. وأن اقتراحاً مهما بلغ خبثه وضرره أن كان قد نال من رضى العامة ما يكسبه ٥١ صوتاً في المائة فلا شيء يمنعه من أن يسمو إلى مرتبة الشرع»[(٣٩)].

ولا نملك سوى علامة استفهام أخرى؟.

و«النذير» الذي اقتحم الميدان شاهراً سيفه، يواصل تراجعه خوفاً من أي تصادم. وفي بداية ١٩٤٥ يدعو البنا الجمعية العمومية للإخوان المسلمين ويقترح بنفسه إدخال تعديلات على قانون النظام الأساسي فيضاف إلى المادة الرابعة من الباب الثاني فقرة تقول: «يؤثر الإخوان دائماً التدرج

---

(38) **Khadduri- op .cit .P.79.**

(٣٩) أبو الأعلى المودودي، الحجاب. مؤسسة الرسالة (بيروت) ص٧٢.

والتطور والعمل المنتج والتعاون مع كل محب للخير والحق، ولا يريدون بأحد سوءاً مهما كان دينه أو جنسيته أو وطنه».

وفي عام ١٩٤٨ يخطو الرجل خطوة أخرى إلى الخلف إذ اقترح بنفسه تعديل المادة الثالثة من قانون النظام الأساسي بحيث أضاف إليها «يعتمد الإخوان في تحقيق أغراضهم على وسائل الدعوة والتربية والتوجيه والعمل وكل وسيلة أخرى مشروعة»[٤٠].

ولابد من وقفة تأمل.. فهل كان التراجع حقيقياً؟ أم أن الشيخ كان يطبق مبدأ «الحرب خدعة» وأنه في الوقت الذي كان يسلح فيه جيشه السري الخاص بالقنابل والديناميت والمدافع ويستعد به لأكبر حملة إرهاب شهدها تاريخ مصر الحديث كان يحاول أن يبث الطمأنينة في قلوب خصومه؟.. إذا جاز لنا الترجيح فإننا نرجح الاحتمال الأخير.

ونعود مرة أخرى نحاول أن نبحث في موضوع البرنامج المفتقد.

الشيخ يعد ويعد بأنه سيقدم برنامجاً ولا يفي بوعده، وقد قرأنا له في صفحات سابقة أكثر من وعد لم يف به.. وها هو وعد آخر، ففي رسالته «إلى أي شيء ندعو الناس» أشار المرشد إلى قضايا العصر قائلاً أن العالمية والقومية والاشتراكية والرأسمالية والبلشفية والحرب وتوزيع الثروة والصلة بين المالك والمستهلك كلها خاض فيها الإسلام. ثم عاد الشيخ فقال «إن المقام لا يسمح بالتفصيل بأن الأمر يحتاج لجولات وعد أن يفصل فيها القول»[٤١].. ولم يف البنا بوعده أبداً «ذلك أن البنا كان دائماً غامضاً في حديثه عن الاقتراحات التفصيلية والمتعلقة بالحكومة الإسلامية، وأنه لم يحدث مطلقاً أن شرح نواياه بوضوح»[٤٢].

---

(٤٠) السيد محمد عشماوي، المرجع السابق، ص٢٠٥.

(٤١) حسن البنا، إلى أي شيء ندعو الناس.

(42) Harris - op .cit .p .162.

ولا يبقى أمام الباحث الراغب في الوصول إلى الحقيقة، المصمم على فك طلاسم الغموض المفتعل سوى أن ينبش في المواقف العملية.. بحثاً عن البرنامج الفعلي الذي اختاره البنا بنفسه. فإذا كان البرنامج كوثيقة سياسية لم يكتب أبداً بواسطة الشيخ فإن مجموع خطواته العملية يشكل برنامجه الفعلي.

فلنسر خطوة خطوة مع الشيخ نتأمل تصرفاته ومواقفه من الأحداث والطبقات والقضايا لعلنا نفهم حقيقة برنامجه الذي أراد وعن عمد وإصرار أن يخفيه.

إن الشيخ البنا ينصح أتباعه قائلاً «اشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بالفكرة الصحيحة»[٤٣]، أي إنه يتعمد ألا ينقد ما في أفكار الغير من خطأ وإنما ينقدها من خلال تقديم بديل.

فما هو البديل الذي قدمه الشيخ البنا؟

نفياً لدستور ١٩٢٣ نادى الإخوان «القرآن دستورنا».

ونفياً للزعامات السياسية (النحاس باشا أساساً) نادوا «الرسول زعيمنا». ونفياً للمصرية والنضال المصري رفعوا أعلام «الخلافة الإسلامية».

ونفياً للنضال المشترك مع الشعوب الأخرى ينادي البنا «أن الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب وتلك الأيام نداولها بين الناس»[٤٤].

ونفياً لأي نضال اجتماعي ضد ثراء الأثرياء الرأسماليين يقول الشيخ البنا «أما موقف الإسلام من الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال، فليس بيننا وبينهم إلا أداء الزكاة»[٤٥].

---

[٤٣] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص١١٥.

[٤٤] أنور الجندي، الإخوان المسلمون في ميزان الحق - ص٢٨.

[٤٥] طارق البشري، المرجع السابق ص٦٩.

وفي مجابهة المؤامرات الاستعمارية الصهيونية ضد فلسطين والعرب حرف الإخوان المعركة وهي في أوجها إلى معركة بين مسلمين ويهود.. وشنوا هجماتهم ضد اليهود المصريين وكأنهم يحضونهم حضاً على الهجرة إلى إسرائيل[٤٦].

وهكذا الموقف مقابل الموقف.. ونترك الحكم بين الموقفين لغيرنا. لكن الشيء الأساسي في بلد شبه مستعمر كمصر الأربعينيات كان الموقف من القضية الوطنية. وهنا نجد أن الإخوان قد اتخذوا موقفاً «مرناً» للغاية إذا جاز لنا التحرج من استخدام ألفاظ أخرى.

فالتعمية تسود هنا أيضاً.. فالاستعمار (من حيث المبدأ) ليس سوى هجمة «صليبية». وهنا يفرغ النضال ضده من المفاهيم الوطنية والقومية والاقتصادية والاجتماعية ويصب فقط في طاحونة العداء الديني.. الذي يفرق بين المسلمين والمسيحيين من أبناء الوطن الواحد.

ولقد أثار الكثيرون من خصوم الإخوان قصصاً عن علاقات مستمرة بين المرشد (البنا ثم الهضيبي) والسفارة البريطانية.. ولسنا نريد أن نزج بأنفسنا في مجال ترديد تهم بغير أدلة.. لكن أحد الباحثين المقبولين من جانب الإخوان ـ والذي أفردت مجلة الدعوة مؤخراً صفحات كاملة لتقريظه ـ وهو الباحث الأمريكي ميتشل يقول «بعد الإفراج عن البنا في أكتوبر» «تشرين الأول ١٩٤١ قامت اتصالات بين السفارة البريطانية والإخوان المسلمين ولا أحد يعلم من قام بهذا الاتصال ولا متى تم»[٤٧]. لكن الإخوان أنفسهم يعترفون بهذا الاتصال ويبررونه بأن الاتصال قد تم بناء على طلب الإنجليز الذين خشوا من التقارب بين الإخوان والقصر! وتمضي جريدة الإخوان المسلمين قائلة دون إحساس بأي حرج أنه بعد مناقشة أفكار وبرنامج

---

[٤٦] لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد ـ اليسار المصري والقضية الفلسطينية ـ دار الفارابي بيروت .

[47] Mitchell- op .cit .P .28.

الجماعة أبدى الطرف الإنجليزي استعداد السفارة البريطانية لتقديم مساعدة مالية للجماعة لمساعدتها على أداء رسالتها وتؤكد الجريدة أن البنا قد رفض ذلك(٤٨).

لكن باحثاً آخر (Dunne Heyworth) ويؤكد استناداً إلى ما أسماه مصدر اخواني كان على علاقة بالسفارة البريطانية أن حسن البنا قد ألمح خلال الاتصالات ومن خلال عناصر وسيطة «أنه على استعداد للتعاون، وأنه سيكون ممتناً لو أن مساعدة مالية قد قدمت له» ويعود الباحث إلى التأكيد بأن مساعدات كبيرة قد قدمت لجريدة الجماعة وخاصة في غضون عام ١٩٤٧ وأن أحمد السكري كان معنياً بهذا الأمر وأنه قد طلب في إحدى المرات أربعين ألف دولار وسيارة كمقابل لمساعدة الجماعة للمخطط البريطاني(٤٩). ويشير باحث ثالث إلى موقف الإخوان من أحداث عام ١٩٤٢ وكيف أنهم تخلوا عن مواقفهم القريبة من المحور ورفضوا الاشتراك في المظاهرات التي هتفت «إلى الأمام يا روميل» ويؤكد بعد ذلك أن «المساعدة المالية كانت قد قدمت وقبلت»(٥٠). وكعادتنا في هذا البحث فإننا لا نريد أن نمسك إلا بما هو ملموس ومؤكد، فلنأخذ بما هو متيقن منه. المؤكد أن الشيخ البنا قد اعترف أكثر من مرة كتابة أن جهات متعددة قد عرضت عليه أموالاً لمساعدته على تنفيذ «برنامجه».. أكد أن الطاغية إسماعيل صدقي قدم هذا العرض، وأكد أن السفارة البريطانية قدمت العرض.. وأكد أنه قد رفض العرضين.

حسناً.. ولنأخذه بأقواله، ولنفترض أن العرضين قد رفضا.. لكن يبقى السؤال المحير هو لماذا يتحمس طاغية كإسماعيل صدقي وسفارة تمثل

---

(٤٨) راجع في تحقيق هذه الواقعة: حسن البنا نظام الأسر نشأته واهدافه. وأيضا الإخوان المسلمون ٣١ - ٧ -١٩٤٦. وأ يضا الدعوة ٢٩ - ٥ - ١٩٥٤.

(49) Heyworth - Dunne - op .cit .p.pp .38 - 41.

(50) Boehm, Les Freres Musulmans - pp.200 - 218.

الاحتلال الكريه إلى قلب كل مصري وكل مؤمن لتقديم معونات مالية للإخوان المسلمين لمساعدتهم على تنفيذ «برنامجهم»؟.

أي برنامج هذا؟ وما مدى انطباقه على مصالح الإسلام والمسلمين ومصر والمصريين! مجرد تساؤل نتركه بغير رد.

لكن الوقائع الملموسة، والمواقف العملية لجماعة الإخوان المسلمين تؤكد أنه لا صدقي ولا السفارة الإنجليزية كانوا سذجاً عندما قدموا عروضهم.

فعندما بدأ الطاغية صدقي رحلة خيانته عام ١٩٤٦، وعندما وقف الشعب المصري كله ضده.. كان الإخوان يؤكدون في كل مكان تأييدهم لصدقي.. ومستخدمين دون حرجٍ الآية الكريمة «واذكر في الكتاب إسماعيلا أنه كان صادق الوعد وكان صديقاً نبياً».

وعندما خطى صدقي خطوة جديدة على طريق الخيانة الوطنية وبدأ مفاوضاته حول المعاهدة التي استحقت لعنات الشعب المصري كله (معاهدة صدقي ـ بيفن) أيده الإخوان واستخدموا واقعة «صلح الحديبية» في تبرير تصرفاته[٥١].

ويروى شاهد عيان معروف بحياده ودقته ـ وهو صلاح الشاهد ـ ما يؤكد ذلك فيقول أن صدقي عندما توصل إلى اتفاقية صدقي ـ بيفن «توهم أن الإخوان المسلمين قاعدة شعبية ذات وزن فاستدعى المرشد العام بعد وصوله من لندن بساعتين، وأطلعه على مشروع الاتفاقية قبل أن يطلع عليه النقراشي وهيكل المشاركين له في الحكم، وحصل على موافقته على المشروع.. ولما اشتدت المظاهرات الشعبية ضد هذه المعاهدة طلب صدقي باشا من المرشد العام أن يركب سيارة سليم زكي باشا مساعد الحكمدار المكشوفة ليعمل على تهدئه الجماهير واستجاب المرشد العام لطلب صدقي باشا»[٥٢]. ونتوقف أمام هذه الشهادة.

---

[٥١] محمد جلال، مصريون لا طوائف ـ النيل للطباعة ـ القاهرة (١٩٥١) ص٦١.

[٥٢] صلاح الشاهد، ذكرياتي في عهدين ـ دار المعارف ـ القاهرة (١٩٧٦) ص٤٨.

ـ أية علاقة هذه التي تربط بين الطاغية الخائن صدقي وبين المرشد العام، والتي تجعل المرشد أقرب إليه من شركائه في الحكم.. النقراشي وهيكل.

ـ أن البنا قد وافق على المعاهدة التي رفضتها مصر كلها والتي لم تزل وحتى الآن رمزاً للخيانة الوطنية والتفريط في حقوق الوطن.

ـ أن المرشد قد سمح لنفسه بأن يركب سيارة البوليس ليعمل على تهدئة المتظاهرين المعارضين لاتفاقية الخيانة.

أما واقعة ركوب المرشد لسيارة سليم زكي فهي مؤكدة وصوره تملأ صحف تلك الأيام.. أما الواقعتان الأوليان فقد أوردناهما.. على مسؤولية «الشاهد».

لكن الملاحظ أن شهر العسل لم يدم طويلاً.. وأن الإخوان قد حاولوا التوجه نحو أمريكا. وكتاب الزعيم الإخواني مصطفى مؤمن «صوت مصر» ملئ بالوقائع والأدلة.. والتوجه نحو أمريكا «أيها الأمريكيون.. أنتم الشعب الحر.. وقواد الديمقراطية»[٥٣].

وعلى هذا المنوال يمضي الكتاب كله.

ولقد كان «شهر العسل» الإخواني ــ البريطاني مبرراً من الجانبين، فالإخوان لم يعتبروا أن النضال ضد الاحتلال البريطاني محور عملهم السياسي كأي حزب وطني آخر بل على العكس من ذلك كانوا حريصين دائماً على التأكيد بأن محور النضال هو الحكومة الإسلامية وليس إجلاء المستعمر.

يقول الباحث الوثيق الصلة بحركة الإخوان د. إسحاق موسى الحسيني «إن تحرير وادي النيل كله من النفوذ الأجنبي كان مطلباً يلي في الأهمية لدى الإخوان مطلب إقامة الحكومة الإسلامية»[٥٤].

---

[٥٣] مصطفى مؤمن، صوت مصر ـ ص٢٧١.

[٥٤] د. اسحق موسى الحسيني، المرجع السابق ص٩٤.

وبينما كانت مصر كلها تغلي بالنضال ضد الاستعمار، والمظاهرات تملأ الشوارع مطالبة بالجلاء، والجامعة تلتهب بالعمل الثوري ضد الاحتلال وعملائه نجد مؤتمر طلاب الإخوان ينحرف بالقضية كلها نحو ضرورة التركيز على «استرجاع الخلافة الضائعة»(٥٥).

وفي رسالة «نحو النور» يورد البنا ما أسماه بالموبقات العشر.. ويضع الاستعمار على رأسها ثم يورد خمسين مطلباً من المطالب العملية للدعوة تحت عنوان «بعض خطوات الإصلاح العملي» ولم يرد بها مطلب واحد يتعلق بالقضية الوطنية أو بالجلاء أو بالاستقلال أو بمقاومة الاستعمار، كل ما هناك عبارة تقول «تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعاً وبخاصة العربية منها تمهيداً للتفكير الجدي العملي في شأن الخلافة الضائعة»(٥٦). وفي العيد العاشر للجماعة (١٩٣٨) أكد حسن البنا أن الإخوان يعطون الأولوية لاسترداد الخلافة. وفي رسالته «إلى أي شيء ندعو الناس» تحدث البنا عن الوطن الإسلامي قائلاً أنه ما يسمو عن حدود الوطنية الجغرافية والوطنية الدموية إلى وطنية المبادئ(٥٧).

ولعل من حقنا أن نسأل هل كان الإخوان بكل ما علقوه من آمال على الملك الفاسد فاروق كما أكد البنا نفسه عندما قال «إن لنا في جلالة الملك المسلم أيده الله أملا»(٥٨) وبكل ما قام بينهم وبين القصر من علاقات سنشير إلى بعضها في صفحات قادمة.. هل كانوا وهم يتحدثون عن الخلافة الضائعة يلوحون بها للملك الفاسد؟.. أم أي خليفة آخر كانوا يريدون؟

وما يدفعنا لهذا السؤال هو إصرار الإخوان ومرشدهم على أن القضية المحورية كانت استعادة الخلافة، ولم يقولوا أي خليفة يريدون، بل ولم يسعوا إلى أي تغيير «داخلي» يمكن من قيام خليفة مسلم حقاً وصالح حقاً.

---

(٥٥) مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين، ص٤٠.

(٥٦) حسن البنا، نحو النور.

(٥٧) حسن البنا، إلى أى شيء ندعو الناس.

(٥٨) النذير ـ العدد الأول ـ مايو ١٩٣٨.

أما أن يترك «الداخل» كما هو.. بل يمتدح الملك ويصفق له ويحتفل بعيد ميلاده وعيد جلوسه احتفالات يسودها التملق.. ثم تكون المهمة الأولى استعادة الخلافة الضائعة، فهو أمر يثير الدهشة.. ولا يمنحنا الفرصة لأية إجابة أخرى.

وإذا كان شعار «الخلافة الإسلامية» يوضع في مجابهة «الوطنية» ويتخطاه في الأولوية لدى الإخوان، فقد وضعوه أيضاً في مجابهة القومية العربية. يقول أبو الحسن الندوي «وظل هذا الصفاء قائماً ودامت هذه الثقة لا يضعفها شيء ما دام العرب مخلصين للإسلام متجردين له.. لا يعدلون بالقومية الإسلامية قومية وبرسالة الإسلام والدعوة إليه رسالة ودعوة، ولا يتحمسون لغير الإسلام. فلما تغيرت أخلاقهم في العهد الأخير، وقامت فيهم الدعوة إلى القومية العربية وتبنوا واحتضنوا دعوات أخرى وتحمسوا لها تزعزعت ثقة الشعوب غير العربية بهم، وتغيرت نظرتها ونظرة العالم إليهم»[٥٩].

ويسير حسن البنا على نفس النهج فهو يقبل العروبة «كرابطة حضارية وليس كقومية» وهو يرى في العروبة «وحدة روحية بسريان الإسلام في عنق أبنائها جميعاً»[٦٠].

وحتى القضية الفلسطينية كانت الجماعة تنظر إليها بمنظار ديني وليس بمنظار قومي. يقول طارق البشري «وقد استطاعت حركة الإخوان المسلمين أن تخاطب هذا الجانب في المصريين وأن تمتص رد الفعل المعادي للصهيونية لصالحها، لا باعتبار أن المعركة بين الصهيونية والحركة الوطنية العربية، ولكن باعتبارها معركة بين اليهود والإسلام، وأحيت بهذا ما كان قد انحسم من قضايا الخلافة والجامعة وبنت لنفسها باسم الدين

---

[٥٩] أبو الحسن الندوي، كيف دخل العرب التاريخ؟- الطبعة الثانية - المختار الإسلامي ١٩٧٥ - ص٢٠.

[٦٠] أنيس صايغ، الفكرة العربية في مصر- ص٢٠٠.

ركيزة في مواجهة الحركة الوطنية، وأثارت ثنائية مفتعلة في حياة مصر السياسية.. ثنائية الدين والوطن»[٦١].

أما موقف الإخوان من قضايا العالم والسياسة الخارجية فقد كان مثيراً للدهشة إذ يقول ميتشل أنهم كانوا يرون في استمرار الحرب الباردة عنصراً مفيداً للإسلام والأمة الإسلامية إذ يتيح لها الفرصة في الوساطة بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي[٦٢]. ويثير الدهشة أيضاً ما كتبه سيد قطب أحد قادة الإخوان من أن المسلمين بحاجة مؤقتا إلى المعسكر الشيوعي ليخيفوا به الطغاة والمستغلين[٦٣].

ولنمض مع الجماعة والشيخ مرة أخرى محاولين أن نستشف «البرنامج» من خضم التعاملات والمواقف اليومية. وإذ استخلصنا مجمل مواقف الإخوان من القضية الوطنية والقومية العربية.. بما يحدد «نهجهم» و«برنامجهم» في هذا الصدد فلنتجه إلى المشكلات الداخلية لمصر.. وإلى القضايا الاجتماعية الملحة.

وإذا كان الشيخ البنا قد أورد في مأثوراته مجموعات بين الأدعية ليرددها الإخوان منها «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[٦٤] فقد رأينا كيف انتهى الأمر بأن كل ما هو مطلوب من الرأسماليين هو أداء الزكاة.

وفي «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» يطالب حسن البنا «بإحلال رأس المال المحلي محل رأس المال الأجنبي» وهي خطوة لا بأس بها، لكنها كانت أيضاً مطلباً للرأسماليين الذين يريدون الانفراد بالسوق.. وعندما يناقش المشكلة الزراعية يطالب بتحديد حد أقصى للملكية الزراعية (لا

---

(٦١) طارق البشري، المرجع السابق ص٢٥١.

(62) Mitchell- op .cit .P .271.

(٦٣) سيد قطب، السلام العالمي والإسلام (١٩٥١) ص١٦٧.

(٦٤) حسن البنا (الإمام الشهيد)، المأثورات ـ الطبعة الثانية ـ دار الشباب (١٩٧٥) ص٣٤.

يورد هذا الحد) على أن يقوم الملاك «ببيع» ما يزيد عن هـذا الحـد بأسـعار معقولة ومقسطة على آماد طويلة لفقراء ومعدمي الفلاحين[٦٥].

ولا بأس بهذا أيضاً لكننا نلاحظ تخلفه حتى عن النظـرات الإصلاحيـة الـتي كـانت سـائدة في صفـوف كبـار المـلاك في مصـر الأربعينيـات مثـل مشروعات مريت غالي ومحمد خطاب. ولعل الجماعة لم تحتمل حتى مثـل هذه المواقف المتواضعة، فإذا بها عندما يحين الجد وتبدأ ثورة يوليو ١٩٥٢ في تطبيق إصلاحها الزراعي تتراجع عن موقفهـا القديـم وتقـدم مقترحـات أكثر تخلفاً.

ويلاحظ أحد الباحثين أن «ثمة تناقضاً يحكم الفكر الاقتصادي للبنا فهو يسمح للأفراد بامتلاك واستغلال الثروة (رأس المـال) لكنـه في نفـس الوقـت يحرم الفائدة» ذلك أن البنا «يرى أن الفائدة مثلها مثل الربا محرمة كما هي محرمة في روسيا»[٦٦].

ولنأت الآن إلى نقطة جديدة.. ما هو موقـف البنـا مـن الطبقـة العاملـة ومشاكلها وصراعاتها؟ وللوهلة الأولى يلاحـظ البـاحث في أدبيـات الإخـوان عبارات لغوية مؤثرة مثل: وفد على دار المركز العام كثير من العمال ينزفون سخين الدمع ويعرضـون مـا يقاسـون.. إن أحوالهـم تفتـت الأكبـاد وتدمـي القلوب[٦٧]، ولكنه يلاحظ أيضـاً أن الشـيخ البنـا يقـول في محـاضرة أعدهـا لقسم العمال بالجماعة أن على العمال أن يتذكروا دومـاً واجبهـم نحـو «الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل»[٦٨].

والحقيقة أن قسم العمال في الجماعة قد نشط نشاطاً واسعاً وحاول إقامـة نقابات عمالية تستوحي أفكار ومبادئ الجماعة. وفي منتصـف الأربعينيـات

---

[٦٥] حسن البنا، مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي ص٨٣.

[66] Khadduri- op .cit .P.271.

[٦٧] الإخوان المسلمون، ٧-٥-١٩٤٦.

[٦٨] الإخوان المسلمون، ٢٤-٨-١٩٦٤.

أثمرت هذه الجهود نفوذاً ملحوظاً في صفوف عمال النقل، وتنشر جريدة الإخوان أن عمال النقل قد قرروا تأسيس نقابة تعمل «على هدى رسالة الإخوان المسلمين»[٦٩]. وكان للجماعة بعض النفوذ في صفوف عمال البترول بالسويس وعمال النسيج[٧٠].

وبرغم أن نفوذ الإخوان وسط الطبقة العاملة لم يكن كبيراً إلا أنه من المفيد أن نلقي بعض الضوء على كيفية توجيه الشيخ والجماعة للعمال الأخوانيين.

إن أي دارس لتاريخ الحركة العمالية المصرية يكتشف على الفور حقيقة هذا الدور.. وهو أن الإخوان وعمالهم كانوا في جبهة خصوم حركة الطبقة العاملة.

فقط قاوموا حق «الإضراب» الذي كان سلاح العمال الوحيد في ظل مجتمع يخيم عليه استغلال رأسمالي بشع وحكم عميل ذلك أنهم اعتبروا أن الامتناع عن العمل والإضراب «هو أمر مخل بروابط الإخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم»[٧١][٧٢].

وفي شبرا الخيمة حيث نظم العمال إضرابهم الكبير الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ النضال العمالي ناور العمال الإخوانيون فشاركوا في الإضراب بهدف تخريبه من الداخل فلما فشلوا انسحبوا منه وحاولت جريدة الإخوان، أن تبرر ذلك قائلة «لابد للعامل في هذه المنطقة (شبرا الخيمة) من سلاحين هما قوة الإيمان وحسن الخلق فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل على الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هي أنجح الوسائل».. وإذ

---

(٦٩) الإخوان المسلمون، ١٩-٦-١٩٤٦.

(70) **Wandley, William .J .The Iabour movement in Egypt - Middle East Journal iii (July 1949) p .277.**

(٧١) أمين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة المصرية ص١٧٦.

(٧٢) الإخوان المسلمون، ٢٠-٦-١٩٤٦.

يدهش البعض من إقحام الإيمان والخلق كأسلحة وحيدة للعمال في معركتهم ضد الرأسمالية تبرر الجريدة ذلك وتحذر من خطر اليسار «الإخلاص هو العلاج الحاسم.. فكتابنا بيميننا وكتابهم بشمالهم». ومن الانسحاب من الإضراب إلى تخريبه إلى إبلاغ البوليس عن قيادته، الأمر الذي دفع القيادات العمالية من الوفديين والشيوعيين إلى توجيه حملات إعلامية ضد جماعة الإخوان متهمين إياها «بالعمل في خدمة الرأسماليين والمستغلين وفي خدمة الطاغية صدقي وحكومات الأقلية»(٧٣).

والحقيقة أن موضوع قيام الإخوان (عمالاً وغير عمال) بإبلاغ السلطات عن نشاط القوى المعادية لهم والتجسس عليها قد تردد بكثرة، بل وقد اعترف به الإخوان أنفسهم.

يقول أحد قادة الإخوان ـ صلاح الدين علي أبو الخير ـ في شهادته أمام محكمة الشعب «أن قسم الأخبار في الجماعة كان يقوم بجمع الأخبار المهمة التي تهم الجماعة.. وبرضه نشوف أي حاجة أفرض فيه خلية شيوعية مثلاً.. وأنا أعرف أن الإخوان ضبطوا عدة خلايا»(٧٤)، ولكن جهودهم في هذا الصدد قد تركزت في مجال النشاط العمالي حيث كانت أعين واهتمامات أجهزة الأمن والسراي وكل القوى الرجعية مركزة أيضاً(٧٥).. الأمر الذي أضر بنشاط الإخوان في صفوف العمال ضرراً بليغاً ووصل به قرابة عام ١٩٤٨ إلى ما يشبه التصفية(٧٦).

---

(73) **Boehm - op.cit .pp .218 - 220.**

وأيضاً:أنور عبد الملك ـ مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون ـ دار الطليعة ـ بيروت (١٩٦٤) ص٣٢.

(٧٤) محكمة الشعب الجزء الثاني المرجع السابق، ص٢٩.

(٧٥) لمزيد من التفاصيل راجع:

Badaoui, Zaki, Les problemes du Travail et les organisations Ouvriers.

(76) **Mitchell- op .cit .P .282.**

كذلك كان تناول الإخوان القضايا الملحة بالنسبة للعمال تناولاً شديد التخلف.. فبعد الحرب العالمية الثانية وعندما وصل عدد العمال المتعطلين إلى بضعة مئات من الألوف شكل قسم العمال بالإخوان لجنة خاصة أسميت «لجنة شؤون المتعطلين».

درست الأمر ثم قدمت عدة مقترحات غريبة، كان الأغرب منها أن تتبناها صحف الجماعة وتروج لها.

وتتلخص المقترحات في إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم أبان الحروب للعمل في المدن.. إلى موطنهم الأصلي[77]! ثم العمل على حصر الموسرين «في كل منطقة وتأسيس شركات مساهمة لإنشاء مصانع على أن يقتطع من أجور العمال مبالغ تحول إلى أسهم بأسمائهم»[78] وقد حاول الإخوان تنفيذ مشروع كهذا في شبرا الخيمة لم يكتب له النجاح.

ولابد لنا من الإشارة إلى أن شركات ومزارع ومصانع ومشاغل ومحاجر ومناجم ومؤسسات جماعة الإخوان المسلمين كانت تهدف من بين ما تهدف إلى إقامة نقاط ارتكاز وجذب للعمال المشتغلين فيها.

ومن الطريف أن حق المرأة في العمل قد علق البحث فيه من وجهة نظر الجماعة على «حل مشكلة البطالة عند الرجل».

.. وأخيراً لقد رفض البنا أن يكتب برنامجاً لجماعته، لكنه — في واقع الأمر - ومن خلال الممارسات العملية صاغ برنامجه.. وهو — في اعتقادنا مليء بما يستوجب النقد، وربما ما هو أكثر من الانتقاد.

---

[77] الإخوان المسلمون، ١٨- ٨ - ١٩٤٦.

[78] الإخوان المسلمون، ١٢- ٧- ١٩٤٦.

الانتماء لمن..؟

.. «فاعلم فقهك الله ـ أولا أن دعوى الإخوان المسلمين دعوة عامة، لا تنتسب إلى طائفة خاصة ولا تنحاز إلى رأى عرف عند الناس بلون خاص، ومستلزمات وتوابع خاصة، وهي تتوجه إلى صميم الدين ولبه، وتود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم حتى يكون العمل أجدى والإنتاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملوثة بلون، وهي مع الحق أينما كان، تحب الإجماع وتكره الشذوذ، وأن أعظم ما مني به المسلمون الفرقة والخلاف وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، هذه قاعدة أساسية وهدف معلوم لكل أخ مسلم وعقيدة راسخة في نفوسنا، نصدر عنها وندعو إليها»[1].

وهو يقول أيضاً «لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هي سيئة هذا الوطن الكبرى، وهي أساس الفساد الاجتماعي الذي نصطلي بناره الآن.. وبما أن الأحزاب هي التي تقدم الشيوخ والنواب وهي التي تسير دفة الحكم في الحياة النيابية، فإن من البديهي ألا يستقيم أمر الحكم، وهذه حال من يسيرون دفته.. وإذا كان الأمر كذلك فلا ندري ما الذي يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد المناضل الكريم هذه الشيع والطوائف من الناس التي تسمى نفسها الأحزاب السياسية. إن الأمر خطير.. ولا مناص بعد الآن من أن تحل هذه الأحزاب جميعاً»[2].

وهو يقول كذلك «أحب أن أقول لإخواننا من دعاة الأحزاب ورجالها: أن اليوم الذي يستخدم فيه الإخوان المسلمون لغير فكرتهم الإسلامية البحتة لم يجئ بعد ولن يجئ أبداً وإن الإخوان لا يضمرون لحزب من الأحزاب أياً كان خصومة خاصة به، ولكنهم يعتقدون من قرارة نفوسهم أن مصر لا يصلحها ولا ينقذها إلا أن تحل الأحزاب كلها وتتألف هيئة وطنية عاملة

---

[1] حسن البنا الرسائل الثلاث، دعوتنا ـ ص ٢٦.

[2] حسن البنا مشكلاتنا في ضوء الإسلام ـ ص ٥٨.

تقود الأمة إلى الفوز وفق تعليم القرآن الكريم. وبهذه المناسبة أقول أن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب، ويعتقدون أنها مسكن لا علاج.. والعلاج الحاسم الناجع أن تزول هذه الأحزاب مشكورة، فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التي أوجدتها، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون»[٣].

هكذا تحدث حسن البنا.. لكن الكلمات شيء والأفعال شيء آخر..

فالدعوة توجهت نحو القصر الملكي تدعمه وتشد أزره وتحاول جاهدة ودون جدوى أن تزين وجه الملك الفاسد. والهجوم على الحزبية والأحزاب سرعان ما أسفر عن تحالف مع أكثر القوى رجعية في المجتمع المصري.. محور علي ماهر ـ المراغي لفترة ومع إسماعيل صدقي لفترة أخرى.. ثم مع أحزاب الأقليات لفترة ثالثة.

ولكن.. أليس من الأفضل أن نسير مع التحالفات السياسية للشيخ خطوة خطوة؟.. وأليس من الأفضل أن نلقي بقعة صغيرة من الضوء على واحد من أقرب وأهم حلفائه ـ علي ماهر باشا ـ تحدد لنا موقعه وموقع الحلف معه.. من قضية الوطن وقضية الإسلام؟. فقط أردنا بإيراد كلمات الشيخ السابقة أن نضعها في مجابهة مواقفه العملية.. ونزن بعد ذلك مدى الصدق في الكلمات.. والمواقف.

* * *

توفي الملك فؤاد، وأتى لحكم مصر شاب صغير السن، بلا خبرة ولا تجارب ولا قدرات ونجح في أن يسيطر عليه واحد من أعتى السياسيين المصريين وأكثرهم طموحاً وذاتية.

على ماهر:

* الذي يقول عنه دافيد كيلي رجل المخابرات البريطانية العتيد ومستشار دار المندوب السامي البريطاني في مذكراته: «وقع فاروق في مرحلة

---

[٣] حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس ـ ص ٥٦.

مبكرة من عمره تحت نفوذ علي ماهر باشا الذي أصبح صاحب النفوذ الأول في السراي. وكان على ماهر رجلاً ذكياً جداً ولكنه كان طموحاً، وكان طموحه يستهلكه. ولهذا فقد وضع نصب عينيه على الفور أن يصب في الملك الجديد نفس الكراهية التي كانت تفيض بها نفس أبيه نحو الوفد»[٤].

* والذي يقول السفير البريطاني عنه في تقرير له إلى وزارة خارجيته:

«.. وعلى الرغم من أنه بقي الجانب الأكبر من عام ١٩٣٧ بعيداً عن المناصب الحكومية، فإن الملك فاروق كثيراً ما كان يستشيره بصفة غير رسمية، وكان علي ماهر قد حاز ثقة الملك من قبل، وهكذا فإنه بعمله داخل الكواليس استطاع أن يحقق لنفسه نفوذاً كبيراً على سياسة القصر»[٥].

* والذي يعترف هو نفسه أمام المحكمة أنه كان صديقاً للإنجليز وأنه كان «على ولاء تام لهم والمجاملات الشخصية كانت لأقصى الحدود..»[٦].

* وعندما تصاعد المد الفاشي.. وتصور البعض أن «الألمان قادمون» تهيأوا لاستقبال السيد الجديد. من هؤلاء كان علي ماهر.. يقول الدكتور الطيب الناصر في مذكراته، أن الكونت ماتزوليني آخر وزير مفوض لإيطاليا الفاشية في مصر أبلغه أنه «اتفق شخصياً مع علي ماهر على أن تثور مصر على الإنجليز في الوقت المناسب لتمهيد السبيل لجيوش المحور»[٧].

* وتنفيذاً لهذا المخطط وفي أعقاب الهجوم العنيف الذي قادة الجنرال روميل باتجاه مصر واستولى على بني غازي يوم ٢٩ يناير ١٩٤٢، هاجت في مصر مظاهرات أغلبها من الأزهريين (أتباع الشيخ المراغي حليف علي ماهر الحميم) تهتف «إلى الأمام يا روميل» وتهتف أيضاً «علي ماهر رجل الساعة».

---

[٤] نقلاً عن: محمد عودة، سبعة باشوات وصور أخرى ـ الكاتب الذهبي ـ ص١٥٤.

[٥] الأهرام، ٢٠ـ ٢ـ ١٩٧٠. موضوع: رأى السفير البريطاني منذ ٣٠ سنة في ١٥٠ سياسياً مصرياً.

[٦] ملف قضية الاغتيالات السياسية ـ شهادة على ماهر باشا.

[٧] روز اليوسف، ٢٣ـ ١ـ ١٩٥١. مذكرات الدكتور الطيب الناصر ـ ص٣٤.

* ويقول جورج كيرك «إن المخابرات البريطانية اكتشفت في الوثائق الألمانية أن علي ماهر كان يحصل على مبالغ مالية عن طريق بنك درسدنر»[8].

.. هذا هو علي ماهر الذي دخل الشيخ البنا السياسة من بابه الخاص والذي كان أول حليف سياسي لجماعة الإخوان المسلمين.. والذي قاد البنا بيديه نحو التبعية للسراي والملك والعداء للوفد والقوى الديمقراطية.

.. وهكذا كان علي ماهر باشا أول من وعى ـ من المسؤولين ـ نصيحة إسماعيل صدقي باشا بالتعاون مع الإخوان واستخدامهم.

وكانت البداية أثناء الاستعدادات لتولية الملك الشاب على العرش. فقد اقترح الأمير محمد علي إقامة حفل ديني تتم فيه مراسيم تولية الملك. والحقيقة أن هذا الاقتراح لم يكن سوى جزء من المخطط الشامل لعلي ماهر والشيخ المراغي باحتواء الملك وتقديمه في صورة الملك الصالح المسلح بالدين في مواجهة الوفد المسلح بتأييد الشعب.. ورفض رئيس الوزراء مصطفى النحاس ذلك معلناً أن هذا «إقحام للدين فيما ليس من شؤونه وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية»[9]. ووقف النحاس أمام مجلس النواب يتحدى هذا المخطط قائلاً «الإسلام لا يعرف سلطة روحية، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده.. وليس أحرص مني، ولا من الحكومة التي أتشرف برئاستها على احترام وتنزيه الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا على الالتزام بأحكام الدستور، ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شيء آخر فهو مجال وطني يجب أن يتبارى فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين»[10].

---

(8) جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط ـ ترجمة عمر السكندري ـ ص٣٤.

(9) لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد: مصطفى النحاس، السياسي والزعيم والمناضل. دار القضايا بيروت (١٩٧٦) ص٧٦ وما بعدها.

(10) «المصري»، ٢٢- ٢- ١٩٣٧.

وهنا يبرز ـ ولأول مرة ـ الدور السياسي للشيخ حسن البنا ولجماعته.. والتوقيت هام للغاية لأنه كما يحدد المهمة.. يحدد إطارها وبواعثها ومحركيها.

يعقد الإخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع لهدف وحيد هو الاحتفال باعتلاء جلالة الملك العرش! ولأول مرة أيضاً تبرز في الميدان جوالة الإخوان المسلمين «لتلعب أول أدوارها الهامة كقوة للنظام والأمن»[11]. وبعد احتفالات طويلة ومليئة بالبهجة تجمع الإخوان عند بوابات عابدين هاتفين «نهبك بيعتنا وولاءنا على كتاب الله وسنة رسوله»[12].

وفي مناسبة أخرى.. وعندما اختلف النحاس باشا مع القصر، خرجت جماهير الوفد تهتف «الشعب مع النحاس» فسير الشيخ البنا رجاله يهتفون «الله مع الملك». وتباهى الإخوان كثيراً بأن الملك قد خرج في شرفة قصره ست مرات ليحيي مظاهرتهم هذه[13]. وتقول جريدة البلاغ «أن الملك كان بالغ السعادة بشعار الله مع الملك وكان يردد نعم الله معنا»[14].

والحقيقة أن البنا لم يكن جديداً على فكرة التقرب من العرش فهو يروي بنفسه أنه عندما حقق معه في عام ١٩٣٠، ثبت من التحقيق أنه كان يملي على طلبته في دروس الإملاء موضوعات يتوخى فيها الثناء على الملك فؤاد وتعداد مآثره، وأنه دفع العمال يوم زيارة الملك للمدينة إلى التجمع لتحيته «حتى يفهم الأجانب في هذا البلد أننا نحترم ملكنا ونحبه». ويمضي الشيخ البنا قائلاً أن أحد رجال البوليس كتب تقريراً بهذه المناسبة أشاد فيه بأثر الجماعة الروحي في تقويم من لم تنفع معهم وسائل التأديب البوليسية واقترح «أن تشجع الحكومة الجماعة وتعمل على تعميم فروعها في البلاد حتى يكون في ذلك أكبر خدمة للأمن والإصلاح(!)»[15].

---

(11) Khadduri- op .cit .P.16.

(١٢) حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية. ص٢٥٢.

(١٣) الأهرام، ٢٢-١٢- ١٩٣٧.

(١٤) البلاغ، ٢٢-١٢- ١٩٣٧.

(١٥) حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية ص٨٩.

وإذا لم يكن غريباً أن يكتب رجل البوليس ذلك عن جماعة الإخوان، فهل كان غريباً أن يتباهى به الشيخ كتابة وصراحة؟

وإذا لم تكن جوالة الإخوان وحشودها لتحية «الفاروق» وجده وإنما أيضاً لتحية علي ماهر. فعند عودته من مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في لندن (مارس ـ آذار ـ ١٩٣٩) لبحث قضية فلسطين كانت حشود الجوالة والإخوان في انتظاره هاتفة له[١٦].

لكن النحاس باشا كان يرى أن إقحام الإخوان المسلمين في السياسة. وتصاعد دعواهم في هذا الوقت بالذات، تعبير عن مؤامرة أوسع وأخطر، فهو يقول في خطاب في ٢ يوليو (تموز) ١٩٣٨:

«عامل آخر من عوامل الأزمة.. فلقد أراد أصحاب المؤامرة أن يجعلوها محبوكة الطرفين فتآمروا على استخدام الدين في الدعاية ضد الحكومة، وكان أن ظهرت بوادر هذا التآمر قبل سفرنا إلى مونترو لحضور مؤتمر إلغاء الامتيازات الأجنبية فقد قامت ضجة تنادي بأنه يجب جعل الشريعة الإسلامية أساساً للتشريع المصري وأن تطبق قواعدها تمام التطبيق، وأن يفصل بين الطلاب والطالبات في الجامعة. وكان الغرض من ذلك وضع العراقيل، وإقامة الحوائل في سبيل اتفاقنا على سريان تشريعنا المصري على الأجانب المقيمين بيننا. فمما لا جدال فيه أن هذا التطبيق، وما يشتمل عليه من قواعد مقررة في شريعتنا السمحة، كقطع يد السارق وجلد الزاني لا يقبل ممثلو الدول الأجنبية الموافقة عليه بحال من الأحوال. ولقد كان من شأن هذه الدعاية أن تقف حجر عثرة في سبيل إلغاء الامتيازات الأجنبية، وينال المتآمرون من وراء ذلك ما يرجونه»[١٧].

..وفي هذه الآونة بالذات بدأ الشيخ البنا هجومه على الأحزاب الحزبية ونادى بحلها جميعاً وعمل على تعزيز سلطات الملك وحاول أن

---

[16] Heyworth - Dunne - Ibid .p.23.

[١٧] صباح الخير، ٣١ـ ٣ـ ١٩٧٧. د. عبد العظيم رمضان، مقال: الدين في الصراع السياسي.

يمنحه ما ظل القصر مفتقداً إياه طوال حياته من تأييد جماهيري.. الأمر الذي شجع فاروق على محاولة تدبير «انقلاب دستوري» اختار له عن عمد ذكرى رأس السنة الهجرية حيث وجه خطاباً بالراديو أعلن فيه توليه لزمام كل الأمور قائلاً «إن ثقتي وتوكلي على الله هو الذي يلهمني تصريف الأمور ويوجهني الوجهة الصحيحة»[١٨]. ومع الهجوم على الدستور في مصر لاحت بوادر الموالاة للمحور وعملائه. ولعل الدور الذي لعبه الشيخ البنا وجماعة الإخوان في هذا الصدد هو الذي دفع كاتباً إسلامياً كعباس العقاد إلى أن يكتب غاضباً «في مصر دعوة دكتاتورية ليس في ذلك جدال، والذين يقومون بهذه الدعوة ويقبضون المال من أصحابها هم الذين يشنون الغارة على الدول الديمقراطية ويثيرون الشعور عليها باسم الدين وباسم سورية وفلسطين، ولا يثيرون الشعور على الدول الأخرى باسم الدين وباسم ألبانيا وبرقة وطرابلس والصومال.. ويسير علينا أن نعرف بعدما تقدم من أين تتلقى تلك الجماعات المتدينة أزوادها ونفقاتها، ولماذا تتوجه بالدعوة المزيفة إلى هذه الوجهة التي لا وجهة غيرها أمام تلك الجماعات لخدمة المطامع الديكتاتورية.. إنها جاسوسية مأجورة تتوارى بالإسلام للإيقاع ببلاد الإسلام، لأن نجاح الدعوة الديكتاتورية لن ينتهي إلى مصلحة المسلمين ولا إلى سيادة المسلمين وإنما ينتهي إلى ضياع المسلمين»[١٩].

وفي ظل مباركة التيار الديني (الشيخ المراغي ـ الشيخ حسن البنا)، بتحريض وتخطيط من علي ماهر الذي أصبح في نهاية الثلاثينيات ومع صعود نجم الهتلرية بؤرة النشاط الموالي للمحور، حاول فاروق هو الآخر أن يلعب لعبة التقارب من المحور.

وفي يوم ٢٣ فبراير ١٩٣٩ كتب الكونت شيانو وزير خارجية إيطاليا في مذكراته الخاصة أنه «تلقى نبأ (من) أتوليكو السفير الإيطالي في برلين عن مقابلة جرت بينه وبين مراد سيد أحمد باشا وزير مصر المفوض في برلين،

---

[١٨] مصر الفتاة، ٢٧ـ ٣ـ ١٩٣٩.

[١٩] الدستور، ٢٧ـ ٧ـ ١٩٣٩ـ مقال لعباس محمود العقاد.

استفسر فيها الوزير المصري باسم مليكه.. عما إذا كان المحور سيكون على استعداد لمساندته إذا أعلنت مصر حيادها وترتب على ذلك تدخل مباشر أو غير مباشر من جانب بريطانيا العظمى»[٢٠]. واستمرت الاتصالات بين القصر والمحور وتعددت وسائلها، وفي ١٤ إبريل ١٩٤١ اتصل يوسف باشا ذو الفقار (والد الملكة فريدة ـ وسفير مصر في طهران) بالسفير الألماني ورجاه أن يبلغ هتلر. «أن فاروقاً وشعبه لا يرغبون في الحرب مع ألمانيا.. وأن فاروقاً وشعبه يأملون في رؤية القوات الألمانية منتصرة ومحررة لهم من الاحتلال البريطاني»[٢١] بل إن فاروقاً كان يتجسس لصالح الألمان، ففي يوم ٢٩ يونيو ١٩٤١ أرسل فاروق برقية إلى السفير المصري في طهران يطلب منه أن يبلغ السفير الألماني «أن لديه معلومات تشير إلى أن الإنجليز سيحتلون مناطق البترول الإيرانية لكي يحموها من الهجوم الألماني من ناحية روسيا والهجوم ضد العراق وإيران»[٢٢].

واستعداداً لهذا التحول الخطير من الولاء لإنجلترا إلى الولاء لألمانيا كان يتعين إيجاد حزب ذي جماهيرية ما، يستطيع أن يدعم هذا التحول وأن يخلق له سنداً شعبياً.

وكان عزيز المصري باشا صديق علي ماهر الحميم وحليف المحور صاحب فكرة ميلاد حزب جديد.. يوحد بين الحزبين المشاركين مع جناح القصر ـ علي ماهر ـ المحور في مخططه والخاضعين في نفس الوقت لنفوذ علي ماهر ولنفوذه شخصياً وهما الإخوان المسلمين ومصر الفتاة ويخلق حزباً إسلامياً منظماً على النمط الفاشي مدعوماً بنفوذ القصر وبإعلانه العصيان

---

[20] **Ciano, Count Galeazzo - Cianos Diary Diary (1939-1943) London - p.32.**

[٢١] الأهرام، ٩ـ ٢ـ ١٩٧١. د. محمد أنيس: دراسة عن ٤ فبراير سنة ١٩٤٢.

[٢٢] السياسة الدولية، أكتوبر ١٩٧١ ـ د. عبد العظيم رمضان، مقال: الاتصالات المصرية بدول المحور ٣٩ ـ ١٩٤٥.

على الإنجليز.. أعداء الوطن[23]. واستعداداً لذلك غير أحمد حسين اسم حزبه ليرتدي هو أيضاً مسحة إسلامية.. ويبدو أن الضغط على البنا كان شديداً إلى درجة جعلته يفرد في «رسالة المؤتمر الخامس» بابا خاصاً بعنوان «الإخوان ومصر الفتاة» قال فيه «وأن كثيراً من الناس يود أن لو اتحدت جماعة مصر الفتاة مع الإخوان المسلمين وهذا شعور ما من شك في أنه جميل نبيل فليس أجمل من الوحدة والتعاون على الخير، ولكن من الأمور ما ليس يفصل فيه إلا الزمن وحده.. فنترك للزمن أداء مهمته وإصدار حكمه وهو خير كفيل بالصقل والتمييز». لكن البنا يستدرك «وليس معنى هذا أن الإخوان سيحاربون مصر الفتاة بل أنه ليسرنا أن يوفق كل عامل للخير وإلى الخير، ولا يحب الإخوان أن يخلطوا البناء بهدم، وفي ميدان الجهاد متسع للجميع»[24]

وعلى أية حال فقد أدت هذه العلاقة الحميمة بين الشيخ البنا ومحور القصر علي ماهر ـ المراغي ـ عزيز المصري إلى تداعيات عدة.. فهي من ناحية مكنت البنا من أن يقفز بجماعته إلى سطح الأحداث.. وفي عام واحد أو عامين تضاعف عدد شعب الجماعة إلى أكثر من عشرة أضعاف وامتلكت مجلة ناطقة باسمها، وتشكلت فرق جوالتها لتمارس مهام الردع وحفظ النظام، وحشدت لمظاهرات كانت أول مظاهرات في تاريخ مصر الحديث تهتف بحماس بحياة الملك.

لكن للتداعيات وجهها الآخر.

فقد اعترضت مجموعة هامة من أعضاء الجماعة وكوادرها القيادية في عام ١٩٣٩ على هذا الانغماس السياسي المناوئ لمصالح الجماهير ورفضوا أن يهتفوا بحياة ملك يعرفون جيداً كم هو فاسد ورفضوا الانغماس في مؤتمرات مشبوهة يحركها سياسي مشبوه مثل علي ماهر.. وقيل أن بعض هؤلاء

---

(23) Heyworth - Dunne - op .cit.p.36.

(٢٤) حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس ص٥٧.

المتمردين كان وفدي النزعة.. ففي المرحلة الأولى من الجماعة والتي كانت تكتفي فيها بإظهار نزعة دينية خالصة لم يكن هناك ما يمنع ذوي الميول الوفدية من الانتماء إليها، أما أن تصبح الجماعة أداة لضرب الوفد لصالح القصر فذلك أمر آخر.. وهكذا «وجه المتمردون إنذاراً إلى الشيخ البنا بطرد أحمد السكري لاتجاهاته السياسية وبقطع الجماعة كل اتصالاتها السياسية خاصة مع علي ماهر»[٢٥]. لكن البنا يرفض الإنذار، ويصدر قراراً بطرد كل معارضيه من صفوف الجماعة، بل ويهددهم بإبلاغ البوليس ضدهم إذا هم أذاعوا أسرار الجماعة (أية أسرار؟ ولماذا يحميها البوليس؟ وكيف يستعين زعيم بالبوليس ضد معارضين له من صفوف حزبه؟)، والحقيقة أن هناك من الشواهد ما يثبت أن البوليس كان يحمي حسن البنا بتعليمات من السلطات العليا[٢٦]. وتقول باحثة أخرى (إن هذه الأيام قد شهدت أكثر فأكثر الطابع الديكتاتوري لتصرفات الشيخ حسن البنا تجاه أعضاء الجماعة، وأصبح واضحاً أنه ينوي أن يوجه بنفسه ووحده دفة العمل السياسي للجماعة)[٢٧] وقد كوّن المنقسمون جماعة «شباب سيدنا محمد» وخرجت معهم مجلة «النذير» وظلوا لفترة يرددون معلومات عن مساعدات مالية تلقاها البنا من على ماهر[٢٨].

ويكتب أحد زعماء الانقسام محمود أبو زيد عثمان في مجلة النذير يحدد فيه أسباب انقسام مجموعته فيتهم الشيخ البنا بأنه:

أ ـ موال للقصر الملكي وعلي ماهر.

ب ـ يتلاعب بأموال الجماعة.

ج ـ يرفض تطبيق مبدأ الشورى.

---

[٢٥] طارق البشري، المرجع السابق ص٤٨.

(26) Heyworth - Dunne -op .cit.p.38.

(27) Harris, christina - op .cit.p.179.

(28) Mitchell - op.cit.p.17.

د ـ يحمي بعض الشخصيات غير الأخلاقية (الشيخ عبد الحكيم عابدين)[٢٩].

ومن التداعيات أيضاً أن الإنجليز بدأوا يشعرون بخطر التقاء الجماعة والشيخ مع مخطط الموالين للمحور.. ثم بدأت السفارة البريطانية في تسليط عيونها على تحركات الشيخ، ووضعته في موضع الخصومة، خصوصاً بعد أن تمكنت من الإطاحة بوزارة علي ماهر.. ويروى د. محمد حسين هيكل باشا في مذكراته أن السلطات البريطانية أبلغت حسين سري باشا رئيس الوزارة أن حسن البنا يعمل لحساب الإيطاليين ورأت ضرورة الحد من نشاطه «ورأى سري باشا أن ينقل الرجل من القاهرة إلى بلدنا بالصعيد يكفل هذا الغرض» فحدثني في الأمر، وطلب إليّ نقله إلى قنا ولم أجد بأساً من إجابة طلبه[٣٠]. لكن أمر النقل ألغي فوراً بضغط من القصر.

«على أن السلطات البريطانية لم تلبث أن عادت فطلبت اعتقال حسن البنا وأحمد السكري في ١٩ أكتوبر ١٩٤١، كما ألقي القبض أيضاً على عبد الحكيم عابدين وغيره من الإخوان المسلمين»[٣١].

وهكذا تبدأ المحنة الأولى في تاريخ الشيخ وجماعته، لكنها محنة قصيرة فللبنا أصدقاء حميمون ذوو نفوذ.. فقد أفرج عن البنا ورجاله بعد بضعة أيام. ويقول جورج كيرك المعروف بسعة إطلاعه أن الإفراج قد تم «بضغط من القصر الذي ساد الاعتقاد أنه يمده (البنا) بمعونة سخية»[٣٢].

وثمة شاهد عيان يقدم معلومات هامة عن واقعة الإفراج المفاجئ وعن ملابساتها. يروي «أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة أنه لما قامت

---

[٢٩] آمال السبكي، المرجع السابق ص٢٥.

[٣٠] د. محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية ج٢ ص٢٠٨.

[٣١] د. عبدالعظيم رمضان، الحركة الوطنية في مصر من إلى ١٩٤٨ ج٢ـ دار الوطن العربي بيروت ص١٢٨.

[٣٢] جورج كيرك، المرجع السابق ص٣١٤.

الحرب أودع أحمد حسين وزملاؤه في معقل الزيتون، وأوقف كل نشا لهم، وأن حسن البنا وقادة الإخوان اعتقلوا في مستهل الحرب كغيرهم. فه راع المعتقلين إلا أن حضر المعتقل حامد جودة (وزير السعدي في وزار حسين سري ١٩٤١) واجتمع بحسن البنا عدة ساعات، ثم ما لبث البنا أ أفرج عنه بعد بضعة أيام. ويفسر أحمد حسين هذا الإفراج الغريب بأنه كا تعبيراً عن رغبة حزب السعديين في استغلال حركة الإخوان في دعم نفو الحزب. وقال أن الشيخ خرج من المعتقل وقد ازداد جاهاً ونفوذاً.. ومضى في دعوته حراً طليقاً يجوب البلاد يؤلب الشعب وينظم الجماعات، واشته في البلاد أن الإخوان المسلمين في حماية الحكومة وفي حماية السعديير بصفة خاصة[٣٣]. وثمة شهادة أخرى لأحد أقطاب حزب مصر الفتاة هـ محمد صبيح الذي أكد (في مناقشة له مع د. عبد العظيم رمضان) أن فاروق قد حمى الإخوان وضغط للإفراج عنهم»[٣٤].

وخرج البنا ليقيم حواراً مع السفارة البريطانية.. الأمر الذي يؤكد الجميع بما فيهم البنا نفسه وإن اختلف البعض حول نتائجه.

وقبل أن نغلق ملف «المحنة الأولى» تبقى ملاحظتان:

الأولى أن العلاقة بين البنا والقصر لم تمنع البنا من إقامة علاقة وثيقة مع ولي العهد المناوئ لفاروق ولنهجه في التقارب مع المحور، والذي كا على الدوام متفانياً في الإخلاص للإنجليز.. وكتعبير عن علاقة حميم أهدى ولي العهد مكتبة إسلامية ضخمة للمركز العام للإخوان المسلمين الحلمية الجديدة[٣٥].

والملاحظة الثانية يؤكدها أحمد حسين في مرافعته السابقة وهي أ البوليس لم يكن يعتبر جماعة الإخوان المسلمين مجالاً لنشاطه، فلم يتعقد

---

[٣٣] مرافعة أحمد حسين المحامي في قضية اغتيال المرحوم فهمي النقراشي ١٩٤٩ ص٤١.

[٣٤] د. عبد العظيم رمضان، المرع السابق ص١٤٥.

[٣٥] محمد شوقي زكي، المرجع السابق ص١٤٥.

نشاطهم ولم يجمع عنهم أية معلومات، فقد كان مطمئناً إليهم كل الاطمئنان. وقال أحمد حسين أنه عند صدور قرار حل جماعة الإخوان المسلمين كان البوليس في فزع شديد لأنهم لم يكونوا قد اتخذوا أي إجراء وقائي ضد نشاطهم بل أن أحمد حسين يروى واقعة غريبة فيقول أنه قابل يوماً هو وحسين البنا عبد الرحيم عمار(مدير الأمن العام ثم وكيل وزارة الداخلية الموالى للسعديين) وإن الشيخ واجه عمار بأنه كان عضواً في جماعة الإخوان فلم ينف عمار ذلك، وقد طلب أحمد حسين عبد الرحمن عمار للشهادة أمام المحكمة وووجهه بهذه الواقعة[٣٦].

وتأتي أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ويأتي الوفد إلى الحكم.

وكان الوفد في هذه الأيام يعاني من أثر قبوله للحكم على «أسنة رماح الإنجليز» كما قال خصومه، ويعاني من هجمات شديدة تتهم حكمه بالفساد، ويعاني من تسلل غالبية إقطاعية إلى صفوف قيادته تحت زعامة شاب إقطاعي مليء بالنشاط والحيوية هو فؤاد سراج الدين، ويعاني فوق هذا وذاك من انقسامات تهدده.

وهكذا كانت بعض أجنحة الوفد مهيأة تماماً للالتقاء مع خصم الأمس الشيخ البنا.

والحقيقة أن الجناح الليبرالي للوفد كان يرفض وبشدة أي تداخل للدين أو الجماعات الدينية في السياسة، وكان مصطفى النحاس باشا ذا حساسية خاصة تجاه هذا الأمر.. وعندما التقى النحاس باشا بأحمد حسين رئيس مصر الفتاة صاح في وجهه بانفعاله المعروف قائلاً «أنت دسيسة وهناك من دفعك إلى هذا العمل، وإلا فمن أين تأتي بالمال الذي تصرفه على الحركة؟» ثم بدأ يناقشه في مبادئ مصر الفتاة قائلاً «أن فيها بعض المبادئ الخطرة التي لا أكاد أفهمهما خذ مثلاً «الله» التي وضعتها في أول شعارك فلست أراها إلا شعوذة، لأن وضع «الله» في برنامج سياسي هو شعوذة»[٣٧].

---

[٣٦] مرافعة أحمد حسين، المرجع السابق ص٤٢.

[٣٧] المرجع السابق، ص٤٧.

أما الجناح اليميني في الوفد والذي كان يجد لنفسه في ذلك الحين قوة قائدة هو فؤاد سراج الدين باشا «فقد كان يعتبر أن حركة الإخوان المسلمين تمثل أداة مفيدة ضد الضغوط الاجتماعية المتزايدة خاصة وأن الشيوعيين قد ازداد نشاطهم خلال فترة الحرب، وهكذا فإن سراج الدين قد استغل منصبه كوزير للزراعة لتشجيع الإخوان على توسيع نشاطهم في الريف»[(٣٨)].

وهكذا، وعلى أكتاف سراج الدين باشا ومجموعة إقطاعيي الوفد وثب الشيخ البنا نحو الريف، لكن العلاقة بين الوفد والإخوان متعرجة تعرج المنطلقات الاجتماعية المختلفة داخل الوفد ذاته.

ففي ٧ فبراير ١٩٤٢ أعلن النحاس باشا رئيس الوزارة حل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة، وكان المؤتمر السادس للإخوان والذي عقد في يناير ١٩٤١ قد أعلن أن الوقت ناضج تماماً كي يخوض مرشحو الإخوان المسلمين المعركة البرلمانية. ورشح البنا نفسه في دائرة الإسماعيلية، لكنه ما لبث أن سحب ترشحيه على أثر مقابلة عاجلة بينه وبين رئيس الوزراء[(٣٩)].

ويقال أن البنا قد طلب «ثمناً» عالياً مقابل سحب ترشيحه وكان الثمن:

أ ـ إطلاق حرية النشاط أمام الجماعة.

ب ـ وعد من الحكومة باتخاذ إجراء ما ضد بيع المشروبات الروحية وضد بيوت البغاء المصرح بها رسمياً[(٤٠)].

وفي نهاية عام ١٩٤٢ عاد النحاس إلى التصادم مع الإخوان فأغلق مقارهم جميعاً ما عدا المركز العام، ثم عادت العلاقات إلى التحسن على أثر زيارة قام بها بعض قادة الوفد للمركز العام[(٤١)].

[(38)] Mitchell - op.cit.p.27.

[(39)] Ibid - p .27.

[(40)] Heyworth - Dunne - op .cit .p .40.

[(٤١)] أحمد أنس الحجاجي، الإمام ـ الجزء الثاني ص٣٩٩.

خلاصة الأمر لقد وضح مبدأ التحالف بين الوفد والإخوان في فترة محددة تماماً هي فترة تولي الوفد الحكم.. ليس قبلها وليس بعدها (فتحالفات الإخوان كانت دوماً مع من هم في الحكم)، كما أن هذه التحالفات كانت محلاً لصراعات داخل الوفد ذاته: «الليبراليون» ضدها وكبار الملاك معها.

يقول ريتشارد ميتشل الباحث المعتمد من جماعة الإخوان «أن جماعة الإخوان قد جسدت نظرة تقليدية للإسلام وقدمته كحصن واق من أية هزات جذرية اجتماعية أو اقتصادية، إن هذه النظرة تفسر جزئياً موقف الصداقة الذي اتخذه الوفد ــ أو بالأحرى الجناح اليميني منه ــ حيال الجماعة عامي ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤، ولعلها تفسر أيضاً مواقف الصداقة التي اتخذها القصر وحكومات الأقليات تجاه الجماعة»[٤٢].

وما إن أقيل الوفد وجاءت سلسلة حكومات الأقلية حتى غير البنا دفة تحالفاته.. فحاول مرة أخرى أن يعزز علاقته بالقصر، وإذ فقد قناة الاتصال التي تمثلت فيما سبق في علي ماهر ــ المراغي اللذين لم يعودوا مقربين من القصر، كان البنا يبحث بدأب عن قناة اتصال جديدة بينه وبين الملك، ويروى أنور السادات أن الشيخ البنا قد ألح عليه إلحاحاً شديداً أن يحاول ترتيب اتصال مع الملك عن طريق يوسف رشاد، وأن يوسف رشاد قد قابل البنا بناء على تفويض من الملك، ويضيف السادات أن يوسف رشاد قد أفهمه فيما بعد، أن عام ١٩٤٦ قد شهد رضاء تاماً من الملك عن الشيخ البنا وجماعته[٤٣].

ومع التقلبات المختلفة للسياسة كان الشيخ يحاول المناورة بمهارة.

لقد استفاد كغيره من خصوم الوفد من حادث ٤ فبراير[٤٤]. ثم استفاد من الجناح اليميني من الوفد ثم عاود تحالفه مع حكومات الأقليات.

---

[42] **Mitchell - op.cit.p.39.**

[٤٣] أنور السادات، صفحات مجهولة.. الترجمة الإنجليزية ص٩٩.

[٤٤] أنور عبد الملك، المرجع السابق ص٣٥.

وفي عام ١٩٤٥ أجرى أحمد ماهر باشا انتخابات لم تكن نظيفة وقد رشح فيها البنا وخمسة من أتباعه أنفسهم وفشلوا جميعاً.

ولعل البنا قد شعر بالحاجة إلى إعادة تعزيز صفوف جماعته في أعقاب هذا الفشل.

فعقد مؤتمراً جديداً للجماعة، ويلاحظ أن الحكومة قد سمحت بالمؤتمر في الوقت الذي حرمت فيه أية اجتماعات سياسية لأي حزب آخر. وقد أقر المؤتمر مقترحات البنا بشأن قانون النظام الأساسي لهيئة الإخوان المسلمين العامة والذي يمثل لائحة النظام الداخلي للجماعة.. وبهذا القانون عزز المرشد العام قبضته بحزم على كل مقدرات الجماعة.

وتجيء أحداث ١٩٤٦، حيث يرتفع المد الثوري عالياً وتلتهب مصر كلها مطالبة بالجلاء التام. وكانت الجماعة محوراً من أهم محاور النضال الوطني في ذلك الحين.. كذلك المراكز العمالية المهمة مثل شبرا الخيمة وغيرها.

وفي شبرا الخيمة وخلال أيام الإضراب الكبير شاهدنا في صفحات سابقة موقف جماعة الإخوان وأعضائها، فكيف كان الأمر في الجامعة؟

لقد اتجه التأثير السياسي في الجامعة إلى ثلاث شعب: الوفد بنفوذه التقليدي في صفوف طلاب الجامعات ثم الإخوان المسلمون والشيوعيون بتأثيرهما اللامع والمتزايد خلال عامي ١٩٤٦ - ١٩٤٧.

وقد حاولت القوى الوطنية بمختلف فصائلها أن توحد صفوف الجامعة باتجاه برنامج وطني وكانت البداية دعوة لمؤتمر بكلية الطلب في ٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٥ لكن الإخوان المسلمين وفي محاولة لإفشال هذا المؤتمر سارعوا بعقد مؤتمر خاص بهم قالوا أنه قد حضره ٦٠٠٠ طالب ووجهوا باسم هذا المؤتمر رسالة إلى رئيس الوزراء قالوا أنها تعبر عن «أرض مصر الخضراء» ثم حضروا إلى مؤتمر ٧ أكتوبر مطالبين الجميع بالموافقة على مقررات مؤتمرهم فلما رفض الحاضرون وجدوا في ذلك حجة كافية للانسحاب[٤٥].

---

[٤٥] محمد حسن أحمد (اسم سري)، الإخوان المسلمون في الميزان ص٨٨.

واستمر الحلف الوطني يبلور نفسه في الجامعة في إطار «اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلاب» والتي مثلت الطلاب من الوفديين والشيوعيين وغيرهم.. بينما بقي الإخوان المسلمون خارج إطارها يحاولون العمل في خط مناوئ.

وشهدت الجامعة تحركين.. تحرك ومظاهرات القوى الوطنية مؤتلفة في «اللجنة الوطنية للطلاب» وتحرك الإخوان المسلمين في اتجاه مضاد(٤٦).

وخلال الإعداد المكثف ليوم الإضراب العام في ٢١ فبراير ١٩٤٦ أوفدت «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» التي تكونت من اتحاد اللجنة الوطنية للطلاب مع القيادات العمالية الوطنية، مندوبين لمقابلة الشيخ البنا ودعوته للاشتراك في الإعداد لهذا اليوم، لكن الشيخ راوغهم ثم رفض في حسم على أساس «أن الإخوان غير جاهزين». ومع ذلك فقد كان الإخوان جاهزين تماماً قبلها بأيام (١١ فبراير) لتسيير مظاهرة يقودها زعيمهم الطلابي (مصطفى مؤمن) لتتجه في حراسة البوليس نحو قصر عابدين وتردد شعارات موالية للملك(٤٧). وكان الإخوان جاهزين تماماً للاحتفال بعيد جلوس الملك في مايو ١٩٤٦ احتفالات مبالغ فيها إلى حد كبير.. ففي هذا العام الذي سجلت فيه الجماهير الشعبية بدمائها وشهدائها رفضها للاحتلال ولعملائه في القصر الملكي ومجلس الوزراء.. أقام الإخوان مهرجانات كثيفة في مختلف أنحاء القطر احتفالاً بجلوس الملك، وشارك البنا وأعضاء مجلس الإرشاد العام في هذه الاحتفالات المتحدية لمشاعر المصريين جميعاً، وتنشر جريدة الإخوان «جاءنا من المحلة الكبرى أن استعراضاً جميلاً مؤلفاً من خمسمائة وألف من جوالة الإخوان المسلمين هناك أقيم بعد ظهر أمس ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة»(٤٨). وفوق ذلك فقد حاول الشيخ البنا

---

(46) Thieck, Jean - Pierre - La Jounee du 21 Fevrier 1946 dans l historie du mouvement National Egyptien.

(47) Mitchell - op.cit.p.45.

(٤٨) الإخوان المسلمون، ٦- ٥ - ١٩٤٦.

صرف الأنظار بعيداً عن القضية الوطنية معلناً أن المشكلة الأساسية هي استعادة الخلافة الضائعة ولعله بذلك كان يغرى الملك أيضاً إذ يقدم له وعداً بعمامة الخلافة.

وهكذا تتعزز العلاقة بين القصر الملكي والإخوان.. وتصل إلى درجة التشاور مع البنا قبل استدعاء إسماعيل صدقي[٤٩]. ليتولى رئاسة أكثر الوزارات خيانة وهمجية في تاريخ مصر الحديث.

وفي فبراير ١٩٤٧ يخطو الشيخ البنا أولى خطواته على عتبات قصر عابدين مدعواً لأول مرة إلى وليمة ملكية. وبقدر ما كان عاماً ٤٦ــ ١٩٤٧ عامي التباعد بين الإخوان يتورطون في مباركة خطوات لا يمكن لوطني أن يباركها كما شاهدنا في صفحات سابقة من مباركة معاهدة صدقي ــ بيفن ومن علاقات البنا الوثيقة بالطاغية صدقي.. بقدر ما كان الثمن سخياً.

يقول ريتشارد ميتشل «وعلى أية حال فإنه طوال عامي ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧ من الواضح أن جماعة الإخوان كان ينظر إليها باعتبارها أداة لمناهضة الوفد والشيوعية. ويبدو أن البنا قد حصل من صدقي على مجموعة من التسهيلات: الرسمية (!) شجعته على القيام بهذا الدور. ومن بين هذه التسهيلات ترخيص بإصدار جريدة يومية رسمية للجماعة هي «الإخوان المسلمين» التي صدرت في مايو ١٩٤٦، وكذلك تراخيص ورق طباعة بالسعر الرسمي بما يعني توفير حوالي ٢٠ أو ٣٠ بالمائة من أ سعار السوق السوداء، وأيضاً امتيازات هامة لفرق الجوالة التي تقرر منحها زياً رسمياً وأدوات ومعدات بأسعار مخفضة أو رمزية ومنحها أرضاً لإقامة معسكراتها عليها. كذلك حرص صدقي علي تعيين محمد حسن العشماوي وهو أحد الأصدقاء المقربين للشيخ البنا وزيراً للمعارف العمومية.. ومن الأرجح أن المعونة المالية قد قدمت للجماعة من خلال وزارتي المعارف والشؤون الاجتماعية بوصفها

---

[٤٩] آخر ساعة، ١- ١٢- ١٩٥٤.

مساهمات أو إعلانات حكومية للخدمات التعليمية والاجتماعية والخيرية التي تقوم بها الجماعة»[٥٠].

وكان طبيعياً أن يتجاوب الإخوان أكثر فأكثر مع سياسة صدقي في مقابل هذه التسهيلات، فجند الإخوان جوالتهم وكل قواهم لمحاربة كل من خاصم صدقي وسياسته الخائنة.

وتركز هجوم الإخوان في شعبتين «الوفد» و«الشيوعيين».

يقول أحمد حسين أن الإخوان قد «خاصموا الوفد وخاصمهم فبدأت الاحتكاكات بين الطرفين وبدأ الصدام على طول الخط، وكان طبيعياً أن تقف الحكومة إلى جوار الإخوان في كل صدام يقع بينهم وبين الوفد وكانت تحميهم وتشد أزرهم»[٥١].

ورد الوفديون بالمثل فهاجمت صحف الوفد الشيخ البنا وأسمته «الشيخ حسن راسبوتين» وقالت جريدة الوفد «صوت الأمة» في وصف زيارة للشيخ لأحد الأقاليم «هتف الناس بسقوط الشيخ صنيعة الإنجليز»[٥٢]. وشاركت «مصر الفتاة» في الحملة على البنا وكتب أحمد حسين يهاجم البنا قائلاً «حسن البنا أداة في يد الرجعية وفي يد الرأسمالية اليهودية وفي يد الإنجليز وصدقي باشا»[٥٣].

وإذ استند الإخوان إلى حماية السلطة فقد لجأوا إلى ممارسة العنف السياسي على أوسع مدى. وشهدت المصادمات السياسية لأول مرة استخدام الرصاص والقنابل والفصائل المنظمة شبه العسكرية للجوالة.

وفي ٦ يوليو ١٩٤٦ وقع صدام بين الإخوان والوفديين في بور سعيد استعمل فيها الإخوان الرصاص وألقوا ثلاث قنابل فأسفر الحادث عن قتل

---

[50] Mitchell - op.cit.p.42.

[٥١] مرافعة احمد حسين ـ المرجع السابق ص٤٣.

[٥٢] صوت الأمة، ٢٨ ـ ٨ ـ ١٩٤٦.

[٥٣] مصر الفتاة، ١٧ـ ٧ـ ١٩٤٦.

واحد من الوفديين وإصابة ٣٥ «فتجمع الكثيرون على دار الإخوان وأشعلوا الحريق فيها وفي النادي الرياضي للإخوان»[٥٤]. وكان الشيخ البنا يزور المدينة فحاصره الوفديون في أحد المساجد لكنه استطاع الهرب، وفي اليوم التالي شيعت جنازة المتوفى «حيث قام الشيعون بمحاصرة مركز للإخوان وقذفوه بالحجارة فعمل البوليس على تفريقهم فاعتدوا عليه، فأطلق عليهم الرصاص وأصيب ١٦ شخصاً»[٥٥].

أما الشيوعيون فقد كان نصيبهم أكبر.. إذ بارك الإخوان رسمياً الحملة الهمجية التي شنها صدقي على اليساريين والديمقراطيين والوفديين والشيوعيين تحت ستار ما أسمي في ذلك الحين «قضية الشيوعية الكبرى». وأفردت جريدة الإخوان باباً يومياً لمتابعة هذه الحملة وتقريظها بعنوان «مكافحة الشيوعية».

ويقول ميتشل «أن مخابرات الجماعة أمدت الحكومة بمعلومات مفيدة خلال التفتيش المستمر عن الشيوعيين المعروفين والمشتبه فيهم، وبوجه خاص في الدوائر العمالية والطلابية»[٥٦].

وهكذا كان الحلف الثلاثي: القصر ــ حكومات الأقلية ــ الإخوان المسلمون يلتقي عند محور أساسي وهو العداء للوفد والشيوعيين.. ويلتقي أيضاً حول مواقف محددة من القضية وأسلوب حلها. وهي مواقف كانت تحظى برفض القوى الوطنية عموماً..

لكن الإخوان قد مضوا في طريقهم إلى مدى بعيد.

فهم لم يقسموا الصف الوطني فحسب بل عمدوا وفي وقت حرج إلى إثارة الفتنة الطائفية أي تفتيت وحدة عنصري الأمة.

---

[٥٤] المصري، ٨ ـ ٧ ـ ١٩٤٦

[٥٥] الأهرام، ٨ ـ ٧ ـ ١٩٤٧.

[56] Mitchell - op.cit.p.39.

وتنشر جريدة «مصر» أن جماعة الإخوان أقامت حفلاً أمام كنيسة مار جرجس وكان خطيب الإخوان يردد «غداً تؤول شركة المياه إلينا فلا نترك فيها قبطياً واحداً.. وغداً يسيطر المسلمون على جميع الشركات فلا يبقى فيها قبطي واحد»[٥٧].

ولقد يبدو هذا النهج غريباً في بلد يجابه المستعمر، ويستمد قوته الأساسية في هذه المجابهة من وحدته الوطنية سواء على المستوى الديني أو على المستوى السياسي.

لكن الدهشة تتضاعف عندما نجد أحد قادة الإخوان هو الشيخ محمد الغزالي يصدر كتاباً بعنوان (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) يرفض فيه مبدأ الوحدة الوطنية بل ويدينها، فهو يقول أن اتفاق زعماء المسلمين والنصارى إبان ثورة ١٩١٩ كان على أن ينسى الجميع أديانهم في سبيل طرد العدو وهو اتفاق يعتبره غريباً وتنفيذه أغرب، وقال أن كثرة الموظفين النصارى في الإدارات المصرية «إقصاء للإسلام وتغليب غيره عليه»[٥٨].

أي توقيت هذا؟

وأي ثمن فادح دفعه الإخوان مقابل ما حصلوا عليه من «تسهيلات»؟

والحقيقة أن الثمن الذي دفعوه لم يكن قاصراً على تفتيت الوحدة الوطنية الدينية ولا الوحدة الوطنية السياسية في وقت كانت مصر تواجه فيه عدوها الأساسي الاحتلال.. وإنما امتد أيضاً إلى صفوفهم أنفسهم انقساماً وعزلة.. الأمر الذي مهد السبيل لضربهم بأيدي من تحالفوا معهم وشجعوهم على السير في هذا النهج.

وأخيراً، وقبل أن نقلب هذه الصفحة بقي أن نقول أن الإخوان سرعان ما انقلبوا على صدقي نفسه عندما أحسوا أن أيامه في الوزارة قد انتهت وأن ثمة قادم جديد هو النقراشي، فحالفوا القادم الجديد كعادتهم.

---

[٥٧] جريدة مصر، ٣ - ٥ - ١٩٤٧.

[٥٨] محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص١٨.

ولم يكن من السهل أن يقتنع كل أخواني بهذا النهج.

ولم يكن من السهل على «الأخ المسلم» أن يجد نفسه في مظاهرة تهتف بحياة ملك فاسد أو رئيس وزارة خائن، ويؤيد معاهدة ترفضها مصر كلها ويقسم الصف الوطني.

وكان الانقسام هو السبيل الوحيد في جماعة تحكمها من أعلى قبضة واحدة قوية.

واسند المعارضون للشيخ إلى قضية شائكة وحساسة كانت كامنة في الجماعة منذ عام ١٩٤٥ عندما أثار البعض شكوكاً أخلاقية ضد عبد الحكيم عابدين السكرتير العام للجماعة وزوج شقيقه الشيخ البنا.

وكلف البنا أحد قادة الجماعة المقربين منه د. إبراهيم حسن بالتحقيق في التهمة وهي «انتهاك حرمة بيوت وأعراض بعض الإخوان». وبينما يواصل د. إبراهيم حسن تحقيقه تتسرب الأنباء لتثير غضب بعض الأعضاء فيقدم المحقق اقتراحاً توفيقياً ويطالب فيه بفصل عبد الحكيم عابدين وبفصل الأعضاء الأربعة في مكتب الإرشاد العام الذين اتهموه.. لكن البنا يتمسك بصهره ويحاول الخروج من المأزق بتشكيل لجنة تقصي حقائق من كبار قادة الجماعة. إذ تمارس هذه اللجنة نشاطها بقدر من العلنية يتزايد عدد الشاكين من تصرفات عبد الحكيم عابدين وتوضع اللجنة في مأزق: فالتهم كثيرة وخطيرة والمتهم صهر الإمام وصديقه وكاتم أسراره.. ولهذا تقدمت اللجنة باقتراح توفيقي تصورت أنه قد يرضي المرشد.. أن تعلن اللجنة رسمياً أنها لم تثبت من صحة التهم الموجهة ضد عابدين على أن يبعد عن منصبه وعن الجماعة كإجراء «تطهيري». ويرفض الشيخ مرة ثانية ويتشبث بعابدين.

ويعقد مكتب الإرشاد العام اجتماعاً عاصفاً يقف فيه الشيخ البنا لأول ولآخر مرة في حياته في مواجهة إجماع عاصف يتهم صهر الشيخ تهماً خطيرة أقلها بأنه «راسبوتين الجماعة».

ويصمم المرشد على موقفه في حماية صهره متحدياً إجماع مكتب الإرشاد العام وقرار لجنة تقصى الحقائق ويعتمد البنا على نفوذه في الهيئة التأسيسية للجماعة «للحصول على قرار ببراءة عابدين ـ مراعاة لصالح الجماعة، بعد أن وعد بسحب اختصاصاته وإبعاده نهائياً بعد فترة».

واستقال د. إبراهيم حسن احتجاجاً في إبريل (نيسان) ١٩٤٧ واستقال معه البعض.

ثم جاء خلاف جديد مع قائد آخر من الأعمدة الأساسية هو أحمد السكري. ولقد شهدت الصفحات الأولى من هذا البحث علاقة وثيقة بين البنا والسكري منذ أيام الطفولة، وثقة تامة منحها الشيخ للسكري للتفاوض باسمه مع الكثير من الجهات التي تتطلب العلاقات بها ثقة عالية مثل السفارة البريطانية والوفد وغيرها.

ويبدو أن نهج الشيخ المتعسف تجاه غالبية مكتب الإرشاد قد فجر جرحاً قديماً عند السكري الذي كان يطالب وباستمرار بتقليل سلطات المرشد وبديمقراطية العلاقة في التنظيم.

ويبدو أن هذه الأزمة قد واكبت خلافاً بين المرشد والسكري حول موضوع العلاقة مع الوفد، فالسكري لم يكن يرى أي خير في التصادم مع الوفد، أكبر قوة سياسية جماهيرية في البلاد، بل وطالب بنوع من «الوحدة بين الحزبين»[٥٩].

ويضيف بعض الباحثين أن السكري قد هاجم البنا محتجاً على قبوله «معونات مالية من الإنجليز»[٦٠].

وببساطة شديدة طلب البنا من الهيئة التأسيسية مساءلة أحمد السكري حول موضوعات حددها، وأصدرت الهيئة قرارها بفصل السكري. وتبع ذلك سلسلة واسعة من الاستقالات.

---

(59) Mitchell - op.cit.p.52.

(60) Alexander, Mark - Left and Right in Right in Egypt - Twentieth Century (Feb, 1952).

وكان خروج د. إبراهيم حسن والسكري ومن لـف لفهمـا ضربـة قاصمـة للجماعة. لأنه قد حرمها من عدد من أهم كوادرها الأسـاسـية، وفجـر علـى السطح قضايا هزت الثقة في الجماعة ونقاء دعوتها، وفي الشيخ وقدرته على تخطـي علاقاتـه الأسـرية. وإذ كـانت الخلافـات نتيجـة لتدهـور موقـف الجماعة من القضية الوطنية والقوى الوطنية وعلى رأسها حزب الوفد، فقـد انتهز الوفد الفرصـة ليثير حملـة إعلاميـة كاسـحة هـزت أركـان الجماعـة بالفعل. وفي مواجهة ذلك صمم الشيخ على أن يحكم قبضته أكثر فأكثر على الجماعة.. فكـان اعتمـاده المباشـر علـى الجهـاز السـري.. الـذي أسـرع في تدريبـه وتوسـيعه وتسـليحه.. واسـتخدامه أداة لحفـظ النظـام في صفـوف الإخوان، وإرهاب خصومه في داخل الجماعة وخارجها.

.. وكان ذلك كله يجري والجماعة والشيخ يستهلكان رصيدهما الشـعبي بسرعة محمومة.. والشيخ يتصور أنه بمجاراته للقصـر وعملائـه مـن حكـام الأقلية إنما يكسب وقتاً وعوناً ودعماً يمكنـه مـن تعزيـز جماعتـه اسـتعداداً ليوم موعود.. ناسياً أن أية جماعة سياسية وأي زعيم سياسي تنتهي قيمتـه الحقيقية عندما يستهلك رصيده لدى الجماهير، وأن رؤساء أحزاب الأقليـة كانوا يشترون بمساعداتهم وعونهم المالي دمـاء الجماعـة ورصيدهـا وسمعتهـا وجماهيريتها.. وعندما تتناقص هذه القيم إلى حد معلوم يصبح التخلص مـن الجماعة ذاتها سهلاً.. خصوصاً إذا ما كانت قد اكتسـبت بتلونهـا المسـتمر رصيـداً مـن عـدم الثقـة، وإذا مـا كـان احتفاظهـا بجيـش سـري، يخيـف الجميع، خصومها وأصدقاءها على السواء.

من المصحف.. إلي الديناميت

«خطوتنا الثانية.. أيها الإخوان تجهزوا»

تحت هذا العنوان كتب البنا افتتاحية العدد الأول لمجلة «النذير» وفيها يقول «أن الله لا يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن» وقال أنه سوف يتوجه بدعوته إلى كل المسؤولين فإن أجابوا آزرهم وإن لجأوا إلى المواربة والمراوغات «فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تقوم على نصرة الإسلام، ولا تسير في الطريق إلى استعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام»[1].

ولقد رأينا كيف دعا الشيخ أيضاً إلى الجهاد.. وكيف جعله الفيصل الذي يميز بين جماعته وبين الجماعات الإسلامية الأخرى.

وكان البنا يلحٍ ويلح على هذه المسألة ابتداء من عام ١٩٣٨ ويكثر من الحديث عنها نثراً وشعراً.

الدين شيء والسياسة غيره

دعوى نحاربها بكل سلاح

قد جاء طه عابداً ومجاهداً

دك الحصون وقص كل جناح[2].

والسكرتير العام للجماعة عبد الحكيم عابدين أكثر من شيخه حماساً في شعره عن الجهاد.

---

[1] النذير، العدد الأول - ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٧ هـ.

[2] إسماعيل أحمد شافعي، الإخوان المسلمون. دعوة البعث والانقاذ، مقتطفات من رسائل وخطب المرشد العام - مطبعة العميري - بني سويف ص٣.

لنجرينها دماء جد ثائرة

وثورة الحق لا يدرى لها أمد

أو يرجع الشرع دستوراً لأمتنا

فليحذر القوم أني منذر صعد[٣]

ولقد قلنا فيما سبق أن عام ١٩٣٨ كان البداية لمرحلة التنفيذ التي تلي في نظر الشيخ مرحلتين سابقتين هما:

«التعريف».. «والدعوة عامة في هذا الطور وليست الطاعة التامة لازمة فيها.. نظام الدعوة في هذا الطور نظام الجمعيات الخيرية».

و«التكوين» عن طريق استخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد. و«نظام الدعوة في هذا الطور صوفي بحت من الناحية الروحية وعسكري بحت من الناحية العملية».

أما التنفيذ: فهو المرحلة الثالثة. و«الدعوة في هذا الطور جهاد وعمل متواصل وامتحان وابتلاء»[٤].

والجهاد يبدأ.. والدعوة لا ترفع أعلامها فحسب وإنما تقترب من التنفيذ.. لكن كيف؟

وقبل أن نسأل كيف؟ نسأل لماذا؟ أو بالدقة نسأل ما هو جوهر الجهاد عند الشيخ البنا وكيف فهمها هو وأتباعه؟

تنبع الفكرة من تقسيم أولي قسم الشيخ البنا المسلمين إلى أربعة أقسام: مؤمن ـ متردد ـ نفعي ـ متحامل[٥].

والمفهوم العملي لمثل هذا التقسيم هو كما يقول ريتشارد ميتشل «أنه وفقاً لهذه النظرية فإنه ليس أمام أي مصري إلا أن يضع نفسه في أحد

---

[٣] عبد الحكيم عابدين، البواكير، مجموعة شعرية. دار الصاوي للطبع والنشر، ص ٤٠.

[٤] لطفي عثمان، المرجع السابق، ص ٩٠.

[٥] حسن البنا، الرسائل الثلاث، ص ٦.

موضعين، فإما أن يكون عدواً للإخوان وإما يكون «مؤمناً» أي أن يكون أخاً مسلماً»[٦].

وانطلاقاً من هذا التقسيم.. تكون جماعة الإخوان المسلمين هي ملتقى (مصب) المؤمنين، أي تكون بالمعنى الإسلامي التقليدي «جماعة المسلمين» وإمامها هو إمام أهل الحل والعقد في الإسلام، والخروج على الإمام وعلى الجماعة هو خروج على «جماعة المسلمين» أي خروج على الإسلام ذاته.. ولهذا فإن الشيخ البنا كان منذ الأيام الأولى لجماعته يرى أن أي معارض له من «الخوارج» و«اضربوه بالسيف».

ولكن.. كيف فهم الإخوان فكرة الجهاد؟

«الجهاد هو بذل كل جهد ممكن لاقتلاع جذور الطغيان والفساد في الأرض، ولن يقدر الإنسان على اقتلاع الطغيان والفساد من حوله، إذا كان الطغيان والفساد يعيشان داخل نفسه.. ومن هنا أمر المسلم أن يبدأ بجهاد نوازع في نفسه، ثم يثنى بمجاهدة الطغيان والفساد في مجتمعه، ثم ينتهي إلى مجاهدة الطغيان والفساد في العالم كله.. والمسلم لم يؤمر بمطلق جهاد يلقي به التبعة عن كاهله، وإنما أمر بالجهاد في الله حق الجهاد، والجهاد في الله حق الجهاد يقتضي من المسلم أن يكون دائماً على أهبة العمل والبذل فإن طلب دينه منه الجهد بذله، أو المال أنفقه، أو النفس قدمها مطمئناً. المسلم جندي للحق، مجهز النفس دائماً، إن لم يكن مجهز اليد، وهو إن يعش في الجهاد عملاً وتنفيذاً عاش الجهاد نية وقصداً. والذي يعيش لنفسه ولدنياه بعيداً عن الجهاد ـ عملاً ونية ـ إنما هو المنافق الذي آمن لسانه ولم يؤمن قلبه.. ليس بمسلم صادق الإسلام ذلك الذي يثاقل إلى الأرض، ويخلد إلى الراحة والدعة ويؤثر سلامة دنياه على سلامة دينه»[٧].

---

[6] Mitchell- op .cit .P .319.

[٧] مجلة الدعوة، غرة جمادى الأولى (إبريل ١٩٧٧)، د. يوسف القرضاوي، مقال: الجهاد في الإسلام.

أما الشيخ البنا فهو يوجه حديثه إلى أتباعه قائلاً: «أيها الإخوان المسلمون، لقد قام هذا الدين بجهاد أسلافكم على دعائم قوية من الإيمان بالله، والزهادة في متعة الحياة الفانية وإيثار دار الخلود، والتضحية بالدم والروح والمال في سبيل مناصرة الحق وحب الموت في سبيل الله»[8].

ويقول في رسالته «نحو النور»: «وتحتاج كذلك الأمم الناهضة إلى القوة وطبع أبنائها بطابع الجندية ولا سيما في هذه العصور التي لا يضمن فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب، والتي صار شعار أبنائها جميعاً القوة أضمن طريق لإحقاق الحق.. والإسلام لم يغفل هذه الناحية، بل جعلها فريضة محكمة من فرائضه، ولم يفرق بينها وبين الصلاة والصوم في شيء. وليس في الدنيا كلها نظام عني بهذه الناحية، لا في القديم ولا في الحديث كما عني بذلك الإسلام في القرآن وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته»[9].

ويستند الشيخ البنا في دعوته إلى الجهاد إلى رصيد كبير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة..

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». وقوله تعالى «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم».

والآية الكريمة «فليقاتل في سبيل الله الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة».

والحديث الشريف «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما احملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل».

رواه البخاري ومسلم.

---

(٨) حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس - ص٦٣.

(٩) حسن البنا، الرسائل الثلاث، ص٩٣.

وعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «من لقي الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمه» رواه الترمذي وابن ماجة.

وحديث شريف آخر «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» رواه مسلم.

لكن خصوم الشيخ لديهم هم أيضاً رصيدهم، وهم يذكرونه دوماً بأنه يستخدم العنف ضد مسلمين لا يقلل اختلافهم في الرأي معه ومع جماعته من درجة إسلامهم..

ويردون على حجج الشيخ بالآية الكريمة «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر».

وبالآية الكريمة «وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء». والحديث موجه إلى رسول الله، وله أيضاً وجهت الآية الكريمة «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين».

وله أيضاً «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين».

ويقول الله تعالى معلماً المسلمين «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن».

وحتى مع الطغاة والكفار «اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى».

وأحاديث شريفة كثيرة «لا تروعوا المسلم فإن روعة المسلم ظلم عظيم».

وحديث شريف آخر «من أخاف مؤمناً كان على الله ألا يؤمنه من إفزاع يوم القيامة».

وحديث شريف ثالث «لا يشر أحدكم إلى أخيه بسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار».

وآيات وأحاديث كثيرة بغير حصر، ومع ذلك يمضي الشيخ البنا في طريقه الوعر.. يدوس الشوك هو ورجاله.

ويختتم البنا «رسالة الجهاد» موجهاً حديثه إلى أتباعه «أيها الإخوان إن الأمة التي تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها الله الحياة العزيزة والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا نفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة، واعلموا أن الموت لابد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموها في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة.. فاعملوا للموتة الكريمة تظفروا بالسعادة الكاملة. رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد في سبيله»[١٠].

وبعد.. فهذه هي نظرية الشيخ في الجهاد فكيف كان، وإلام انتهى؟

* * *

كانت الجوالة هي البداية الحقيقية.

ولقد تابعنا كم بذل البنا من جهده واهتمامه دعما لجهاز الجوالة والكشافة، والحقيقة أن الهدف الأساسي للجوالة لم يكن مجرد تكوين أداة ردع منظمة على أسس عسكري وانضباط صارم، وإنما كانت الجوالة أيضاً «حقلاً» تتابع فيه أعين المرشد اليقظة العناصر الأكثر حماساً والأكثر إخلاصاً والأكثر طاعة.. وتلتقطها في نواة خاصة.

وقد استخدم البنا «جوالته» كما رأينا في مظاهرات صاخبة كثيراً ما هتفت بحياة الملك، واستخدمها أيضاً في حراسة تجولاته ومؤتمراته واجتماعاته، واستخدمها لإرهاب الخصوم السياسيين بالقوة البدنية في أول الأمر ثم بالرصاص والقنابل بعد ذلك، الأمر الذي دفع حزب الوفد إلى توجيه إنذار إلى حكومة صدقي في عام ١٩٤٦ بأنها ما لم «تحل هذه التنظيمات الشبه عسكرية فإنه سوف يأخذ القضية بين يديه ويعرف كيف يسكت دعاة العنف والشغب».

---

[١٠] حسن البنا، رسالة الجهاد - دار الكتاب العربي - القاهرة. ص٣٧.

وحول هذا الموضوع راجع أيضاً: محمد فهمي الطماوي - المجاهدين ـ القاهرة (١٩٥٢). أحمد نار، القتال في الإسلام -القاهرة (١٩٥٢).

والغريب في الأمر أن وجود الجوالة كان في ذاته أمراً منافياً للقانون، ففي ٨ مارس ١٩٣٨ أصدرت حكومة محمد محمود باشا قانوناً يحظر قيام «الجمعيات أو الجماعات التي يكون لها، سواء من حيث تأليفها أو عملها أو من حيث تدريب أعضائها أو نظامها أو زيهم أو تجهيزهم صورة التشكيلات شبه العسكرية»[١١]. أي «أن جوالة الإخوان كانت ضد القانون العام والخاص على السواء، ومع ذلك سمح ببقاء هذا الجيش حتى في وقت الحرب، وفي الوقت الذي طبق فيه هذا القانون على فرق القمصان الزرق (الوفد) وفرق القمصان الخضر (مصر الفتاة)»[١٢].

ولعل هذا يفسر حرص الشيخ البنا على استخدام الجوالة استخداماً سافراً لصالح السراي والقوى الحاكمة، إذ بدون إشعار السلطة أن الجوالة في خدمتها.. تكون هذه الجوالة عرضة للإلغاء وفقاً للقانون.

ويتساءل أحمد حسين وهو على حق تماماً «عن السر الذي جاز به لدى الحكومة والبوليس أن يكون للجماعة بعد أن انخرطت في المنازعات الحزبية، أن يكون لها هذا الجيش من الجوالة» ويجيب بأن «حكومات الأقلية هي من شجع تكوين هذا الجيش وقام بتمويله باعتباره سلاحاً ضد الوفد الذي يريدون القضاء عليه بأي ثمن ولو بالخروج على كل قانون وكل مألوف». ويمضي أحمد حسين في مرافعته متهماً السلطات بأنها هي التي «أسلمت هؤلاء الشباب لهذه التنظيمات، هذه المظاهرات العسكرية التي زاد من روعتها أنها تجرى باسم الدين»[١٣].

ولعله من المفيد والطريف أن نمضي مع أحمد حسين في مرافعته.. التي يسجل فيها أن وزارة الشؤون الاجتماعية كانت تقدم إعانات مالية لشعب جماعة الإخوان المسلمين بحجة أنها تقوم بنشاط اجتماعي، وأن الشيخ

---

[١١] قانون رقم ١٧ لسنة ١٩٣٨.

[١٢] د. عبد العظيم رمضان، المرجع السابق - ج ٢ - ص١٢٧.

[١٣] مرافعة أحمد حسين، المرجع السابق - ص٤٢.

البنا قد عين في «لجنة التعليم العليا الحكومية» وأن مجالس المديريات والبلديات كانت تسارع في كل مكان إلى مساعدتها، ثم يروى واقعة غريبة.. «وحدث مرة في قسم الخليفة أن منع مأمور القسم رشدي الغمراوي جوالة الإخوان من السير في منطقته واصطدم بهم تنفيذاً للتعليمات التي كانت لديه بمنع حصول أي تجمع، ولكن السلطات عاتبت المأمور على موقفه، وسمحت لجوالة الإخوان بإقامة حفل ضخم أمام مبنى قسم الخليفة كمظهر للانتصار وفرض السلطان. وعندما حلت الجماعة عام ١٩٤٨، وجد بين الأوراق المضبوطة في دورها إخطار موجه من إحدى شعبها (شعبة المحجر) إلى المرشد العام عن إزماعها عقد اجتماع لها كل خميس ومطالبتها المرشد باتخاذ الإجراءات الكفيلة بحرية انعقاد الاجتماع، وقد أشر المرشد على الورقة «بإخطار المحافظة وبوليس قسم الخليفة باعتماد شعبة المحجر كي لا يتعرض أحد لاجتماعها» ويعلق أحمد حسين بأن هذه التأشيرة أشبه ما تكون بتأشيرة وزير الداخلية لا رئيس جمعية»[١٤].

ويشير أحد قادة الجماعة إلى أن البنا قد كون مجلساً أعلى للجوالة من سبعة أعضاء برئاسته وعين الصاغ محمود لبيب مفتشاً عاماً، وبدا المجلس نشاطه بإنشاء مدرسة للمدربين تخرج منها ٣٥ مدرباً بعد شهرين، ثم انطلق هؤلاء المدربون يشكلون الجماعات ويدربونها.. وعند نهاية الحرب بلغ تعداد الجوالة ٤٥,٠٠٠ جوال[١٥].

ما يهمنا في هذا الصدد هو أن البنا قد اهتم بالجوالة أساساً لأنها كانت حقلاً يلتقط منه رجال تنظيمه السري.. ونتوقف عند اعتراف بالغ الأهمية من عبد المجيد حسن ـ قاتل النقراشي باشا ـ أدلى به أثناء التحقيق إذ قال «أن انتقاله من نظام الجوالة بالإخوان إلى النظام الخاص قد تم دون أن

---

[١٤] المرجع السابق، ص٤٢.

[١٥] عبد الغني عابدين (السكرتير العام المساعد لجمعية الكشافة المصرية ووكيل عام جوالة الإخوان المسلمين) ـ تقرير عن النشاط الكشفي لجماعة الإخوان المسلمين.

يحس تغييراً طرأ على وضعه لاتفاق النظامين في التدريبات وأسلوب التعامل والعلاقات داخل التنظيم»[16].

وتلك هي القضية الأساسية.. الجوالة كانت مجرد وعاء أو مرحلة أو مصفاة تقود الأخ الأكثر انضباطاً والأكثر طاعة والأكثر حماساً.. إلى الجهاز الخاص.

* * *

ومنذ أن بدأت مرحلة التنفيذ والشيخ البنا يرقب الجيش باهتمام بالغ ويبذل جهده في التقاط أكبر عدد ممكن من الضباط وضمهم إلى صفوف تنظيم سرى في جماعته.

وإمعاناً في السرية كان الشيخ يمسك بيده زمام هذا الأمر.

وبدأت كوادر الجماعة في التقاط مجموعات من الضباط وتقديمهم واحداً واحداً وفي سرية تامة للمرشد.

«وفي هذا الوقت كان الشاب جمال عبد الناصر يكون أولى ارتباطاته السياسية مع شاب أزهري يكبره في السن بسبع أو ثماني سنوات هو أحمد حسن الباقوري (عضو جماعة الإخوان المسلمين)»[17].

ومجدي حسنين يقول «كنت حتى ١٩٥٠ معروفاً بميولي للإخوان، وليس بميولي فقط، بل كنت على علاقة وثيقة بالمرحوم حسن البنا، وكنت أدرب أعداداً كبيرة من الإخوان»[18].

وكذلك حسن إبراهيم الذي يقول «كما قمنا بالاتصال مع الإخوان المسلمين من خلال الصاغ المتقاعد محمود لبيب وكان المرحوم حسن البنا يلتقي بنا»[19].

---

(١٦) طارق البشري ـ المرجع السابق ـ ص ٥٠.

(17) Lacouture, Jean - Nasserp New York (1973) p .28.

(١٨) جمال الشرقاوي، حريق القاهرة ـ دار الثقافة الجديد (١٩٧٦) ـ شهادة مسجلة لمجدي حسنين.

(١٩) روز اليوسف. ١١ـ ٤ـ ١٩٧٧ـ أحمد حمروش: اعترافات شهود يوليو.

وخالد محيي الدين كان على علاقة لفترة من الوقت بالشيخ حسن البنا.. ويورد أحد الباحثين قائمة بأسماء أعضاء مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢ وانتماءاتهم السياسية فيحدد الانتماءات التالية:

ـ عبد الحكيم عامر: إخوان مسلمين.

ـ كمال الدين حسين: إخوان مسلمين.

ـ جمال عبد الناصر: الوفد ـ الإخوان المسلمين.

أنور السادات: مصر الفتاة ـ الإخوان المسلمين[٢٠].

ولفترة من الوقت كان أنور السادات ذا علاقة وثيقة بشكل خاص مع الشيخ البنا وقد تحدث عنها تفصيلاً في كتابه «صفحات مجهولة».

كذلك كان رشاد مهنا وحسين الشافعي على علاقة بالإخوان[٢١].

ويقول أحد الكتاب أن جمال عبد الناصر قد سئل في أحد الاجتماعات التمهيدية للضباط الأحرار «هل نتوقع من الإخوان خيراً» وأجاب عبد الناصر «نعم خير كثير»[٢٢].

ويروى خالد محيي الدين في حديث شخصي معه أن الضباط كانوا يلحقون مباشرة بتشكيل سرى خاص وأن مراسم انضمامهم كانت توحي بالسرية المطلقة حيث تتم البيعة في غرفة مظلمة ويقسم الضباط على مصحف ومسدس.

---

(20) Vatikiotis - Egyptian Army in Polotics - op .cit. p .47.

(21) Mitchell- op .cit .P .98.

(٢٢) المصور، ٣١ـ ١٠ـ ١٩٥٤ـ حلمي سلام: قصة ثورة الجيش من المهد إلى المجد. ولمزيد من التفاصيل حول علاقة الإخوان راجع :

Nagib, Mouhaamed - Egypts Destiny - a personal statement - Lon - don 1955 p .32 .

Hayden, D .Egyyots SUrprise Dictatorship - National and English re - View, (oct .1952) p .212

وبعد فترة من الوقت.. تباعد عدد من هؤلاء الضباط الذين لم يجدوا في حركة الإخوان تحقيقاً لطموحهم الوطني.. و كان تباعدهم في فترة اللقاء السافر بين الجماعة والرجعية والسراي.. في عامي ١٩٤٦- ١٩٤٧.

لكن الجماعة استطاعت أن تكسب إلى صفوفها أعداداً لا بأس بها من الضباط مستفيدة من حماس العديد منهم للحرب في فلسطين.. ومن موقفها إزاء هذه الحرب.. وهكذا استطاع الشيخ البنا أن يوجد لنفسه ركيزة لا بأس بها في صفوف الجيش، وثمة أسماء بارزة في هذا الصدد مثل عبد المنعم عبد الرؤوف وأبو المكارم عبد الحي ومعروف الحضري[٢٣].

وإذا كان أحمد حمروش يؤكد في كتابه «قصة ثورة ٢٣ يوليو» أن كثيراً من الضباط قد انفضوا عن الجماعة إبان حرب فلسطين بسبب تدخل القيادة السياسية للجماعة في التكتيكات الفنية للقتال، ضارباً لذلك مثلاً بالشيخ محمد فرغلي الذي كان قائداً لمتطوعي الإخوان في حرب فلسطين والذي صمم على أن يهجم الإخوان على أعدائهم متراصين سنة عن رسول الله، الأمر الذي أوقع فيهم خسائر فادحة، والذي دفع عدداً من الضباط إلى التمرد على تعليمات الجماعة والانفضاض عنها[٢٤]، فإن باحثاً آخر يقول: أن دور الإخوان في حرب فلسطين كان سبباً في تقاربهم أكثر فأكثر من مجموعات أوسع من الضباط[٢٥].

والحقيقة أن الجهاز السري كان مكوناً من ثلاث شعب: الجهاز المدني، وجهاز الجيش وجهاز البوليس[٢٦]. وكان رئيس كل تشكيل يتصل بالمرشد العام مباشرة. وتنبع أهمية تشكيل الجيش من أنه كان يكفل

(٢٣) محكمة الشعب ـ الجزء الرابع (محاكمة محمود عبد اللطيف) شهادة محمد محمد فرغلي، ص٧٦٦.

(٢٤) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو ـ ج١ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.

(25) Khadduri - op .cit .p .76.

(٢٦) محكمة الشعب ـ الجزء الثاني ـ شهادة السيد حسين أبو سالم. ص ٣٤٧.

للجهاز السري المدني إمــدادات الذخـيرة والأسـلحة والتدريــب. وأنــه كــان النـواة الـتي يؤمـل بهـا البنـا الوثـوب إلى السـلطة يومـاً مـا، والغريــب أن السلطات قد أغمضت عينيها أيضاً عـن نشـاط الإخـوان في الجيش، فـأنور السادات يلتقي لأول مرة بالشيخ حسـن البنـا عندمـا حضـر البنـا إلى أحـد معسكرات الجيش ليحضر احتفالاً بذكرى المولد النبوي وألقى خطاباً ضافيـاً جذب أنظار الضباط[٢٧].

ويضيـف السـماح للبنـا بالنشـاط المكشـوف في صفـوف الجيـش علامــة استفهام كبيرة؟

والسؤال هو: ماذا كان يريد البنـا مـن هـذا النشـاط المكثـف في صفـوف الجيش؟

والحقيقة أن هذا السؤال قد وجه في اجتماع سرى عقد في جزيرة الشــاي وحضره ضابطان أحدهما جمال عبـد النـاصر والآخـر الصـاغ محمـود لبيـب المستشار العسكري للمرشد العام.. ووجه جمال عبد الناصر السـؤال وأجابـه محمود لبيب «علينا أن نبدأ في تكوين مجموعات من الضبـاط ذوي الإيمـان والعقيدة، وعندما يحين الحين نبرز جميعاً في صف واحد لنتصـدى لعدونـا ونمنعه من محاربة دعوتنا»[٢٨].

* * *

لكن ذلك كله يصب، ويتجه نحو ما هو أهم: «الجهاز الخــاص» الـذي اشتهر باسـم «الجهـاز السـري. برغـم أن الكثـير مـن البـاحثين لا يـوردون تحديداً زمنياً لقيام هذا الجهاز.. الذي قام ونشأ ونشط في سرية تامة حتـى عن قيادات الجماعة ذاتها.. وبرغم أن المنشقين الأول من صفوف الجماعـة في الإسماعيلية عام ١٩٣٠ قد اتهموا البنا فيما اتهمـوه بأنـه يقـوم «بأعمـال

---

[٢٧] حتى يعلم النــاس: (١٩٥٤) ص (وهـو كتيـب أصـدره قـادة الإخـوان في الأردن والعـراق والسودان يحددون فيه موقف الإخوان من ثورة يوليو).

[٢٨] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية. ص ١٢٨.

سرية»[٢٩]. وبرغم أن المؤتمر الثالث للجماعة الذي عقد في ١٩٣٥ قد حدد مراتب العضوية بالأخ المساعد، والأخ المنتسب العامل ثم الأخ المجاهد .. وأن الأخ المجاهد لم يحدد له موقع على الخريطة التنظيمية العلنية للجماعة، بما يوحي أن« المجاهدين» قد نظموا في الجهاز الخاص..

إلا أن أكثر الباحثين يرجحون أن الجهاز الخاص قد تكون في أعقاب المحنة الأولى في وقت ما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣[٣٠]. ولكن الشيء المؤكد أن«الجهاز الخاص» لم ينشأ من فراغ فلابد أن الشيخ الذي تابع في حرص بالغ إعداد شباب الجماعة عقائدياً وتربوياً ورياضياً وعسكرياً، والذي حدد مرتبة في الهيكل التنظيمي منذ عام ١٩٣٥ هي «الأخ المجاهد»، والذي أقام نظامي الكتائب والجوالة، والذي أعلن للإخوان أنهم: سيخاصمون هؤلاء جميعاً (أي كل الساسة المصريين).. أقول لابد أنه كان وعلى أمد طويل يلتقط من هنا ومن هناك النماذج التي يريدها لجهازه الخاص.

والحقيقة أن البنا كان حريصاً على «السرية» التامة في تحركاته، وكان يعتقد أن الدعوة يتعين عليها أن تتحقق بالسرية حفاظاً على صمودها وضماناً لاستمرارها[٣١]. وقد رأينا كيف هدد البنا المنشقين عنه في عام ١٩٣٨ وتوعدهم إذا ما أفشوا «أسرار» الجماعة.

ويلاحظ أن نشأة «الجهاز الخاص» قد صاحبها إحداث تغييرات جذرية في الهيكل التنظيمي للجماعة وهو يسير في ثلاثة خطوط متوازية كل منها له أسلوبه وقواته ومنهاجه وقيادته.

* نظام الأسر ويضم الأعضاء العاديين وهو الوعاء الأساسي لعضوية الجماعة.

* نظام الجوالة ويضم الأعضاء الأكثر حماساً والأكثر استجابة والأكثر طاعة..

---

[29] Mitchell- op .cit .P .30

[30] Ibid- p.30.

[٣١] أحمد أنس الحجاجي، الرجل الذي أشعل الثورة - ص١٦- ٣٥.

* النظام الخاص وهو جهاز سري مطلق السرية يتكون من ثلاث شعب: التشكيل المدني ـ تشكيل الجيش ـ تشكيل البوليس.

ويتبع الجهاز السري عدد من التشكيلات المتخصصة مثل «جهاز التسليح» و«جهاز الأخبار» ويعتبر الأخير بمثابة جهاز المخابرات الخاص للجماعة.. وقد استخدم في الفترة الأولى للتسلل إلى صفوف التنظيمات الشيوعية وجمع أكبر قدر من المعلومات عنها..[٣٢].

وقد وضع البنا واحداً من أخلص خلصائه على رأس هذا الجهاز هو عبد الرحمن السندي، وكان صالح عشماوي قد تولى رئاسة الجهاز في البداية ثم تنحى عنها.

وينقسم «النظام» إلى «جماعات»، الجماعة مكونة من خمسة أشخاص، والشعبة المهمة بها عدة جماعات وكل جماعة يرأسها واحد وتتدرج على نظام هرمي يرأسه عبد الرحمن السندي، ومعظم هذا النظام في القاهرة، وقد توجد مراكز أو مناطق إدارية تخلو من هذا النظام مثل أسوان، وذلك لأنها بعيدة ولا يتيسر لها فهم أغراضه[٣٣].

ويدرب أعضاء الجهاز تدريباً عسكرياً قاسياً وعنيفاً ويعتادون الطاعة التامة والاستعداد للتضحية.. «وبعد أن ينتهي التدريب يقسم العضو يمين البيعة: اقسم بالله العظيم أن أكون حارساً أميناً لمبادئ الإخوان مجاهداً في سبيل الله على السمع والطاعة في المعروف. وأن أجاهد نفسي ما استطعت»[٣٤].

وفي المراحل الأولى كان قسم البيعة يتم وفق مراسم خاصة (في حجرة شبه مظلمة مفروشة بالحصير ويتم القسم على مصحف ومسدس) وكان يكتسب «مذاقاً» خاصاً إذ كان يتم عادة بين يدي الشيخ البنا نفسه.

---

[32] Mitchell- op .cit .P .31.

[٣٣] محكمة الشعب ـ الجزء الأول ـ المرجع السابق (شهادة هنداوي دوير) ص٣٢.

[٣٤] المرجع السابق، ص١٢٦.

ويتباهى أحد قادة الجهاز السري هنداوي دوير «أنا أقسمت لحسن البنا شخصياً»[٣٥].

وقد منح البنا جهازه الخاص دفعة قوية واهتماماً زائداً في أعقاب خروج د. إبراهيم حسن والسكري وأتباعهما على الجماعة وتصاعد هجماتهم على ديكتاتورية المرشد واستبداده وحده بالرأي، ولعله بذلك قد أحس بحاجته إلى جهاز محكم التصميم يتغلغل به نفوذه الشخصي في كل أنحاء الجماعة، ولعل الجهاز كما أشار الكثيرون كان أيضاً لردع المعارضين في الداخل كما كان أداة لحماية الدعوة وإرهاب خصومها[٣٦].

وكان عضو الجهاز السري يربى تربية خاصة، ويهيمن عليه عقائدياً بحيث تسيطر عليه فكرة «الجهاد» و«الشهادة في سبيل الله» وقد حرص البنا دوما على أن يربط بين فكرة الجهاد وفكرة الموت في سبيل الله. معلناً أن النهاية المثلى ـ والتي لا يوجد أفضل منها ـ هي الاستشهاد.. ولعل المتابعة الدقيقة لكتابات الشيخ البنا تلاحظ استخدامه تعبيرات غريبة في هذا الصدد.

ففي عام ١٩٣٧ حيث احتدمت الثورة الفلسطينية كتب البنا مقالاً عن الجهاد أسماه «صناعة الموت»، وفي أوج نشاط الجهاز السري وقوته أعاد البنا نشر المقال بعد أن غير العنوان ليصبح أكثر غرابة «فن الموت»[٣٧].

وهكذا.. وبعد أن يتقن عضو الجهاز السري «فن الموت» يتقدم للعمل، فيقول محمود عبد اللطيف أثناء محاكمته بتهمة محاولة اغتيال جمال عبد الناصر..

---

[٣٥] المرجع السابق، ص١٢٦.

[٣٦] صدرت عدة كتب عن الجهاز السري ومهامه وأساليب عمله كلها تقريباً بمنهج معاد مثل:

ـ محمد التابعي. هؤلاء هم الإخوان ـ القاهرة (١٩٥٤).

ـ كمال كيرة ـ محكمة الشعب.

ـ جرائم عصابة الإخوان (سلسلة كتب قومية). ويلاحظ افتقاد هذه الكتب جميعا للبعد الأكاديمي وللموضوعية في العرض والتحليل.

[٣٧] الإخوان المسلمون، ١٦ـ ٨ ـ ١٩٤٦.

« ـ المدعي: فهمت إيه الفكرة من النظام السري؟

ـ المتهم: الفكرة هي الجهاد في سبيل الله ودراسة القرآن والسيرة...ده اللي فهمته.

ـ المدعي: الغرض منه إيه؟

ـ المتهم: الغرض منه محاربة أعداء الدعوة الإسلامية.

ـ المدعي: ما تعرفش الخطة. أنت رايح تقتل الرئيس مفكرتش تعمل إيه علشان تهرب؟

ـ المتهم: لا مفكرتش. وهنداوي قال لي الحرس بعد كده سيطلق عليك النار وتموت.

ـ المدعي: كنت عارف أنك رايح تموت؟

ـ المتهم: أيوه.

ـ المدعي: مفكرتش في طريقة للهرب؟

ـ المتهم: لا»[٣٨].

ويلاحظ أيضاً أن الشيخ البنا قد بدأ على أثر تكوين الجهاز السري في إعداد بناء فكري متكامل يضع عضو الجهاز السري وجهاً لوجه أمام ما أسمي «بمشروعية الجهاد» التي تفرض على المسلم أن يقاتل كل من يعترض سبيل الدعوة، وكانت قمة نجاح البنا كداعية وكمنظم أنه قد استطاع أن يغرس في نفوس أعضاء هذا الجهاز أن الموت في سبيل الدعوة سهل وبسيط ومرغوب فيه، وأن المؤمن المجاهد يخطو خطوة رائعة واحدة تنقله من حياة فانية إلى حياة خالدة باقية ينعم فيها بالجنة التي وعد بها الشهداء..[٣٩].

---

[٣٨] محكمة الشعب ـ الجزء ـ الأول ـ المرجع السابق، ص ١١.

[٣٩] راجع في هذا الصدد ـ محمد لبيب البوهي، مع شهداء الإسلام ـ القاهرة (١٩٥٢).

وهكذا أعد البرنامج الدراسي الجديد لإخوان الأسر وفقاً لهذه الفكرة وفي إطارها.. كذلك كانت الاحتفالات الإسلامية مثل ذكرى غزوة بدر وغيرها مناسبات هامة لتكريس هذه الفكرة وغرسها باستمرار في نفوس أعضاء الجماعة.. وكان البنا يلح دائماً على إقناع أعضاء الجهاز السري بأنهم «جند الرحمن وحماة دينه» وأن على أكتافهم «وحدهم» سيكون خلاص الوطن الإسلامي والعقيدة الإسلامية.. أليسوا هم «جماعة المسلمين» و«أهل الحل والعقد في الإسلام».

هكذا تكوّن الجهاز، وبهذه المنطلقات تواجد واتسع ليصبح في عام ١٩٤٨ مكوناً من حوالي ١٠٠٠ عضو[٤٠]. منظمين تنظيماً غاية في الدقة، مسلحين تسليحاً عالي الكفاية، مدربين تدريباً جاداً، وفوق هذا وذاك على استعداد تام للموت في سبيل الدعوة وفي سبيل أداء ما يؤمرون به من مرشدهم.

ألم يقسموا له يمين الولاء؟ ألم يبايعوه على الطاعة التامة في المنشط والمكرة؟

وإذا كان النظام الخاص سرياً، فقد ظل سرياً حتى بالنسبة لقيادة الجماعة ذاتها.. يقول أحد قادة الجهاز إبراهيم الطيب في اعترافاته أمام المحكمة «مكتب الإرشاد لم يكن يتعرض لمثل هذه المسائل (الجهاز الخاص) لأنها كانت تفهم على أساس المعمول به في أيام الشيخ حسن البنا فكان ليس له (مكتب الإرشاد) أن يتدخل في المسائل التي تعتبر مش من اختصاصه»[٤١].

بل أن الكثيرين من هؤلاء القادة لم يكونوا يعلمون أصلاً بأمر وجود مثل هذا الجهاز إلا بعد أن نشأ بفترة طويلة.. يقول الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان في اعترافاته أمام المحكمة:

---

[40] Mitchell- op .cit .P .205.

[٤١] محكمة الشعب ـ الجزء الثالث (شهادة إبراهيم الطيب) ص٥١٦.

«ـ المدعي: إيه مركزك في الجماعة؟

ـ الشاهد: وكيل الإخوان المسلمين.

ـ المدعي: إيه معلوماتك عن النظام الخاص؟

ـ الشاهد: أيوه يا أفندي دخلنا الإخوان المسلمين حوالي سنة ١٩٣٩ــ ١٩٤٠ وبعد فترة لغاية سنة ١٩٤٦ فهمت من الأستاذ حسن البنا أن هناك شباباً من الإخوان يتدربون على السلاح.

وحيث أن التدريب لا يبيحه القانون فكانوا يأخذون بعض في أماكن بعيدة في قرى الصعيد أو في المقطم ويتدربون، وهناك يجيلهم بعض ناس يفهموا في هذه الأمور ويدربوهم سراً»[٤٢].

أما منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام فيقول في اعترافاته أمام المحكمة «.. وحصل أن هذا الجهاز كان موجود لما دخلنا الجماعة، واحنا منعرفش أنه موجود لغاية ما حصلت حادثة الخازندار»[٤٣].

وكانت حرب فلسطين فرصة سانحة..

وكان الشيخ حسن البنا ماهراً إلى أقصى درجات المهارة في استخدام الشعور القومي والإسلامي واعتلاء موجته لتعزيز مكانة الجماعة.. ومنذ عام ١٩٣٦ «سنحت الفرصة لحسن البنا في ثورة فلسطين فوجد فيها ضالته للعمل والتوسع، وأكسبته تأييد الثورة الفلسطينية وعطف مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني»[٤٤]. هكذا تؤكد كريستينا هاريس.

وإذا كانت الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ موجهة في الأساس ضد الاحتلال البريطاني، الأمر الذي أثار تردد الحكومة المصرية حيال أي تأييد

---

[٤٢] المرجع السابق، ص٥٥٧.

[٤٣] محكمة الشعب ـ الجزء السادس ـ محاكمة حسن الهضيبي ـ المرجع السابق (شهادة منير الدلة) ص١٣٦.

[44] **Harris, christina - op .cit .p .182.**

رسمي لها، فقد تلاقت آراء عدة على إفساح مجال التأييد الشعبي عن طريق الإخوان المسلمين.

وما يعنينا في هذا الأمر هو أن القضية الفلسطينية قد أتاحت إمكانيات عدة أمام الإخوان.. فمن خلال تأييدها اتضح البعد الإسلامي والعربي للجماعة، ومن خلالها أيضاً أمكن للجماعة أن تمد نشاطاتها إلى المنطقة العربية كلها وانتشرت شعبيتها من فلسطين إلى سوريا إلى لبنان إلى غيرها من البلدان.. لكن أكثر ما يعنينا في هذا الفصل هو أن مساندة الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦[٤٥] ثم الاستعداد للمشاركة في حرب فلسطين ١٩٤٨ كانا الفرصة الذهبية أمام الشيخ البنا ليحشد ترسانة ضخمة ويدرب رجاله علنا تحت ستار الإعداد لحرب فلسطين.. مستفيداً في ذلك كله من تيار قومي جارف.

وفي المحاكمات التي جرت لأعضاء الجماعة عام ١٩٥٤ قيل الكثير حول تصرفات غير سليمة في الأموال التي جمعت باسم الجهاد في فلسطين.. وحول تجميع السلاح بحجة حرب فلسطين ثم تخزينه في مخازن الجهاز السري واستخدامه في عمليات الإرهاب الداخلي[٤٦].. ولأن الاتهامات بغير أدلة فأننا لا نوردها.

وعلى أية حال فإن حرب فلسطين التي كانت سبباً في كسب سياسي ضخم للجماعة، كانت هي بذاتها واحدة من أسباب محنتها الكبرى..

كذلك فإن هذه الحرب قد أوضحت ـ لكل من لا يعرف ـ أن الجماعة تمتلك جيشاً مسلحاً بالفعل وأن هذا الجيش إذ يقاتل في فلسطين فإنه يمكنه أن يقاتل في مكان آخر.. وربما في مصر.. وقد تساقط الكثير من متطوعي الإخوان على أرض فلسطين خصوصاً في الأيام الأولى حيث تصوروا

---

[٤٥] لمزيد من التفاصيل حول دور الإخوان في ثورة ١٩٣٦ بفلسطين راجع عبد الباسط البنا، تاج الإسلام وملحمة الإمام ـ القاهرة (١٩٥٢)، ص٣٧.

[٤٦] الجمهورية، ٢٢ـ ١١ـ ١٩٥٤.

أن صيحات الجهاد العالية والمجابهة الشجاعة وحدها تكفي فحصدت مدافع الصهاينة الكثير منهم الأمر الذي دفعهم إلى تغيير أساليبهم في القتال واللجوء إلى حرب العصابات[٤٧].

يقول أحمد حسين أن حرب فلسطين قد أمدت الإخوان «بفرصة ذهبية لحشد السلاح والتمرن على استعماله بدعوى أنه من أجل فلسطين» وان الإخوان «كان لديهم كميات من الأسلحة والذخائر جمعوها تحت ستار تجهيز المتطوعين إلى فلسطين وهم يعدونها لإحداث انقلاب في مصر بالقوة»[٤٨].

ويقول د. محمد حسين هيكل أنه خلال حرب فلسطين «قويت شوكة جماعة الإخوان فأصبحوا قوة يُخشى بأسها»[٤٩].

وعندما صدر قرار حل الجماعة وقع المتطوعون من الإخوان في فلسطين في مأزق.. فقد حاصرت مواقعهم قوات الجيش وخيرّهم رئيس الأركان اللواء فؤاد صادق بين إلقاء السلاح والعودة لمصر أي للمعتقلات أو الخضوع التام لقواته.. وكان المتطوعون قد تلقوا رسالة من البنا يلح عليهم فيها الخضوع للنظام وعدم التصادم فاختار أغلبهم هذا الحل.. وبقوا في فلسطين تحت إمرة الجيش المصري. وبعد اتفاقية رودس نزع سلاحهم وأرسلوا إلى معسكرات الاعتقال في الطور وهايكستب[٥٠].

ولنعد إلى الجهاز السري مصدر قوة الشيخ ومصدر ضعفه، حلمه القديم في «الجهاز» وكابوس الجماعة في المحنة.

ولنقلب صفحات هذا الجهاز بحثاً عن الفهم العملي لدى أعضائه عن فكرة الجهاد..

---

[٤٧] كامل إسماعيل شريف، الإخوان في حرب فلسطين ـ الطبعة الثانية ص٨٠ وأيضاً: محمد البوهي ـ مع شهداء الإخوان، المرجع السابق، ص٢٤-٣٦.

[٤٨] أحمد حسين. واحترقت القاهرة ـ ص٣١٣ ـ٣١٥.

[٤٩] د. محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، ج٢، ص٣٣٨.

[٥٠] كامل إسماعيل شريف، المرجع السابق، ص ١٤٦، ١٨٥.

الفصل الأخير..
ثم أسدل الستار

وفي السياسة كما في القصص الخرافية يحدث أن الصياد يخرج بيده المارد من القمقم ثم يخشاه، وهكذا كان الأمر في العلاقة بين القصر وحكام الأقلية وبين الشيخ البنا وجماعته.

لقد أطلق الصياد المارد ليخيف به الوفد وقوى اليسار وليستخدمه كأداة لحشد بعض القوى الجماهيرية تأييداً لسياسة ما كان لها أن تجد مؤيدين.. فإذا ما انتصب قائماً، وإذا ما استمد من سنده الديني شموخاً، ومن تسلح جهازه السري قوة بدأ الصياد يخاف المارد..

وبدأ يشعر أن الوفد يمكن التعامل معه بهذه الوسيلة أو تلك، وأن المعتقلات التي فتحت مصاريعها ـ بمباركة من الإخوان ـ لتستقبل الشيوعيين والتقدميين يمكن أن تلجم اليسار ولو مؤقتاً.. لكن المارد يبقى مشكلة بغير حل، مستزيداً من قوته بصورة تجعله مخيفاً حتى بالنسبة للرجعيين الذين أيدوه وأمدوه بالمال وتغاضوا عن تسليحه وتسلحه.. وعن أشياء أخرى كثيرة.. وكبار الملاك وكبار الرأسماليين الذين قبلوا من الإخوان «تدينهم» وهجومهم على التقدم، ودعوتهم للعمال بالتزام الخلق القويم.. وعدم اللجوء إلى الإضراب، كانوا في نهاية الأربعينيات في حالة من الذعر البالغ دفعتهم إلى موقف متشنج يرفض أية دعوة إصلاحية أو حتى الحديث عنها همساً..

والإخوان المسلمون مطالبون في نهاية الأمر بأن يقولوا ولو كلمة واحدة عن الأغنياء والفقراء.. ولعلهم قالوها بصورة واهنة ووضعوها بأسلوب لا يغضب أحداً «أن من مهام جماعتنا التوسط بين الأغنياء الغافلين

والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع في المواسم والأعياد»[1].

وكلمات كهذه لا ترضي الفقراء ولعلها لا تحل مشاكلهم، لكنها تغضب «الأغنياء الغافلين» خصوصاً إذا ما كانوا ضيقي الأفق بطبعهم، وتفرض عليهم تطورات الصراعات المزيد من ضيق الأفق..

ويصرخ الباشا في إحدى الروايات ساخطاً «أنا عارف كويس اللي باقوله.. معندناش وقت للمناورات.. دي حاجات أكبر مننا كلنا.. بيجي أي واحد الحكم.. صاحبي ولا عدوي.. بس يخلصنا من المجرمين دول.. البلد بقت وسخة.. مليانة غش.. شيوعية على إخوان مسلمين على اشتراكية.. على وطنية.. على هباب أزرق.. صعاليك فاضيين ما عندهمش حاجة يخافوا عليها.. ح يخسروا إيه.. إحنا اللي ح نخسر كل حاجة»[2] ولعله يبدو غريباً أن يلجأ البحث الأكاديمي إلى استشهادات من قصص وروايات لكن العبارة السابقة بالغة الدلالة.. فهي تجسد وتبلور فهم حكام مصر في مرحلة فشلت فيها كل مناوراتهم وتصوروا أنه لا مخرج إلا عدوهم (الوفد) فالوفد خير من الثورة، وخير حتى من أصدقاء الأمس الذين يتمردون معتزين الآن بقوتهم وجيشهم المسلح.

وكانت حرب فلسطين سبباً آخر..

فقد باركت الرجعية المصرية الحرب في فلسطين وشاركت فيها، وشجعت الإخوان على خوضها.. وربما كانوا يؤملون أن يكتفي الإخوان بخوضها «شعارات وكلمات» فإذا ما انقلبت الأمور جداً، وإذ أصبحت الحرب الفلسطينية تضع النظام في مأزق غريب بين مناورة صنعها بيده ليسكت بها صوت المعارضة الشعبية ويمتصها في منحنيات جانبية، وبين خشيته من تحدي قوى الاحتلال «السيد القديم» وقوى الاستعمار الأمريكي

---

[1] حسن البنا، دعوتنا في طور جديد. دار الكتاب العربي بمصر (١٩٥٤)، ص٣٠.

[2] فتحي غانم، الرجل الذي فقد ظله ـ الكتاب الثالث (ناجي) ـ سبتمبر ١٩٦٩)، ص٣٠.

(السيد الجديد والقابض على عنق السيد القديم) كان لابد من أن تتحول الحرب الفلسطينية إلى مسرحية.. وعلى خشبة المسرح لا يسمح مطلقاً لأي من الممثلين بأن يقلب المشاجرات المسرحية إلى صدام جاد..

وقد بدأت بوادر الصدام في هذا الصدد «عندما رفض النقراشي سفر المتطوعين من أعضاء الجماعة إلى الجزء الشمالي من صحراء النقب فتسللت مجموعات منهم إلى فلسطين من سيناء وبدأوا القتال الفعلي ومهاجمة المستعمرات اليهودية في فبراير شباط ١٩٤٨»[٣].

والإنجليز الذين هادنوا الشيخ وهادنهم يخونون العرب والإسلام في فلسطين خيانة تجرح وتحرج كل من والاهم.

ويدخل الميدان عنصر جديد.

ففي ١٧ فبراير ١٩٤٨ تهتز الرجعيات العربية كلها إذ تقع محاولة انقلاب في صنعاء ضد الإمامة المتخلفة والفاسدة ويقتل الإمام وثلاثة من أبنائه.

ولقد هزت المحاولة الرجعيات العربية جميعاً، التي كانت ترى في أية محاولة للتغيير العنيف عدوى يمكن أن تنتشر على أرضها.. ولقد دهش الجميع عندما وجدوا أن «أصابع» الإمام البنا ممتدة بعيداً حتى صنعاء. وعندما أعلنت جماعة الإخوان نفسها شريكاً في الصراع اليمني ووسيطاً بل وحكماً يملي شروطه ويتقدم بمطالب إصلاحية ويحدد المناصب التي يجب أن توزع على قادة الانقلاب الذين اتضح للجميع أنهم كانوا على علاقة وثيقة بالشيخ البنا، وهو أمر لم يحاول الشيخ أن يخفيه، بل لعله ــ في بعض الأحيان ـ تعمد الزهو بهذه الحقيقة[٤].

---

[٣] طارق البشري، المرجع السابق، ص٢٦٠.

[٤] لوجهة النظر المعادية لتحرك الإخوان في اليمن، راجع: الإخوان والإرهاب. القاهرة (١٩٥٥)، ص٤٢- ٥١. ولوجهة نظر الإخوان راجع: محمد الغزالي، من هنا نعلم. الطبعة الرابعة. الذي يمجد الانقلاب كتحرك إسلامي ضد حكم الكهانة، ص١٠٦. وراجع أيضاً: مجلة المباحث، ١٢- ١٢- ١٩٥٠.

ولعل في هذا ما يخيف الرجعية المصرية الحاكمة أشد الخوف.. ولكل ما سبق بدأت العلاقات تتردى بين الشيخ والملك وحكام الأقلية.. وكانت الجماعة تعاني من الوهن الداخلي وتفتقد الدعم الخارجي من أي من القوى السياسية المسيطرة، وكان سوء علاقتها بالملك هو نقطة التحول الأساسية لديها[٥].

وعندما يقف الأخ، المجاهد، المسلح، موقف التحدي، ويشعر بأنه مطالب بأن يحمي دعوته وأن يجابه خصومها.. فإن العقل يخلي مكانه تماماً كي يتكلم الرصاص والديناميت.

* * *

وفي يناير ١٩٤٨ أعلن البوليس أنه اكتشف بمحض الصدفة مجموعة من الشبان تتدرب سراً على السلاح في منطقة جبل المقطم، وأنه بمداهمة المجموعة ــ التي قاومت لبعض الوقت ــ ضبط البوليس ١٦٥ قنبلة ومجموعات من الأسلحة.. وقال زعيم المجموعة سيد فايز (وكان اسمه جديداً تماماً على البوليس برغم أنه كان أحد القادة الأساسيين للجهاز السري) «إن السلاح يجري تجميعه من أجل فلسطين وأن الشباب يتدرب من أجل فلسطين»، وقال «أنهم اشتروا السلاح من العرب (البدو) من أجل العرب (الفلسطينيين)»[٦].. وتحت ضغوط ووساطات من الجماعة أفرج عن سيد فايز وزملائه..

لكن أنظار البوليس بدأت تتجه ناحية شباب الجماعة.

وتكون الخطوة الثانية في ٢٢ مارس ١٩٤٨ عندما يقتل اثنان من الإخوان المستشار أحمد بك الخازندار، وذلك بسبب إصداره حكماً قاسياً على عضو بالجماعة سبق أن أتهم بالهجوم على مجموعة من الجنود الإنجليز في أحد الملاهي الليلية، ويكتشف البوليس الصلة بين الشابين

---

[٥] طارق البشري، المرجع السابق ص ٣٦٩.

[٦] المصري، ٢٤ـ ١ـ ١٩٤٨.

وبـين مجموعـة المقطـم وبـين جهـاز سري مسـلح داخـل جمعيـة الإخـوان المسلمين.. ويقبض لوقت قصير على المرشد نفسه، ولكنه لا يلبث أن يفـرج عنه لعدم توافر الأدلة[٧].

وإذا كان أعضاء الجماعة قد استنكروا الحادث علنـا، فلابـد أن مشـاعر مختلفة كـانت تهـتز في داخلهـم، فالجهـاد حـق، وهـو واجـب، والقتيـل ارتكب جرماً في نظرهم لأنه حكم السجن على شاب مسلم عضـو الجماعـة لأنه هاجم مجموعة من الكفرة المحتلين أعداء الإسـلام.. ولعـل مثـل هـذه المشاعر لم تكن جديدة علـى مصـر.. فعلـى أثـر انتشـار موجـة الاغتيـالات وخاصة اغتيال أحمد ماهر ,أمين عثمان وغيرهما تحولت سـاحات المحـاكم كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي «إلى منابر لتمجيد القتل والجريمة»[٨].

ولم يكن هذا الحادث سوى مقدمة..

فقـد كـانت حـرب فلسـطين تشـتعل، وإذ أسـهم الإخـوان المسـلمون في اشتعالها فقد أسهموا أيضاً ـ وبقدر متزايد ـ في إذكاء مشـاعر عنصريـة ضـد اليهود المصريين، وحـاولوا جهـد طـاقتهم تحويـل المعركـة مـن عـرب ضـد استعمار وصهيونية، إلى مسلمين ضد يهود.

وكان طبيعياً أن يسهم الجهاز الخـاص المدجـج حتـى أسـنانه بالسـلاح والمسـتفز المشـاعر سـواء بسـبب تعـثر مسـيرة القتـال وخيانـــة الحكومــات العربيـة العميلـة أو بسـبب القبـض علـى «أخــوة الجهــاد» الذيــن قتلــوا الخازندار.. كان طبيعياً أن يسهم في إذكاء نيران التعصب الديني مستخدماً الديناميت..

وفي ٢٠ يونيو ١٩٤٨ اشتعلت النـيران في بعـض منـازل حـارة اليهـود، وفي ١٩ يوليو تم تفجير محلي شـيكوريل وأركـو وهمـا مملوكـان لتجـار مـن اليهود.

---

[٧] آخر ساعة، ٢٤- ١١- ١٩٤٨.

[٨] عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، ج٣، ص٢٦٧.

وإذ توقع الهدنة الأولى في حرب فلسطين يستشعر الناس ريح الخيانة والتسليم، ويسرع الديناميت ليتكلم في الداخل ضد اليهود المصريين بعد أن أحبطت ضد الصهاينة في فلسطين.

ويكون الأسبوع الأخير من يوليو والأول من أغسطس هما أسبوعا الرعب بالقاهرة حيث تتوالى الانفجارات في ممتلكات اليهود وتهتز المرة تلو الأخرى شوارع قلب العاصمة بتفجيرات عنيفة راح ضحيتها الكثيرون.. وخلال أسبوعين دمرت محلات بنزايون وجاتينيو وشركة الدلتا التجارية ومحطة ماركوني للتلغراف اللاسلكي[9]. وفي ٢٢ سبتمبر دمرت عدة منازل في حارة اليهود ثم وقع انفجار عنيف في مبنى شركة الإعلانات الشرقية[10] .ولسنا بحاجة إلى القول بأن الضحايا كانوا كثيرين وأنهم جميعاً من الأبرياء..

وكانت أعين البوليس التي استيقظت مؤخراً قد اكتشفت أحد أطراف الخيط إذ ضبطت ترسانة سلاح ضخمة في عزبة بالإسماعيلية يمتلكها الشيخ محمد فرغلي قائد كتائب الإخوان في فلسطين..

وفي ١٥ نوفمبر ضبطت سيارة الجيب الشهيرة..

تقول مصادر البوليس أن ضبط السيارة تم مصادفة، ولو أن الكثيرين يستبعدون ذلك، وعلى أية حال فإن واقعة سيارة الجيب قد وضعت يد البوليس في ضربة من ضربات الحظ على اثنين وثلاثين من أهم كوادر الجهاز السري وعلى وثائق وأرشيفات الجهاز بأكمله بما فيها خططه وتشكيلاته وأسماء الكثيرين من قادته وأعضائه[11].

---

[9] المصري. ٢٠، ٢١، ٢٩ يوليو، ١، ٤أغسطس ١٩٤٨.

[10] **Resner,Lawrence - Eternal Stranger: The Pilght of Modern Jew From BAgdad to Casablanca . New York (1951) p.116.**

[11] قضايا الإخوان ـ قضية سيارة الجيب: الحيثيات ونص الحكم ـ دار الفكر الإسلامي ـ القاهرة (١٩٥١).

وكان البنا قد أمضى معظم شهر أكتوبر وبضعة أيام من نوفمبر مؤدياً فريضة الحج، فما أن عاد تعرض للقبض عليه بمقولة وجود دليل في سيارة الجيب المضبوطة، وبمقولة مسؤوليته المباشرة عن حادث نسف شركة الإعلانات[١٢].

وخرج البنا من السجن ليبذل جهوداً لإيقاف عجلة الأحداث محاولاً إنقاذ الجماعة من الوقوع فريسة لنظام أصبح غير راض عنها، بل وراغب في الخلاص منها..

لكن سرعة الأحداث كانت تفوق قدرة الشيخ على الحركة..

والشيخ الذي اعتاد المناورة بالسياسة والسياسيين وجد نفسه محاصراً تماماً عاجزاً عن الفعل، فالقصر والسعديون حلفاء الأمس القريب، والذين شجعوا الإخوان ونظروا لتحركهم باتجاه قضية فلسطين بعين الرضا بغية صرف الأنظار عن معركة الجلاء عن مصر وعن قضايا الداخل المختلفة بدأوا يخونون قضية فلسطين كما خانوا من قبل قضية مصر..

والبنا الذي شحن نفوس أتباعه وإلى أقصى مدى بالمشاعر الإسلامية المتوترة تجاه قضية فلسطين يجد نفسه مطالباً إما بأن يواجه القصر والحكومة وإما أن يواجه أتباعه.. وحاول أن يتخذ موقفاً وسطاً ولعله راح ضحية هذه المحاولة.

وكان شباب الجامعة من الإخوان وغيرهم يغلي رفضاً للشروط المهينة التي خضعت لها الحكومة في اتفاقية الهدنة في فلسطين، ولعل البنا حاول أن يلعب بآخر أوراقه (نفوذه وسط طلاب الجامعة)، ليخفف قبضة الحكومة عن عنق الجماعة، وخرج البوليس ليردعهم كعادته هذه الأيام ودارت معارك مسلحة أمام فناء كلية طب القصر العيني أحد مراكز القوة بالنسبة لطلاب الإخوان.. واستخدم البوليس الرصاص واستخدم الإخوان المتفجرات، وإذ كان حكمدار العاصمة سليم زكي يقود المعركة من سيارته

---

[12] Mitchell- op .cit .P .64.

(تلك السيارة التي ركبها حسن البنا منذ أقل من عام ونصف ليهدئ المتظاهرين)، سددت نحوه قنبلة أصابته إصابة مباشرة.. واتهم بيان حكومي جماعة الإخوان المسلمين بقتله.

وعلى اثر ذلك، صدر قرار من الحاكم العسكري، (كانت الأحكام العرفية معلنة بسبب حرب فلسطين) بإيقاف صحيفة الجماعة.. وحاول البنا يائساً إنقاذ الجماعة.. اتصل بكل أصدقائه وحتى بخصومه، ولعب بكل أوراقه، حاول الاتصال بالملك، بإبراهيم عبد الهادي رئيس الديوان الملكي، وبعبد الرحمن عمار (صديقه الشخصي وصديق الجماعة) وكان وكيلا لوزارة الداخلية..

ولأن الشيخ قد فقد أسباب قوته، بدأوا يتلاعبون به، ففي الساعة العاشرة من مساء يوم ٨ ديسمبر اتصل به عبد الرحمن عمار وأكد له أن شيئاً ما سيحدث لتحسين الموقف، وإنقاذ الجماعة. واطمأن الشيخ وقبع هو ومجموعة من أنصاره في المركز العام ينتظرون «الإنقاذ» فإذا بالراديو يذيع عليهم قرار مجلس الوزراء بحل الجماعة بناء على مذكرة أعدها عبد الرحمن عمار نفسه.

وإذ حاول البعض الخروج من مقر المركز العام وجدوه محاصراً واقتحمه البوليس ليلقي القبض على كل من فيه باستثناء البنا.. الذي ترك طليقاً بحجة أنه لم يصدر أمر باعتقاله[١٣].. وكانت حريته هذه عذابه ونهايته.

واشتملت مذكرة عبد الرحمن عمار المرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن طلب حل جماعة الإخوان المسلمين على قرار اتهام طويل يعيد إلى الأذهان كل أعمال العنف التي ارتكبتها الجماعة، حتى تلك التي ارتكبتها بإيعاز من السلطات ولخدمة مصالحها.

فمن بين التهم الثلاث عشرة التي ساقتها المذكرة نجد:

---

[١٣] الدعوة، غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧) - تصريح لسعد الدين الوليلي، السكرتير الخاص للشيخ حسن البنا بعنوان «ماهي الأسرار الحقيقية في قضية اغتيال الشيخ حسن البنا».

* أن الجماعة كانت تعد للإطاحة بالنظام السياسي القائم وذلك عن طريق الإرهاب مستخدمة تشكيلات مدربة عسكرياً هي فرق الجوالة.

* مسؤولية الجماعة عن مقتل أحد خصومها السياسيين (وفدي) في بور سعيد.

* مسؤولية الجماعة بحيازة أسلحة ومفرقعات ومتفجرات (حادث المقطم ـ مستودع السلاح بعزبة الشيخ محمد فرغلي ـ ضبط مصنع للمتفجرات بالإسماعيلية).

* نسف فندق الملك جورج بالإسماعيلية.

* نسف العديد من المنشآت التجارية المملوكة لليهود.

* الاعتداء على رجال الأمن أثناء تأدية وظيفتهم.

* إرهاب أصحاب المنشآت التجارية وتهديدهم بهدف الحصول على «تبرعات» و«اشتراكات» مدفوعة مقدماً لصحيفة الجماعة.

وبناء على هذه المذكرة أصدر الحاكم العسكري العام محمود فهمي النقراشي باشا قراراً عسكرياً من تسعة مواد تنص مادته الأولى: تحل فورا الجمعية المعروفة باسم جماعة الإخوان المسلمين بشعبها أينما وجدت وتغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها وتضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والمبالغ والأموال وعلى العموم كافة الأشياء المملوكة للجمعية. ويحظر على أعضاء مجلس إدارة الجمعية المذكورة وشعبها ومديرها وأعضائها والمنتمين إليها بأية صفة كانت مواصلة نشاط الجمعية وبوجه خاص عقد اجتماعات لها أو لإحدى شعبها أو تنظيم مثل هذه الاجتماعات أو الدعوة إليها أو جمع الإعانات أو الاشتراكات أو الشروع في شيء من ذلك.. ويعد من الاجتماعات المحظورة في تطبيق هذا الحكم اجتماع خمسة فأكثر من الأشخاص الذين كانوا أعضاء بالجمعية المذكورة. كما يحظر على كل شخص طبيعي أو معنوي السماح باستعمال أي مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات أو تقديم أي مساعدة أدبية أو مادية أخرى.

وتنص المادة الثالثة «على كل شخص كان عضواً في الجمعية المنحلة أو منتمياً لها وكان مؤتمناً على أوراق أو مستندات أو دفاتر أو سجلات أو أدوات أو أشياء من أي نوع كانت متعلقة بالجمعية أو بإحدى شعبها أن يقدم الأوراق والأشياء إلى مركز البوليس المقيم في دائرته في خلال خمسة أيام من تاريخ نشر هذا الأمر».

أما المادة الرابعة فتنص على تعيين «مندوب خاص مهمته استلام جميع أموال الجمعية المنحلة وتصفية ما يرى تصفيته ويخصص الناتج للأعمال الخيرية أو الاجتماعية التي يحددها وزير الشؤون».

ودارت ماكينة العنف البوليسي نحو الإخوان.. هؤلاء الذين باركوا دورانها ضد خصومهم من الوفديين والتقدميين والشيوعيين فإذا بغول الديكتاتورية يبتلعهم هم أيضاً.

والمعتقلات التي افتتحت في ظل مباركة الإخوان وتهليلهم يوم ١٥ مايو (أيار) ١٩٤٨ (بمناسبة حرب فلسطين) والتي استقبلت خصومهم السياسيين، أخذت تتوسع كي تستقبل الألوف من أعضاء الإخوان.

وفصل ١٥٠ موظفاً وشرد من القاهرة وحدها إلى الوجه القبلي ٥٠٠ موظف وأبعد عن كليات الجامعة والمدارس الثانوية نحواً من ألف طالب[١٤].

وحاول البنا جهد طاقته أن يوقف طوفان المحنة.. لكنه كان عاجزاً بالفعل.

فالحكومة التي هادنها وهادنته كانت تضرب بعنف وقوة مصممة على تصفية الإخوان، ورفض النقراشي كل محاولات البنا للالتقاء به، والجماعة التي بناها الشيخ بعرقه وجهده، وشيدها بيديه لبنة لبنة عبر عشرين عاماً تنهار أمام عينيه، وجهازه السري تنقطع خطوط اتصاله، فقد كانت ضربة

---

[١٤] حسن البنا، القول الفصل.

سيارة الجيب قاصمة بالنسبة لقيادة الجهاز السري، وشبكات اتصالهن وإذ ضربت قيادة الجهاز فقد البنا اتصاله به بل وفقد سيطرته عليه[١٥].

وفي ٢٨ ديسمبر (كانون الأول) وقعت الواقعة وصعدت المأساة إلى أعلى قممها إذ قام طالب في الثالثة والعشرين من عمره (عبد المجيد أحمد حسن) بإطلاق رصاصتين محكمتي التصويب على رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا.

وشيع أنصار الحكومة جثمان رئيس وزرائهم هاتفين في صراحة «الموت لحسن البنا»[١٦].

وأتى إبراهيم عبد الهادي ليدير ماكينة العنف الرسمي إلى أقصى مداها.. ولتتسع دائرة الاعتقالات في صفوف الإخوان فتشمل ٤٠٠٠ معتقل[١٧]، وتعرض بعض المعتقلين لأقصى درجات التعذيب الوحشي الذي لم تعرف له مصر مثيلاً من قبل، وباختصار «كانت الستة أشهر التالية لتولي إبراهيم عبد الهادي الحكم صورة راسخة في أذهان المصريين جميعاً للسلطة الرسمية الغاشمة وقد اكتسب عبد الهادي لنفسه خلالها عداء كافة فئات الرأي العام المصري»[١٨].

وفي زنازين التعذيب الرهيبة ـ والتي تناولت المتهم وأسرته رجالاً ونساء ـ كان أقصى ما يؤلم الإخوان قيام أجهزة الأمن بتعليق الآية الكريمة «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم».

ولعل شكوكاً كثيرة قد ساورت هؤلاء الشبان من أعضاء الجهاز السري وهم يعانون من التعذيب الوحشي في جدوى عملية الإرهاب ضد خصومهم،

---

(15) Mitchell- op .cit .P .67.

(١٦) المباحث، ٢٣ـ ١ـ ١٩٥١.

(17) Cahiers de Lorient Contemporain II (1949) p .42.

(18) Mitchell- op .cit .P .67.

وفي مدى انطباق «فكرة الجهاد» على ما ارتكبوه من أعمال، ولعل فتاوى مفتي الديار المصرية وبيانات شيخ الأزهر وهيئة كبار العلماء التي تدين أعمالهم قد أثرت فيهم كثيراً.

لكن الطامة الكبرى جاءت عندما استنكر الشيخ البنا نفسه هذه الأعمال واتهم القائمين بها بأنهم «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين»، وهنا انهار المتهمون جميعاً، فقد كان صمودهم واحتمالهم للتعذيب يستمد كل صلابته من «البيعة» التي أقسموا بها بين يدي الشيخ في حجرة مظلمة.. فإذا تخلى الشيخ عنهم وعن فكرة «الجهاد» كما لقنها لهم.. فماذا يبقى؟

ولقد صمد عبد المجيد حسن ثلاثة أسابيع كاملة في مواجهة تعذيب وحشي ضده وضد أسرته لكنه ما لبث أن انهار تماماً عندما قرأ بيان الشيخ البنا الذي نشرته الصحف[19].

والحقيقة أن نزوع الإخوان إلى الإرهاب، كان خطأ فادحاً مكن الخصوم من استخدام العنف الرسمي في أقسى صورة ضدهم.

كذلك فقد عزلهم هذا الإرهاب عن الكثير من القوى التي اعتادت العطف عليهم أو النظر إلى دعوتهم بعين الرضا.

ومع ماكينة التعذيب كانت ماكينة الدعاية تدور لتجرم الجماعة وشيخها ومنهجها وجهازها السري.

*فتوى مفتي الدار المصرية تدين أفعال الجماعة وتتهم القائمين بها بالكفر.

*وبيان من هيئة كبار العلماء.

*وبيان ثالث من شيخ الأزهر.

*وساهم في حملة الإدانة لأعمال العنف والإرهاب الإخوانية مفكرون وكتاب يتمتعون باحترام جمهور الشعب العريض.

---

(19) Mitchell- op .cit .P .78.

* د. طه حسين يقول: «ما هذه الأسلحة وما هذه الذخيرة التي تدخر في بيوت الأحياء وفي قبور الموتى؟ ما هذا المكر الذي يكمن، وما هذه الخطط التي تدبر، وما هذا الكيد الذي يكاد، ولم كل هذا الشر، ولم كل هذه النكر، ولم رخصت حياة المصريين.. يقال أنها إنما رخصت بأمر الإسلام الذي لم يحرم شيئاً كما حرم القتل، ولم ينه عن شيء كما نهى عن التعاون على الإثم والعدوان»[20].

* وكامل الشناوي يقول «إنني حزين أن يوجد إنسان واحد، لا جماعة منظمة، يصنع الموت للناس ويحترف التخريب والتدمير، وإن قلبي ليقطر حزناً إذ كانت هذه الجماعة ترتكب جرائمها باسم الإسلام، وتجد من يصدقون دعواها.. إن الإسلام الذي يقول كتابه الكريم «وجادلهم بالتي هي أحسن» لا يقر الجدل بالمسدسات والمدافع والمتفجرات»[21].

لكن استنكار الجهاز السري وجرائمه لم يأت من خارج الجماعة فقط، بل لعله أتى أكثر ما أتى من داخلها.. بل من شيخها ومنشئها ومؤسس الجهاز السري نفسه.

يقول منير الدلة عضو مكتب الإرشاد العام في اعترافاته أمام المحكمة «.. شفت الأستاذ حسن بعدما حصلت حادثة الخازندار، وكان مرهقاً ومتعباً جداً من الحكاية دي وقال لي الإخوان قاموا بارتكاب الحادثة دي إزاي.. دي جريمة بشعة.. وبهذه المناسبة شكا لي من أن الفكرة من إنشاء أو تكوين الجهاز كانت تفهيم الإخوان معنى الجهاد في نفوسهم ولكن بعض الأفراد انحرفوا، وقال أن هذه الحوادث حصلت من غير ما يعلم بها، وكان في غاية الألم».

ويقاطعه رئيس المحكمة «إحنا مابنكلمش عن الأستاذ البنا وأنه كان في غاية الألم ، ألم تتكلم معاه في أن الجهاز ده يتبع مين؟».

---

(٢٠) جرائم عصابة الإخوان ـ المرجع السابق. ص١٩٣.

(٢١) جرائم عصابة الإخوان ـ المرجع السابق. ص١٩٣.

ويجيب الشاهد «معنى الكلام ده أن الجهاز المفروض أنه يكون خاضع له، ولكن هو ما كانش خاضع له، وانه ارتكب الحوادث اللي ارتكبها من غير أمره.. وفي فترة الحل تجددت شكواه (البنا) ثاني مرة، وقال على حد تعبيره الحمد الله اللي اتحلت الجماعة علشان نخلص من البلوى دي ونصفيها»[٢٢].

وإذ نترك هذه الشهادة الخطيرة.. بما فيها من معلومات تثير الدهشة معلقة في مسؤولية قائلها فإننا نلاحظ أن ثمة شهادة أخرى تؤكدها، وهي شهادة السيدة منيرة عامر حرم صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين والصديق الشخصي لحسن البنا.. وفي شهادتها أمام المحقق في اغتيال حسن البنا بجلسة ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٣ تقول:

«الشيخ البنا كان يحضر لمقابلة صالح حرب باشا لكي يتفق مع الحكومة، وكان الواسطة بين الطرفين الأستاذ مصطفى مرعي، وأنا كنت أسمع أن الأستاذ البنا متألم وسألته قال أنه بعد قتل الخازنذار خرجت من أيده وأنا عاوز أمسكهم ولكن مش قادر»[٢٣].

ونمضي لنتابع مواقف بقية قادة الجماعة عن أعمال الإرهاب.

.. يقول حسن الهضيبي خليفة حسن البنا في اعترافاته أمام المحكمة «لما جيت في الإخوان المسلمين في سنة ١٩٥١ تبين لي أن عندهم شيء اسمه النظام الخاص فأنا سألت إيه الغرض من هذا النظام؟ وإيه مرماه؟ وتعملوا بيه إيه؟ خصوصاً بعد ما ثبت أنه ارتكب جرائم قبل ذلك في السنوات ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨، وكل هذه الجرائم ارتكبت طبعاً انحراف أو خروج عن الغرض الأصلي»[٢٤].

---

[٢٢] محكمة الشعب، الجزء الثاني، محاكمة حسن الهضيبي (شهادة منير الدلة) ص١٢٣٦- ١٢٣٧.

[٢٣] محضر تحقيق النيابة في قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١- ١٩٥٢) جلسة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٣- (شهادة السيدة منيرة عامر) ص٢٥٩ وما بعدها.

[٢٤] محكمة الشعب ـ الجزء الرابع ـ محاكمة محمود عبد اللطيف (شهادة حسن الهضيبي). ص٧٨٨.

وقائد ثالث من الإخوان ـ محمد عبد المعـز محمـد عبـد الله ـ يقـول في شهادته أمام المحكمة:

« ـ الدفاع: قتل النقراشي حلال؟

ـ الشاهد: جريمة.

ـ الدفاع: وقتل الخازندار حرام؟

ـ الشاهد: أيوه؟

ـ الدفاع: إسلام أو كفر؟

ـ الشاهد: كفر.

ـ الدفاع: وقاتله؟

ـ الشاهد: يدخل النار.

ـ الدفاع: في عهد من قتل الخازندار؟

ـ الشاهد: في عهد حسن البنا.

ـ الدفاع: والنقراشي؟

ـ الشاهد: في عهد حسن البنا.

ـ الدفاع: ومن يقر القتل كافر أو مسلم؟

ـ الشاهد: ....»[٢٥].

وقائد آخر من قادة الجماعة هو محمود الحواتكي يتكلم أمام المحكمة.

« ـ الدفاع: هل اغتيال الخازندار من ضمن الأخطاء؟

ـ الشاهد: نعم.

ـ الدفاع: والذين ارتكبوا هذه الأخطاء مسلمين أو غير مسلمين؟

---

[٢٥] محكمة الشعب ـ الجزء الثاني ـ محاكمة محمود عبد اللطيف (محمد عبـد المعز محمـد عبـدالله) ص٣٧٦.

ـ الشاهد: انخلعت عنهم ربقة الإيمان.

ـ الدفاع: هل تعتقد أن الذين يقرونهم ويوافقون على هذه الجرائم مسلمين أو غير مسلمين؟

ـ الشاهد: غير مسلمين.

ومضى الشاهد في اعترافاته مؤكداً أنه في أيام حسن البنا كان الذي يخرج على الجهاز السري يقتل»[٢٦].

أما الدكتور خميس حميدة وكيل جماعة الإخوان فيجيب أمام المحكمة على سؤال عن نشاط الجهاز السري قائلاً:

« ـ الرئيس: وده صح؟

ـ الشاهد: غلط.

ـ الرئيس: غلط؟

ـ الشاهد: نعم

ـ الرئيس: يفهم من كده أن جماعة الإخوان المسلمين غلط؟

ـ الشاهد: إلى أبعد حدود الغلط».

ويسأله الرئيس هل تعتبر عمل محمود عبد اللطيف (الذي حاول اغتيال جمال عبد الناصر) من الأعمال المضادة للجهادية.. الإجرامية مثلاً؟

ويجيب وكيل جماعة الإخوان: «أنا أعتبر أن عمل محمود عبد اللطيف عمل إجرامي»[٢٧].

ونترك هذا الحديث إذ بإمكانه أن يطول بغير حد فسلسلة اعترافات الإخوان أمام المحاكم لا تنتهي.. فقط أردنا منه أن نثبت أن مقولة «الجهاد» التي قام على أساسها الجهاز السري لم تكن واضحة وضوحاً

---

[٢٦] المرجع السابق، شهادة محمود الحواتكي. ص ٢٥٤.

[٢٧] محكمة الشعب ـ الجزء الثالث (شهادة خميس حميدة) ص ٦٨٠.

كافياً ولا مستقرة استقراراً كافياً ولا مقبولة قبولاً كافياً من كوادر الجماعة وقادتها.

وأن الزهو عندما انطفأ، وعندما واجه الإخوان مصيرهم أمام سلطة البطش، انهار الكثيرون مدلين باعترافات كاملة.. كان أخطرها تطوعهم بإدانة فكرة الجهاز السري وتكفير القائمين عليه.

نترك ذلك.. ونعود إلى الشيخ حسن في محنته القاسية.

كان الشيخ حسن البنا يعاني أكثر ما يعاني من حريته المفروضة عليه.. وأكثر من مرة طالب خصومه بأن يضعوه في المعتقل ولكنهم رفضوا، فقد اختمرت لديهم فكرة تصفية الشيخ.. تصفيته سياسياً أولاً وبعدها يصفى جسدياً.

وقد كان..

وفي حريته كان الشيخ أكثر عذاباً من أتباعه المسجونين، فقد تركوه محاصراً، عاجزاً، ضعيفاً. لقد انفرط عقد الجماعة، والجهاز السري تقطعت خطوطه، والبناء الشامخ ينهار، «ورهبان الليل وفرسان النهار» يتساقطون تحت آلة التعذيب ليدلوا باعترافات متكاملة تجر إلى الزنازين المزيد والمزيد من الإخوان.

والشيخ الذي كان ملء السمع والبصر، أصبح يستجدي مقابلة مع رئيس الوزراء مقدماً كل ما يستطيع من تنازلات.. ويأبى رئيس الوزراء أن يقابله.

وبالنسبة لرجل كحسن البنا، يكون وضع كهذا هو قمة المأساة.

وتحرك الشيخ المهيض الجناح في اتجاهين.. أن يسجل دفاعه عن نفسه وعن جماعته كتابة، وأن يحاول لعبة الوساطة والتنازل لعله ينقذ شيئاً من تحت أنقاض الجماعة.

وكتب الشيخ آخر رسائله «القول الفصل» وشتان بينها وبين رسائله الأولى.

يبدأ البنا «القول الفصل» قائلاً: «لقد سمع الرأي العام المصري والعربي والإسلامي قضية الإخوان المسلمين من جانب واحد جانب الحكومة التي

اعتدت على الهيئة بإصدار أمر عسكري بحلها وهو الجانب الذي يملك كل وسائل الدعاية من الصحف الخاضعة للرقابة كل الخضوع ومن الإذاعة التي تديرها وتهيمن عليها القلة، ومن الخطباء في المساجد الذين هم موظفون حكوميون. لكن الرأي العام لم يسمع من الطرف الآخر، لم يسمع من الإخوان الذين حرموا كل وسائل الدفاع عن أنفسهم فصودرت صحفهم وعطلت أقلامهم وكممت أفواههم.. واعتقل كل خطيب لهم واعتبر اجتماع كل خمسة منهم في أي مكان جريمة أقل عقوبة لها السجن ستة أشهر. ولهذا كان من الواجب أن نتقدم بهذا البيان للرأي العام المصري والعربي والإسلامي وللضمير الإنساني العالمي حتى لا يقع في خطأ ما، ويظلم في الحكم ويحكم بسماع خصم واحد، وقد قيل: إذا جاءك خصم وعينه مقلوعة فلا تحكم له حتى ترى خصمه فقد تكون عيناه الاثنتان مقلوعتين»[(٢٨)].

أما الأسلحة فقد كرر الشيخ مقولة أنها «للمجاهدين من الإخوان المسلمين والفلسطينيين والهيئة العربية العليا الفلسطينية والحكومة نفسها تعرف ذلك».

واتهم البنا الحكومة أنها أصدرت قرار حل الجماعة تحت ضغط مذكرة ثلاثية تقدمت بها كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وبعد اجتماع لمثليها الدبلوماسيين بفايد في ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨. وطالبت المذكرة بحل الجماعة.

وبعد أن سرد البنا أسباباً عديدة أخرى منها ستر الفشل في فلسطين والإعداد لمفاوضات جديدة مع الإنجليز عاد ليركز على ما أسماه بالأصابع الخفية والدسائس «من ذوي الغايات الذين خاصموا الدعوة من أول يوم وتربصوا بها كاليهودية العالمية والشيوعية الدولية والاستعمار وأنصار الإلحاد والإباحية».

---

(٢٨) حسن البنا، القول الفصل.

وفي ختام «القول الفصل» قال البنا «وسنجاهد في سبيل حقنا ما وسعنا الجهاد فإن أعوزتنا الحياة الشريفة العزيزة فلن يعوزنا الموت الكريم المجيد».

لكن «القول الفصل» بقى مخطوطاً.. ولم ير النور إلا بعد وفاة الشيخ.

قلنا أن الشيخ قد لجأ إلى الوساطة.. والصحيح أنه قد وقع في مصيدة الوساطة.. لقد استدرجوه خطوة خطوة، ليقدم تنازلاً أثر تنازل وفي النهاية اغتالوه.

وقد رفض عبد الهادي مقابلة الشيخ، ثم أحال الأمر إلى اثنين من أخلص أعوانه ليراوغا الشيخ ويستدرجاه أولاً إلى مصيدة التصفية السياسية.

ولنلق نظرة على الصائدين.. ثم على المصيدة.

ـ الصائدان: مصطفى بك مرعي وزكي باشا علي.

ـ المصيدة: استدراج الشيخ إلى إصدار بيانات واتخاذ مواقف تدمر سمعته السياسية وتظهره بمظهر الضعيف أمام أتباعه وجماهيره، وتؤدي إلى تدمير معنويات الإخوان المحتجزين ثم في النهاية تصفيته جسدياً بعد أن يصفى سياسياً.

يقول المدعي نائب الأحكام أثناء محاكمة إبراهيم عبد الهادي أمام محكمة الثورة بتهم من بينها تدبير اغتيال حسن البنا:

«ولم يكن المتهم (عبد الهادي) مطمئناً إلى أنه بما أجراه من اعتقالات قد عزل المجنى عليه (حسن البنا) من أنصاره عزلاً تاماً بل ساوره الاعتقاد باحتمال أن يكون لفريسته أنصار آخرون لم يتيسر لرجاله الكشف عنهم، ومن ثم فقد دس عليه بعض وزرائه في صورة من يفاوضونه لإعادة جماعته سيرتها الأولى في مقابل أن يكشف له عن كل رجالها توطئة لاعتقالهم.. فلما لم يؤد هذا البحث إلى إثبات وجود أنصار آخرين للمجنى عليه اطمأن المتهم إلى أن الفرصة واتته ليجهز على فريسته وهي مجردة من كل نصير»[٢٩].

---

[٢٩] محاكمات الثورة ـ الكتاب الأول (محاكمة إبراهيم عبد الهادي) ص١٨١.

لكن كيف كانت تجري المفاوضات بين «الصائد» «والصيد».. وكيف كان الشيخ المقصوص الأجنحة يجر جراً إلى المصيدة..

لنستمع إلى شهادة أقرب المقربين إلى حسن البنا، «أخـو خديجـة» كما أسماه يوماً ما.. صهره عبد الكريم منصور، إنه يستخدم نفس التعبير ـ بل لعلنا استعرناه منه ـ «.. وعـلاوة علـى ذلـك استخدمت الحكومة الأستاذ مصطفى مرعي كأداة صيد.. لأن مصطفى مرعي اتصل بصالح حرب وقال له أنا عاوز أفاوض الإمام الشهيد. وأخذ الأستاذ مصطفي مرعي بأساليب ملتوية ممقوتة يعمل على إبقاء الإمام الشهيد بالقاهرة موهمـاً إيـاه بأسـلوب بهلوانـي بـان الحكومة ستلغي أمر الحل وتتصالح مع الإخوان وتعود الأمور إلى ما كانت عليه».

ويسأله رئيس المحكمة: قلت في كلامك أنـه اتبـع طـرق ملتويـة، فإيـه الطرق الملتوية دي؟

ويجيب الشاهد: «أيوه حاقول لكم يـا أفنـدم. فهـو كـان بيوهـم الإمـام الشهيد أنهم جادون في أن يعيدوا الإخوان المسلمين، ولكنه كـان بيقـول لـه بس لو سمحت تكتب لي بيان يثبت حسـن نيتكـم، وكـان مصطفـى مرعـي يقول ألفاظ للأمام الشهيد، وكان الأمام الشهيد يعارض في ألفاظ ملتوية كـان يكتبها أو يمليها مصطفى مرعي فيقوم يقول له.. مسألة بسيطة إذا كـان ده ثمن إعادة الإخـوان وإذا كـان ثمـن التفـاهم مـع الحكومـة فإيـه المـانع مـن كتابته؟ بمجرد ما كتب هذا البيـان أخـذه مصطفـى مرعـي وأعطـاه لرئيـس الحكومة وعدل فيه وجابه للإمام الشهيد وقعـد يقـول لـه اللفـظ ده يدخـل واللفظ ده لا يدخل. وهكذا قعد يعدل في البيان. وبعد ذلك بمجرد مـا أخـذ البيان منه أعطاه لقاتل النقراشي وقـال لـه شـوف الشـيخ حسـن البنـا أهـو أصدر بيان ضـدك وقعـد يسـتثير بـه المتهـم القـاتل وكـان مـن نتيجـة هـذا الأسلوب الذي اتخذه مصطفى مرعي أن قـاتل النقراشـي قعـد يتكلـم كـلام كثير واصبح أداة مطواعة في يد التحقيق يقول ما يمليه عليه المحقق ورجال البوليس السياسي»[٣٠].

---

[٣٠] المرجع السابق، ص١٢٥.

وهكذا فعندما يتردى السياسي في هاوية التنازلات.. فلا عاصم. ويوقع البنا بياناً بعنوان «بيان للناس» استنكر فيه الشيخ أعمال رجاله ورفاق طريقه ودمغها بالإرهاب والخروج على تعاليم الإسلام.

وكان البنا يلح على ضرورة الإفراج عن بعض رجاله معلناً أنه «لا يستطيع أن ينكر الأخطاء التي ارتكبها الإخوان وأنها قد هزته إلى درجة أنه هو نفسه قد شعر بضرورة حل الجماعة»[٣١]. وقال أن التحكم في سير الأحداث يحتاج إلى رجال معينين يمكن للشيخ من خلالهم السيطرة على الموقف.. لكن عبد الهادي لم يقتنع بمنطق الشيخ ولم يكتف بالبيان الذي أصدره، وأخذ مصطفى مرعي يلح على ضرورة تسليم محطة الإذاعة السرية للإخوان وكل ما بقي لدى الإخوان من أسلحة[٣٢].

وبعد يومين من صدور «بيان للناس» قبض على أحد قادة الجهاز السري وهو يحاول نسف محكمة استئناف مصر. ولنترك الحديث للشاهد الأول في قضية اغتيال البنا محمد يوسف الليثي والذي كان في هذا الوقت عميلا للبوليس السياسي ومكلفاً بمتابعة تحركات حسن البنا وهو أيضاً الذي استدرجه يوم اغتياله.. يقول الشاهد «.. وحصل حادث نسف محكمة الاستئناف وأنا قابلت الشيخ البنا، وكان متأثراً جداً من هذا الحادث، وكان معتقداً أن الإخوان مش هم اللي عملوا الحادث، ولما عرف أنهم هم اللي عملوا الحادث زعل خالص وبكى وقال أنه لا تهمه الحكومة وإنما يهمه الشعب الذي قد يصدق أن الإخوان المسلمين إرهابيون، وقال أنه استعجب كيف حصل هذا الحادث، وحصلت بعد كده مفاوضات بينه وبين مصطفى مرعي بخصوص المعتقلين، وصالح حرب باشا اتصل بمرعي بيه علشان يجتمعوا بالشيخ البنا.. وتفاهموا ومرعي بيه قال للشيخ البنا تعمل بيان كما قلت لك في الأول وأنت رفضت ولذلك لازم تعمل بيان

---

[٣١] موسى إسحاق الحسيني، المرجع السابق، ص٣٦.

[٣٢] جمال سليم، البوليس يحكم مصر- القاهرة للثقافة العربية (١٩٧٦)، ص١٩٩.

واتفاهموا علـى إصدار بيـان بعنـوان «ليسـوا أخوانـاً وليسـوا مسـلمين» ثـم استمرت الاتصالات»[٣٣].

وعندما يدخل الصيـد إلى المصيـدة.. تكـون التصرفـات غـير محسـوبة.. ولنقرأ ما خطه الشيخ البنا بيده:

«ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

«وقع هذا الحادث الجديد، حادث محاولة نسف مكتب سعادة النـائب العام وذكرت الجرائد أن مرتكبه كان من الإخوان المسلمين فشعرت بأن مـن الواجب أن أعلن أن مرتكب هذا الجرم الفظيع وأمثاله من الجرائم لا يمكـن أن يكون من الإخوان ولا من المسلمين لأن الإسلام يحرمهـا والإخـوة تأباهـا وترفضها.

ومن المرجح بل من المحقق أنه أراد به أن يتحدى الكلمة الـتي نشـرت قبل ذلك بيومين تحت عنوان «بيان للناس» ولكن مصر الآمنـة لـن تروعهـا هذه المحاولات الأثيمة وسيتعاون هذا الشعب الحليم الفطرة مـع حكومتـه الحريصة على أمنه وطمأنينته في ظل جلالة الملك المعظم علـى القضـاء علـى هذه الظاهرة الخطيرة.

وليعلم أولئك الصغار من العابثين أن خطابات التهديد التي يبعثون بهـا إلى كبار الرجال وغيرهم لن تزيد أحداً منهم إلا شعوراً بواجبه وحرصاً تامـاً على أدائه. فليقلعوا عن هذه السفاسف ولينصرفوا إلى خدمة بلادهم كل مـن حدود عمله إن كانوا يستطيعون عمل شيء نافع مفيد.

وإني لأعلن أنني منذ اليوم سأعتبر أي حادث من هـذه الحـوادث يقـع من أي فرد سبق له اتصال بجماعة الإخوان موجها إلى شخصي ولا يسـعني إزاءه إلا أن أقدم نفسي للقصاص وأطلب إلى جهـات الاختصـاص تجريـدي من جنسيتي المصرية التي لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء، فليتدبر ذلك من

---

[٣٣] محضر تحقيق النيابة في قضية مقتل حسن البنا (الجناية ١٠٧١- ١٩٥٢- محضـر أقـوال محمـد يوسف الليثي، ص٤٤.

يسمعون ويطيعون، وسيكشف التحقيق ولاشك عن الأصيل والدخيل. ولله عاقبة الأمور.

حسن البنا»

وهكذا امتص المفاوضون البرتقالة إلى آخر قطرة..

والشيخ الذي في قفص الحرية يعاني أكثر من رجاله في السجن.. ويتعرض لضغوط مريرة عنيفة.. آلاف الأسر بلا عائل، إخوانه في السجن، وهو بلا حول ولا طول.

وبيانه الأول أثار استياء أعضاء الجماعة بالسجون ويقال أنهم وجهوا له رسالة إنذار يقولون فيها أنهم يعتقدون «أن البيان مدسوس فإن كان صحيحاً فإن يوم الحساب آت بعد الإفراج عنا»[٣٤].

ويكون تحدى من بقى بالخارج لبيان الشيخ محاولة نسف محكمة الاستئناف.. الرجل بين فكي كسارة البندق سجين ضغوط خصومه وضغوط رجاله لكنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

وماذا يبقى من الشيخ..

رجاله في السجون يبعثون له يهددونه، ومن بقى خارج السجن يتمرد عليه، وهو يتهم أخلص خلصائه.. الذين أقسموا له على المصحف والمسدس يمين الطاعة التامة في المنشط والمكره.. يتهم «رهبان الليل وفرسان النهار» بأنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين».

بل ويتردى إلى مديح الحكومة التي تعذب رجاله أشد العذاب ويقول أنها حريصة على أمن الشعب وطمأنينته «في ظل جلالة الملك المعظم» .. بل ويحرض الشعب على التعاون مع الحكومة «للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة».

«رهبان الليل وفرسان النهار» اصبحوا في آخر بيان للشيخ «أولئك من العابثين» وجهادهم أصبح «سفاسف».

---

(34) Mitchell- op .cit .P .69.

ولا يبقى للشيخ ما يقوله.. سوى أنه سيطلب تجريده من جنسيته المصرية «التي لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء»؟

وقرر القتلة أن يطلقوا الرصاص على جثته.

سحبوا منه سيارته ثم مسدسه المرخص ثم سحبوا الحراسة المحيطة به، واستدرجوه إلى جلسة مفاوضات أخرى أو أخيرة.. وأطلقوا عليه الرصاص.

ويبقى معلقاً للبحث الدقيق.. التاريخ الحقيقي لوفاة الإمام الشهيد المرشد العام الشيخ حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي.

هل هو يوم ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩. كما هو مثبت في شهادة الوفاة..

أم هو يوم أصدر الشيخ بيانه «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين»..

أم هو يوم أصدر «بيان للناس»..

أم قبل ذلك بكثير.. يوم سمح لنفسه أن يدخل ميدان السياسة من باب الموالاة للقصر.. ومخاصمة الشعب..؟

وقد أثبت التحقيق أن المدبر الأساسي لمقتل الشيخ حسن البنا كان الملك فاروق.

وأكد الإخوان أنفسهم أكثر من مرة أن الشيخ «قد اغتيل في ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٩ الموافق ١٤ ربيع ثاني سنة ١٣٦٨ هجرية.. يوم عيد ميلاد الملك السابق فاروق أحمد فؤاد فكان اغتياله هدية عيد ميلاد ملك جلب الدمار لشعبه»[٣٥].

بل لقد وصل الأمر بالجماعة إلى أنها طلبت رسمياً من المحكمة التي عقدت في أعقاب ثورة يوليو لمحاكمة قتلة الشيخ حسن البنا، تقديم متهمين جدد على رأسهم الملك السابق فاروق وذلك باعتباره محرضاً وفاعلاً أصلياً.

---

[٣٥] الدعوة غرة ربيع الأول ١٣٩٧ (فبراير ١٩٧٧). ص٣٨.

ولأن القاتل الحقيقي كان فاروق.. فإن الباحث يكتم دهشته ـ بل ما هو أكثر من الدهشة ـ إذ يجد في سجل تشريفات قصر عابدين يوم ١٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥١.. أسماء عديد من قادة الإخوان، أتوا إلى أبواب قصر الملك ليعربوا ـ مرة أخرى ـ لقاتل شيخهم، ربما عن ولائهم، وربما عن نسيانهم لدم شهيدهم. والتوقيعات ذات دلالة..

خليفة الشيخ البنا.. المرشد الجديد حسن إسماعيل الهضيبي.

أقارب الشيخ البنا.. شقيقه عبد الرحمن البنا وعضو مكتب الإرشاد العام.

وصهره عبد الحكيم عابدين وسكرتير عام الجماعة.

وأقرب المقربين إليه من رجاله:

ـ صالح عشماوي.

ـ عبد القادر عودة.

ـ حسين كمال الدين.

ـ محمد الغزالي.

ـ عبد العزيز كامل.

وكلهم أعضاء في مكتب الإرشاد العام.

وحتى السكرتير الخاص للإمام الشهيد وكاتم أسراره ورفيق رحلته الطويلة سعد الدين الوليلي أتوا به معهم ليوقع هو أيضاً معرباً عن ولائه للملك فاروق!

وطوال رحلتنا مع هذه الدراسة. تراكمت علامات استفهام وعلامات تعجب كثيرة، وتكون علامة التعجب الأخيرة مثاراً لما هو أكثر من الدهشة.. وتساؤلاً حول مدى وفاء هؤلاء الموقعين لذكرى شيخهم وإمامهم ومرشدهم وشهيدهم.. وحول مدى صدق ما يصيغون من تراتيل الوفاء لشيخ نسوا ذكراه على عتبات قصر قاتله!

الإسلام السياسي
من التطرف إلي المزيد من التطرف

«ويل لمن لا يعرف قلعة خصمه جيداً من الداخل»

حكمة فرعونية.

.. وليأذن لي القارئ قبل أن نستعرض معاً أطروحـات هـذه الدراسـة أن نستقر معاً على منظومة من الملاحظات والافتراضـات لعلهـا تكمـل الدراسـة وتكون لازمة لها.. وضرورية قبل البـدء بهـا.. ومنظومـة الملاحظـات هـذه تنقسم إلى قسمين..

الأول حول موقف الماركسية من الدين.. والثاني حـول بعـض المعطيـات التاريخية والاجتماعية التي قد تقدم تفسيراً أو إيضاحاً لبعض معطيات هذه الدراسة.

أولاً: حول موقف الماركسية من الدين.

* قد يكون من الضروري أن نبدأ برفض الادعاء بأن الفكر المـادي يعـني بالضرورة اتخـاذ موقـف معـاد للديـن. أو أن رفـض فكـرة الدولـة الدينيـة، وإقحام الدين في السياسة أصلاً يعني اتخـاذ موقـف معـاد للديـن كمعتقـد.. فالدين في رأي الماركسية.. هو ظاهرة موضوعية تنتمي من حيث المجـال إلى «الوعي الاجتماعي» وبطبيعة الحال فإنه يصعـب التعـامل مـع الشـعب أيٍ شعب دون إدراك مكونات وعيه الاجتماعي والتعامل معها تعاملاً موضوعياً.

يقول انجلز «أن الدين هو في واقع الأمـر انعكـاس غـير مـادي في عقـول الناس لقوى تسيطر عليهم في حياتهم اليومية»[1].

---

[1] ماركس وإنجلز ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٢٠ ـ ص ٣٢٨.

ويقول ماركس «الدين عند الكثيرين هو النظرية العامة لهذا العالم، وهو مجموعة معارفهم الموسوعية، وهو منطقهم الذي يتخذ شكلاً شعبياً، وهو موضوع اعتزازهم الروحي وموقع حماسهم، وهو أداة قصاصهم، ومنهجهم الأخلاقي»[٢].

ويعترض أنجلز بعنف على هؤلاء الذين يتعاملون بسطحية مع الدين أو يستخفون بتأثيره على الجماهير فيقول: «إن ظاهرة سيطرت طوال ١٨٠٠ عام على عقول البشرية المتحضرة، وجعلت الإمبراطور قسطنطين ذو المطامح اللامحدودة يعتنق المسيحية ويوسع على أساسها إمبراطوريته، إن ظاهرة كهذه لا يمكن النظر إليها كنسيج واه أو كأوهام يرددها مشعوذون»[٣].

وفي كتابه العائلة المقدسة هاجم ماركس بشدة الهيجليين الشباب الذين وضعوا الدين في موضع العدو، مؤكداً أن هذا الموقف هو محاولة لإخفاء العدو الحقيقي.. العدو الطبقي.

وفي كتابهما «الأيديولوجية الألمانية» يدين ماركس وانجلز مقولات برونوباور المعادية للدين قائلين: إن خصومنا هنا على الأرض، ويجب أن نواجههم هنا على الأرض، ولا يليق أن نهرب من هذه المواجهة لنصطنع خصوماً في السماء[٤]، ولانجلز مقال بعنوان «إسهام في تاريخ المسيحية الأولى» يقول فيه:

«إن تاريخ المسيحية الأولى يقدم نقاط التقاء ملفتة للنظر مع الحركة العمالية المعاصرة. فالمسيحية كانت في بدايتها تشبه الحركة العمالية من حيث كونها حركة مضطهدين، لقد ظهرت في البداية كدين للعبيد وللفقراء والمحرومين وللشعوب المستعبدة التي اضطهدتها روما.

---

[٢] ماركس ـ نقد فلسفة القانون عند هيجل.

[٣] انجلز مقال، برونوباور والمسيحية الأولى نقلاً عن: ماركس، انجلز ـ حول الدين ـ المنشورات الاجتماعية ـ باريس بالفرنسية ـ ص ١٨٢.

[٤] ماركس، انجلز ـ الأيديولوجية الألمانية ـ الترجمة الإنجليزية ـ ص٤٠٥.

والمسيحية والاشتراكية تلتقيان في أن كلا منهما تبشر بالخلاص من العبودية والبؤس.

المسيحية تجعل الخلاص في السماء.. بعد الموت.

والاشتراكية تجعله هنا على الأرض.. وأثناء الحياة.

والمسيحية الأولى والاشتراكية تتشابهان في تعرضهما للمطاردة.. والاضطهاد.. وفي رؤيتهما الأممية»[٥]. وفي مقال آخر بعنوان «كتاب القيامة» يؤكد أنجلز ما قاله المفكر الفرنسي أرنست رينان حول المسيحية الأولى ويقول «إذا أردتم أن تأخذوا فكرة صحيحة عما كانت عليه الجماعات المسيحية الأولى فلا تقارنوها بالجماعات الدينية الحالية. وإنما قارنوها بالفروع المحلية للدولية الأولى».

ومن ثم فإن الماركسية تنظر إلى الدين من حيث كونه «وعياً اجتماعياً» يكون قادراً في ظل ظروف محددة وبمعطيات محددة على أن يلعب دوراً إيجابياً هاماً في حركة تحرير الإنسان من الاستغلال.

يقول لينين «أن بروز الاحتجاج السياسي المرتدي ثياباً دينية، هو ظاهرة تلازم جميع الشعوب في طور محدد من تطورها»[٦].

كذلك أكد أنجلز في مجال حديثه عن كون الدين جزءاً من المكون الأساسي للوعي الاجتماعي ومن ثم للتحرك الاجتماعي في بعض المراحل وخاصة تلك التي تسبق مراحل الوعي الطبقي الحاسم..

.. «إن الدين يتضمن في عمقه مضموناً احتجاجياً، إنه أنين المضطهدين كما أنه يتسم بمحاولة تقديم تعويض مستقبلي عن عالم راهن مرير المذاق لم تتكامل بعد شروط وإمكانيات تغييره تغييراً ثورياً، ولقد تمكنت الأفكار الدينية من أن تلعب دوراً هاماً في تكوين المناخ الفكري لعدد من الحركات الاجتماعية للعبيد والأقنان وفئات أخرى، وهي حركات كانت ثورية في

---

[٥] ماركس وانجلز عن الدين ـ المرجع السابق. ص ١٨٥.

[٦] لينين ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٤ ص ٢٢٨.

مضمونها الاجتماعي، وإن اتسمت بوعي ديني يمثل في واقع الأمر شكلها الخارجي المرتهن بمستوى التطور الاجتماعي ذاته»[7].

لكن الماركسية إذ تؤكد إمكانية أن يلعب الدين دوراً في حركة التغيير الاجتماعية أي دوراً سياسياً فإنها ترى أن ذلك رهن بمستوى محدد من التطور الاجتماعي ومن نمو الوعي الاجتماعي وتحديداً فإن الدور يتناقض بل ويتلاشى مع نمو الوعي الطبقي الذي يحول الصراع بين جماعات تخضع للاستغلال والاضطهاد فتتشبث بدين جديد يخالف ديانة الحكام وتتخذه محوراً لنضالها وخلاصها، وبين جماعات متميزة طبقياً تنتمي جميعاً إلى ذات الدين..

بل إن الأمر هنا قد يتحول بالحكام والمستغلين إلى إمكانية استخدامهم بعض رجال الدين وبعض الشعارات ذات البريق الديني كأداة لتأجيل الصراع الطبقي..

ومن ثم فإن الدين كمعتقد سماوي يمكن أن يستخدمه البعض في فترة النهوض الأولى أداة للتحرر بينما يمكن أن يستخدمه البعض أداة لتغطية القهر واستمراره..

ومن هذه الزاوية يقال إن العلاقة بالدين كمنظومة تصرفات أرضية تنتمي إلى «الوعي الاجتماعي» وفي هذا الصدد يقول لينين «لقد كان الناس وسيظلون أبداً في حقل السياسة ضحايا ساذجة يخدعها الآخرون، بل ويخدعون أنفسهم ما لم يتعلموا استقراء المصالح الطبقية بين أسطر الخطب والبيانات والمواعظ والدعاوي الدينية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية»[8].

بهذا يمكن للأمر أن يكون واضحاً.. فالدين كمعتقد سماوي هو علاقة داخلية للإنسان، يتعين احترامها والدفاع عن حقه في التمسك بها والخضوع لمقتضياتها ومتطلباتها، أما استخدام الدين كأداة في الصراع

(٧) ماركس وانجلز ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٧ ـ ص٣٥٩.

(٨) لينين ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٢٣ـ ص٤٧.

الاجتماعي فإن الماركسية ترى أنه كان وارداً وممكناً بل وثورياً في المراحل الأولى للتطور الاجتماعي، وأنه مع نشوء الطبقات الاجتماعية وتبلورها ووقوفها وجهاً لوجه في معترك الصراع الطبقي فإن إدخال الدين في هذا المعترك يمكنه أن يحرف الأفكار عن المعطيات الواقعية والأرضية لهذا الصراع، بل ويمكنه أن يجعل من المقولات الدينية شعاراً أو أداة يستخدمها الحكام وبعض رجال الدين في تغييب الوعي الاجتماعي والطبقي للجماهير ومن ثم في فرض المزيد من الاستغلال والقهر عليهم.

ومن هنا فإن احترام الماركسية للدين شيء والمطالبة بخضوعها لابتزاز الذين يستغلون الدين في معركة الصراع الطبقي شيء آخر.

ولعلنا بعد هذه الملاحظات نستطيع أن نبدأ دونما حرج في معالجة مواقفنا الانتقادية من «الإسلام السياسي» باعتبار أننا نعتقد أنه محاولة لتطويع المعطيات الدينية لمصالح اجتماعية محددة وضد مصالح اجتماعية محددة، وهو ما يتنافى مع جوهر الإسلام ذاته الذي يتوجه «للناس كافة».

ثانياً: ملاحظات أولية حول بعض القضايا الاجتماعية والسياسية:

* نحن نعني بتعبير الإسلام السياسي كل محاولة لإقحام الدين في التعاملات الدنيوية للأفراد والجماعات وهو الأمر الذي ينأى بالإسلام عن كونه «كليات» دون التعرض لجزئيات الحياة وهو ما يتجسد في العصر الحديث في فكرة «الدولة الدينية».

ولعل عبارة أفلتت من الشيخ حسن البنا، لعله قالها ليتهرب بها من إلحاح المطالبين إياه بوضع برنامج سياسي واقتصادي واجتماعي لجماعته، تغنينا عن الشرح المطول في هذا الصدد..

يقول حسن البنا «يتعين علينا أن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله، ولا نلون عصرنا بلون عصر لا يتفق معه. وإلى جانب هذا يعتقد الإخوان المسلمون، الإسلام كدين عام

انتظم شؤون الحياة.. جـاء أكمـل وأشمـل مـن أن يعـرض لجزئيـات هـذه الحياة وخصوصاً في الأمور الدنيوية البحتة»[9].

أقول إن هذه العبارة قد أفلتت من الشيخ، لأنها في اعتقادي تخالف كل سياق دعوته للحكومـة الدينيـة بـل وتتنـاقض معهـا.. وأؤكـد ذلـك كـي لا يتصور البعض أنني أستنطق الشـيخ بغير مـا نطـق بـه. لكـن هـذه العبـارة تكفيني ويزيد لشرح فكرتـي في رفـض مقـولات «الإسـلام السياسـي» الـذي يتعـين عليـه بـالضرورة أن يهتـم بجزئيـات الحيـاة.. وخصوصـاً في الأمـور الدنيوية البحتة..

*كذلك تستند هـذه الدراسـة إلى ضـرورة التمييـز بـين مكونـات الوعـي الديني ذاته، فالأديان باعتبارهـا مكـون أساسـي وهـام مـن مكونـات وعـي الجماهير يتحدد حجم الدور الذي تلعبه في حياة الأفراد والمجتمعـات وفـق متغيرات اقتصاديـة واجتماعيـة، فـالعنصر الديـني يلعـب دوراً محـدوداً في بعض المجتمعات (كالمجتمعات الأوربية مثلاً) ليس لأن الحضـارة الغربيـة حضارة كافرة، فالكنيسة الأوربيـة لم تـزل تلعـب دوراً بـارزاً وإنمـا بسـبب معطيات اقتصادية واجتماعية محددة..

والعكس صحيح في لبنان مثلاً فنتيجة لظروف سياسـية محـددة تنـاقص الانتماء الطبقي إلى حد كبير بينما تسيدت المشاعر الدينية والطائفية الدينية لتجعل من نفسها محور الحياة الراهنة هناك، بل واتسمت النزعة الطائفية الدينية بتشـعب ذا بعـد سياسـي فئـوي وجغـرافي.. (المعـارك بـين فريقـين مسلمين وشـيعيين همـا حـزب الله وجماعـة أمـل، والمعـارك بـين القـوات اللبنانيـة والجيـش اللبنـاني المسيحي بقيـادة ميشـيل عـون وهمـا فريقـان مسيحيان مارونيان).

ولا يمكن القول بأن اللبنانيين قد أصبحوا فجأة أشد الشعوب تديناً.

---

[9] حسن البنا ـ رسالة المؤتمر الخامس . أعيـد نشـرها ضمـن: حسـن البنـا ـ مجموعـة الرسـائل، مؤسسة الرسالة (بيروت) ص٢٧٢.

فلو أخذنا نمو الحركات السياسية ذات الطابع الديني كمعيار لنمو التوجه الديني عامة لأخطأنا بشكل فادح ولاعتبرنا النموذج اللبناني وهو نموذج منفر بل ومثير للاشمئزاز حيث تحول الطائفية الدينية البشر إلى أدوات قتال بلا قلب ولا حس ولا مشاعر إنسانية أو وطنية أو حتى دينية، لاعتبرنا هذا النموذج هو النموذج المرتجى والمأمول.. وهو ما لا يقول به أحد..

من هنا نصل إلى مقولة سوف تتمسك بها هذه الدراسة.. وهذه ضرورة التفريق بين العنصر الإيماني في الدين وبين تصاعد أو هبوط نشاط جماعات الإسلام السياسي، فهما عنصران غير متلازمين بل قد ينمو أحدهما بينما ينكمش الآخر وفق تطورات اجتماعية محددة.

* من هذه الزاوية يمكن أن نقرر أن جماعات الإسلام السياسي التي تتجه جميعاً اتجاهاً متطرفاً لا تعني على الإطلاق أنها تمتلك جرعة إيمانية أزيد من الآخرين فالتطرف الديني شيء يختلف عن التدين، وهو تحديداً ليس جرعة زائدة من التدين، بل هو موقف سياسي اجتماعي طبقي محدد.

ويمكن أن نسترسل فنقول إن معطيات التوجه الاجتماعي والاقتصادي لجماعات الإسلام السياسي على اختلاف أنواعها (وإن ارتدى بعضها ثياباً أكثر اعتدالاً أو أكثر تطرفاً) فإنها في مجموعها جماعات سياسية تلغي المنظور الطبقي للصراع.. وتقسم البشر ليس على أساس موقفهم من العملية الإنتاجية (رأسماليون وعمال، وملاك أراضي وأجراء) وإنما من منظور فكري ينحصر في مدى ولاء الشخص لفكر الجماعة أو ما تبشر به..

وهي جميعاً وفي الواقع العملي ترفض المعطيات الطبقية التي يمكنها أن تحرر طبقة الأجراء من استغلال الطبقات المالكة (الأرض لمن يفلحها ــ الملكية العامة لوسائل الإنتاج.. الخ).

وهي جميعاً وفي الممارسة الواقعية ساندت نمط الإنتاج السائد ولم تر أي ضير في استمراره بشرط أن يلتزم الجميع رأسماليين وعمالاً بتعاليم الجماعة، أو ما تراه هي أنه تعاليم الدين..

نحن إذن وباختصار أمام دعوة رأسمالية لكنها ترتدي جلباباً أبيض وعمامة وتطلق لحية.. ألم نقل من البداية أننا نرفض إقحام الدين في مجال العلاقات الاجتماعية والصراع الاجتماعي.

وهل نحتاج إلى أن نذكر بمقولة لينين السابق الإشارة إليها (**لقد كان الناس وسيظلون أبداً في حقل السياسة ضحايا سانجة يخدعها الآخرون، ما لم يتعلموا استقراء المصالح بين أسطر الخطب.. والمواعظ والدعاوى الدينية**).

*وهكذا في تعاملنا مع العنصر المتطرف دينياً فإننا لا نجد فيه عنصراً أكثر تديناً، بل هو صاحب موقف سياسي واجتماعي وطبقي، لكنه موقف مشحون بحالة من التعبئة الروحية والفكرية تضع صاحبها في قفص من نصوص تم اختيارها بعناية تفرض عليه أن يتنازل طائعاً مختاراً عن إرادته الخاصة وعن أفكاره الخاصة وعن مواقفه الخاصة لحساب النص أو من يمسكون بزمام النص.

فالبيعة للأمير ضرورة «من مات بدون بيعة في عنقه فقد مات ميتة جاهلية» لكن البعض يجعل من البيعة عنصر تحكم وإحكام للقبضة.

يقول حسن البنا «الطاعة (وهي أحد أركان الدعوة) هي امتثال للأمر وإنفاذه فوراً، في العسر واليسر والمنشط والمكره.. ونظام الدعوة صوفي بحت من الناحية الروحية، **وعسكري بحت من الناحية العملية وشعارنا دائماً أمر وطاعة من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج**»[(١٠)].

ولابد للدعوة هنا (أية دعوة من هذا النوع) أن تعوض العضو عما فقد من إرادة فهي تمنحه ما يسمى في مفردات هذه الجماعات «بالاستعلاء بالإيمان» فهو ليس مجرد عنصر مسلوب الإرادة، ضيق الأفق، صلب الرأي، عاجز بل ورافض لأن يعمل عقله في فحص فكر وتصرفات أو ممارسات الأمير أو الجماعة. وإنما هو أفضل من كل من هم خارج

(١٠) حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص٢٠.

الجماعة، هو يستعلي عليهم بإيمانه، هو اقرب إلى الله وهو أكثر إيماناً.. الخ، ولعل هذا يفسر النزعة العدوانية لدى هؤلاء الأعضاء إزاء الآخرين من خارج الجماعة فهو أفضل منهم وهم أحط منه، هو أكثر إيماناً وهم في أحسن الأحوال قليلي الإيمان ومع مضي الخط على استقامته هم كفرة..

والموقف المتطرف هو موقف مستند إلى نص تم اختياره مسبقاً، والالتزام هو أولاً وأخيراً بالنص، فإن تعارض النص مع الواقع فالواقع خطأ والنص صحيح، لأن النص يجب أن يكون صحيحاً.. دونما إدراك لأهمية ربط النص بالواقع.. ودون تذكر لقول الرسول «أنتم أدرى بشؤون دنياكم» هكذا يمثل الموقف المتطرف حالة من العجز عن التعامل مع الواقع. لأن النص هو الحقيقة الأولى والأخيرة. فإن عجزت عن التعامل مع الواقع بمعطياته المتجددة، فإنك تعجز عن خوض معاركه وعن امتلاك ممكنات تغييره، ومن ثم فإن الموقف المتطرف يكمل العلاقة المفتقدة مع الواقع «بأحلام» قديمة مؤملاً في الارتداد إليها خلاصاً مما هو قائم.. خاصة إذا ما كان عاجزاً عن التلاؤم معه وامتلاك أدوات الصراع ضده.. إن حالة الارتداد إلى الماضي والقول بالعودة إليه كما كان «تلخص كل نتائج العجز عن التعامل مع الواقع..»

ويوضح شكري مصطفى «أمير آخر الزمان طه المصطفى شكري» (هكذا أسمى نفسه) وأمير جماعة التكفير والهجرة كما أسمته أدوات الأعلام.. يوضح هذه المقولة قائلاً «إن شرط تمكين المسلمين واستخلافهم، وإقامة دولتهم وإظهار دينهم هو الإيمان والعمل الصالح. هذا الشرط لا يمكن أن يتغير أو يتبدل من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان فيكون الإيمان والعمل الصالح الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه غير الإيمان والعمل الصالح في آخر الزمان. لا يمكن».

ومن ثم فإن أمير آخر الزمان يقودنا إلى فكرة محددة «لابد من سلوك طريق النبي وأصحابه شبراً بشبر، وذراعاً بذراع لأن الله سبحانه وتعالى

يبدأ الخلق ثم يعيده بصورة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، وهي كما بدأ الإسلام يعاد الإسلام»[١١].

.. ومن هنا تأتي مقولة إنكار كل منجزات الحضارة الممتدة منذ عهد الخلفاء الراشدين وحتى يومنا، وضرورة القفز إلى الوراء كي «يعود الإسلام.. كما بدأ».

والحقيقية أنه ما من جديد في هذه الفكرة فإذ توجد قوى اجتماعية ترفض الواقع الاجتماعي القائم وتعجز في نفس الوقت عن التلاؤم معه، ولا تمتلك معطيات «طبقية»، لتغييره من منظور طبقي فإنها تعود إلى الوراء لتستلهم «ذكريات» و«نماذج» و«طموحات»، وقعت في الماضي وتستدعيها للحاضر، أو بالدقة تستجمع الحاضر في محاولة كي تعود به إلى الماضي..

ولعل ذلك قد حدث في أكثر من بلد وفي أكثر من حالة من حالات الأزمة الثورية.. وبأكثر من صورة.

يقول ماركس عن حالة مشابهة «في فترات الأزمات الثورية تراهم يلجأون في وجل وسحر إلى استحضار معطيات الماضي لتخدم مقاصدهم، ويستعيرون منها الأسماء، والأزياء، والشعارات القتالية، كي يمثلوا على مسرح التاريخ مسرحية جديدة في هذا الرداء التنكري الذي اكتسى بجلال القدم وبلغة قديمة مستعارة»[١٢].

.. تأملوا هذه الفقرة ألا تنطبق بشكل مذهل على دعاة الإسلام السياسي من متطرفي اليوم.. الأسماء.. يتخذونها من الماضي. كمثال: اتخذ قادة جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) أسماء جديدة فشكري مصطفى (أبو سعد) وماهر بكري (أبو عبد الله) وأنور مأمون صقر (أبو مصعب) ومحمد الأمين عبد الفتاح (أبو الغوث)[١٣] والملابس اتخذت زياً جديداً أو بالدقة قديماً والشعارات.. وكل شيء.

---

[١١] شكري مصطفى ـ التوسمات ـ مخطوط.

[١٢] ماركس، إنجلز ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٨ ـ ص ١١٩.

[١٣] ملف القضية رقم ٦ حصر أمن الدولة ـ عسكرية عليا ـ لسنة ١٩٧٧.

إنها حالة من الارتداد النفسي للماضي تعلن عن حالــة مــن العجـز عـن التكيف مع الواقع بسبب من تعارض الواقع مع النص.

* ويترتب على ذلك ملاحظة أخرى وهي أن هذه الجماعــات لا تمتلـك تصوراً محدداً للمستقبل، فهي إذ تستعيد الأسماء والشعارات والزي والرؤية والممارسات فإنها تعتقد أن ما سيطبق مـن نظـام اقتصـادي واجتمـاعي (في حالة اسـتلامهم السـلطة) هـو ذات مـا كـان مطبقـاً أيـام الرسـول والخلفـاء الراشدين، وهم لا يرهقون أنفسهم في اسـتجلاء تفاصيلـه لأن التفـاصيل قـد تبدو غير ملائمة للتطبيق اليـوم (وهـذا طبيعـي تمامـاً) كمـا أنهـم في أغلـب الأحيان لا يمتلكون رؤية واضحة لما كان يجري في هـذا الزمـان إمـا بسـبب نقص في المعرفة أو بسبب اختلاف الروايات وتعارضها.. هنا نجد أنفسـنا.. وبرغم القول المتشدد بتطبيق الشريعة حرفاً بحرف..

والعودة للماضي كما قال شكري مصطفـى «شـبراً بشـبر وذراعـاً بـذراع» نجد أنفسنا أمام نص عام.. لا يحدد بـالضبط تفـاصيل أو حتـى عموميـات نهج الدولة التي يريدونها ولا النظام الـذي ينشـدونه. ومـن ثـم فإننـا نجـد أنفسنا أمام ما يمكن تسميته «بالإسلام المعلب» فإنهم يتصورون أن استلامهم السلطة يكفي وأن ثمة شريط فيديو معبأ فيه كل مـا يجـب أن يجـري ومـا يجب أن يكون.. يضعون الشريط في الجهاز ويـدور دولاب الدولـة وفـق مـا يعتقدون..

* وثمة ملاحظة أخرى عن التكوين الثقـافي المصـري، فـالتعليم المصـري يمضي عبر ثلاث محاور أساسية ـ التعليم الحكومي (وهو ديـني في بعضـه، مدني في أغلبه).

ـ التعليم الأجنبي (وهو ديني مسيحي في بعضـه، مدنـي في أغلبـه) وفي بعض الحالات فهو ذو طابع غربي صرف..

ـ التعليم الأزهري (وهو ديني في أغلبه، مدني في بعضه).

ولابد أن تعدد محاور التعليم هــذه تخلـق نوعـاً مـن الخلـل في التكويـن الفكري والثقافي لفئة المتعلمين المصريين، وإذا لاحظنا أن التعليم في المحـاور

الثلاث يقوم في الأساس على التلقين، وعدم الدعوة لإعمال الفكر، أو تنشيط العقل، ومع وجود التناقض بين مكونات الفئة المتعلمة، يمكن للفكر المتطرف القائم أساساً على التلقين النصي أن يجد لنفسه سطوة وسط هذه الفئة. حيث اعتاد الجميع أن تهبط المعرفة من أعلى.. مدرسي الفصل، أو أمير الجماعة.. سيان.

ولعل هذا يفسر انتشار ظاهرة التطرف الديني وسط المثقفين والمهنيين.

* وإذا كانت ثورة يوليو قد أمكنها تصفية كبار الملاك العقاريين كفئة اجتماعية بقوانين الإصلاح الزراعي، وأقامت صروح القطاع العام فإنها قد خلقت فئتين اجتماعيتين تمتلكان بعض التميز وهما فلاحو الإصلاح الزراعي، وعمال القطاع العام، ولا شك أن المستوى المعيشي لهاتين الفئتين قد تحسن بعض الشيء في سنوات نشأتهما الأولى، فإذا كانت مجانية التعليم بجميع مراحله فقد أمكن لهاتين الفئتين أن ترسلا أبناءهما إلى الجامعة ليصبحوا بعد سنوات عدة خريجي جامعة..

فإذا وضعنا في الاعتبار أن طموحات ثورة يوليو لم تدم طويلاً، وأن فئات الطفيلية وذوي الدخول الكبيرة قد نمت سريعاً في منتصف الستينيات وما بعدها، فإن الجامعة قد أصبحت محطاً لتناقضات طبقية واسعة، فأبناء العمال والفلاحين الذين لا يجدون أجر المواصلات المزدحمة يجلسون في ذات الصف الدراسي مع أبناء وبنات الأرستقراطية المصرية الجديدة بكل بذخها وثرائها المجنون والمستفز..

ومع ضعف الحركة اليسارية وتوجهات الصراع الطبقي بسبب فشل الاتحاد الاشتراكي في استيعاب حركة الأحداث تواجدت بذور التمرد على الواقع دون وعي طبقي.. فأمكن تلقين الشبان مقولات الارتداد للماضي حيث العدل الكامل، والنعيم المطلق.

* ومع أحداث الجامعة في ١٩٧٣ وحيث كان اليسار قد استعاد قوامه النضالي، وتواجد بشكل ملحوظ في الجامعات فقد استشعر النظام ضرورة إيجاد قوة ضاغطة ومنافسة لليسار في الجامعة، فكانت الجماعات الدينية..

ولابد من أن نشير إلى أن ممارسات يسارية لبعض عناصر اليسار الماركسي والناصري قد حملت جموع الطلاب أكثر مما هو مفترض.. وكانت النتيجة هي نمو تيار الإسلام السياسي المستند إلى السلطة ودعمها وحمايتها..

* ومع تصاعد الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وتزايد الهجرة إلى بلدان النفط وهي في الأغلب بلدان إسلامية وتمتلك واقعاً اجتماعياً محافظاً، فإن المهاجر إلى هناك يعود وقد تأثر بالنمط المحافظ في الحياة اليومية بل وربما يعود وقد اقتنع برابطة ما بين حياة من هذا النمط وبين الثراء والرفاهية وحل مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية.. إن هذه الحالة النفسية تحلق فوق صاحبها إذ يعود ويحن لأيام الهجرة، أيام تدفق الأجر العالي والدخل الوفير والعيش المرفه..

* وكذلك فإننا نعيش في عالم تتعرض فيه الرأسمالية لمأزق وصعوبات وبطالة وتضخم، كما تتعرض فيه البلدان الاشتراكية لمأزق وأزمات واختناقات (بولندا ـ المجر ـ ألمانيا الديمقراطية ـ تشيكوسلوفاكيا.. الخ) ومن هنا تسهل المقولة الداعية إلى إسقاط الفكرة الطبقية والأنظمة الاجتماعية الطبقية باعتبار أن كلاً منهما لم يحل المشكلة والداعية إلى المخرج الإسلامي..

ولابد أن نتذكر أن نشأة أولى جماعات الإسلام السياسي الحديثة (الإخوان المسلمين) كانت في عام ١٩٢٨ حيث اشتدت أزمة النظام الرأسمالي الاقتصادية، وحيث كانت التجربة الاشتراكية الوليدة تتعرض للأنواء.

* وعلى الصعيد المحلي فإن تداعي التجربة الناصرية وعجزها عن الاستمرار، بل وعن إيجاد مخرج حقيقي للمجتمع وانتهاء هذه التجربة بحالة من الإحباط السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لابد وأنه قد خلق مجالاً للقول بالأخذ بتجربة جديدة هي «الإسلامية»، حيث فشلت الرأسمالية (قبل ثورة يوليو) وحيث فشل ما ادعى أنه اشتراكية..

* هناك أيضاً الدخول الطفيلية والفساد والإفساد ونهب أقوات الناس بما يولده ذلك كله من ترف مبالغ فيه يرتبط باتجاه نحو تقليد المجتمعات الغربية في المأكل والملبس والتصرفات.. ومن ثم وفي ظل نقص الوعي الطبقي يكون من السهل الربط بين الثراء الفاحش وبين المسلك الغربي الذي ربما كان مخالفاً للتقاليد الاجتماعية.. ومن ثم ينمو الإحساس بمقاومة هذه الظاهرة الخارجية (التسيب الأخلاقي والاجتماعي) بظاهرة خارجية أخرى هي (التشدد الديني والدعوة لدولة إسلامية).

* هناك كذلك خصوصية الإسلام في مصر. فالأزهر ظل لفترة طويلة (وبسبب عدم نضج المكونات الاجتماعية كما أشرنا سابقاً) مرتكزاً لنضال الشعب المصري ضد خصومه.. وتقدم علماؤه أكثر من مرة كمدافعين عن حقوق مصر وحقوق شعبها، ومع نمو التمايز الطبقي أخذ هذا الدور في التضاؤل وهذا طبيعي تماماً، لكن البعض من مفكري وكتاب التيار اليساري وفي محاولة منهم لاجتذاب العناصر المتدينة إلى صف مقولاتهم، أعادوا تكرار هذه الأحداث ليس باعتبارها أحداثا وقعت في ظروف محدودة، وإنما باعتبارها ظواهر يمكن أن تستمر وأن تتكرر، وقد عولجت هذه المحاولات في بعض الأحيان بأسلوب مبالغ فيه انتهى بأن شجع جماعات الإسلام السياسي على توظيف هذه المقولات مؤكدة أن الإسلام وحده هو الحل.. كان كذلك في الماضي.. وهو كذلك الآن.

* والمقولات السياسية والاجتماعية إذ ترتدي الزي الديني فإنها تكتسب حصانة خاصة سواء بالنسبة للجماهير أو حتى بالنسبة للحكام، كما أنها يمكنها أن تتسع دائرة تأثيرها في ظل ظروف سياسية واجتماعية محددة أعتقد أننا أشرنا إلى معطياتها فيما سبق.. الأمر الذي يدفع بالبعض إلى الانتماء إليها للاستقواء بها في حلبة صراع سياسي ضار وحاد.. (الجناح الإسلامي في حزب العمل ـ حزب الأحرار) الأمر الذي يعطي إيحاء بحجم أكبر من الحقيقة لتيار الإسلام السياسي.

*وآخر الملاحظات التمهيدية هي السلك الشخصي لعضو جماعات الإسلام السياسي فإذا كان هذا العضو يلجأ إلى الماضي في ملبسه ولحيته واسمه وتصرفاته، فإن ذلك برغم غرابته يعطي له مسحة من الاحترام المقترن باحترام الدين ذاته، وحتى اللغة المعقدة والألفاظ القديمة التي يستخدمونها فإنها تقع في نفوس الناس موقع الوجل والرهبة، فإن لم يفهمها المواطن فلأنه ليس متديناً بما يكفي ولأنهم أكثر منه معرفة بالدين واقتراباً إلى الله.

.. وعلى العكس من هذا فإن الدعاة السياسيين الآخرين (كاليسار مثلاً) إن خاطبوا الجماهير بأسلوب مرتفع فإنها تعرض عنهم باعتبارهم مترفعين ويقولون مالا يفهم..

هنا.. وفي هذه الخصوصية تبدو خصوصية الدين وموقف الناس العاديين منه أكثر وضوحاً.

* * *

والآن وبعد هذه الملاحظات يمكننا أن نبدأ في موضوع البحث، ولست أعتقد أنني قد تطرقت إلى مالا يلزم فلعله كان من الضروري وضع الأفكار القادمة في وعاء صحيح.. وقادر على أن يتعامل بموضوعية كاملة.. دونما حساسيات أو مخاوف مفروضة أو مفترضة، وعلى أساس من فهم المسببات والدوافع والمعطيات الاجتماعية والطبقية والاقتصادية والسياسية كل ذلك في إطاره المحلي المرتبط بخصوصية الوضع المصري.. على امتداده التاريخي..

ولن نتلكأ بك عزيزي القارئ.

فقط سنمر على محطات من الإسلام السياسي أو حتى محاولات اللجوء إلى الإسلام كأداة لتحريض الجماهير سياسياً..

وبطبيعة الحال سنبدأ بجمال الدين الأفغاني.

وها نحن في أعلى القمة.. فالأفغاني فهم الدعوة الإسلامية فهماً إيجابياً، وعلى وجه صحيح فهي دعوة من أجل الإنسان، حريته وتقدمه وسعادته.. ومستقبله المرتبط بمجاراة روح العصر ومنجزات العلم الحديث.

وهو ابتداء يدعو إلى تحرير التفكير الديني من إسار التقليد والتقيد السلفي، ويدعو إلى فتح باب الاجتهاد واسعاً دون قيد.. «ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد، وأي إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟ أو أن يهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث، أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجات الزمان وأحكامه»[١٤].

ويؤكد الأفغاني صراحة «والدين لا يصح أن يخالف الأفكار العلمية، **فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله**»[١٥].

ويضرب الأفغاني مثلاً.. «أثبت العلم كروية الأرض ودورانها، وثبات الشمس دائرة على محورها، فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لابد أن تتوافق مع القرآن، والقرآن يجب أن يجل عن مخالفته للعلم الحقيقي، خصوصاً في الكليات، فإذا لم تر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة، ورجعنا إلى التأويل، إذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة، وهي في زمن التنزيل من الخلق كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود. ولو جاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية والبرق وما تفعله الكهربائية من العجائب وغير ذلك لضلت الناس وأعرضت عنه وحسبته كذباً» هل نتذكر هذه العبارة ونحن نطالع صفحات قادمة لنرى كم انحدر الأمر بأصحابه؟

وحتى في المسائل الشائكة التي لا يحتمل دعاة التطرف في أيامنا الراهنة مجرد سماع عنوانها دون إلقاء تهمة الكفر وبشكل حاسم. أقول حتى في مسألة مثل «نظرية التطور والنشوء والارتقاء» «قال الأفغاني قولاً عقلانياً يستحق التأمل» «.. فقد سئل الأفغاني عن رأيه في قول المعري:

---

[١٤] فتحي عثمان ـ الفكر الإسلامي والتطور ـ ص٢٤٦.

[١٥] خاطرات جمال الدين ـ (أملاه على محمود باشا المخزومي) ـ ص ١٦١.

والذي حارت البرية فيـه حيوان مستحدث من جمـاد

وهل يقصد المعري ما عناه داروين بنظريـة النشوء والارتقاء؟ فقال: لا أغالي ولا أبالغ إذا قلت ليس على سطح الأرض شيء جديد بالجوهر والأصل، أما مقصد أبي العلاء فظاهر واضح وليس فيه خفاء.. فهو يقصد النشوء والارتقاء مهتدياً بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب. إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبي اللمع عرضاً في مبحث الكيمياء «إن التراب يستحيل نباتاً والنبات يستحيل حيواناً. وأن أرفع المواليد هو الإنسان (الحيوان) وهو آخر الاستحالات الثلاثة. فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس فالسابق فيه علماء العرب وليس داروين مع الاعتراف بفضل وثباته على تبعاته وخدمته للتاريخ الطبيعي مع أكثر وجوهه»[16].

والفكر الصافي والمتألق، والاجتهاد الفقهي المرتبط بالواقع والمقترن بحياة الناس اليومية، وتطورات الأحداث والمكتشفات العلمية.. كان لابد له أن يرتبط بالجماهير.. ليس فقط للتحرر من الاستعمار.. وإنما للتحرر من الاستغلال «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما يسد الرمق، ويقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق بها قلب ظالمك، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك» وأيضاً «الاشتراكية وإن قل نصراؤها اليوم فلا بد أن تسود العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد ونسمة واحدة، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من السعي لصالح المجموع. وليس بتاج أو نتاج أو مال يدخره أو كثرة خدم يستعبدها أو جيوش يحشدها أو غير ذلك من عمل باطل أو مجد زائل وسيرة تبقى معرة لآخر الزمان»[17].

وهكذا نقف في القمة لنطالع اجتهادات مفكر إسلامي مستنير.. لكننا نضطر كي نتابع دراستنا أن نهبط خطوة خطوة..

---

(16) المرجع السابق.

(17) المرجع السابق.

فعندما طرد الأفغاني من مصر وهلع أنصاره من افتقاد الزعيم قال لهم في حسم «حسبكم محمد عبده، حسبكم محمد عبده من وصي أمين»

وهكذا قدم الأفغاني هديته لمصر.. محمد عبده الذي ارتقى في سلم الجهاد حتى أصبح مفتي الديار المصرية «في زمن كانت تقف فيه مصر في مفترق طرق حقيقي فالمدينة الحديثة ورياح الغرب تهب سريعاً بل ومتعجلة والمصريون في حيرة يسألون أنفسهم مع كل جديد قادم.. أحلال أم حرام».

البنوك، التأمين، التصوير الفوتوغرافي، الاستماع للراديو، استخدام مستحدثات العلم ومخترعاته؟.. وبذهن متفتح يدرك أن الدين يسر ولا عسر أفتى محمد عبده بما أراح الناس وبما دفع مصر قدماً باتجاه التطور..

ولقد كان بإمكان محمد عبده وهو «مفتي الديار» وهو «الأستاذ الإمام» أن يدعي لنفسه منزلة خاصة لكنه لم يفعل ما يفعله شبان صغار في أيامنا هذه يدعون «الإمارة» و«الخلافة» ويلقب كل منهم نفسه بأمير المؤمنين، وينصبون أنفسهم كهاناً ويمنحون أنفسهم سلطاناً على الناس..

لكن الأستاذ الإمام يأبى، بل هو يسد الطريق وبحسم «ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير، والتنفير من الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها أدناهم».

وهو إذ يزور أوربا وينبهر بما فيها من منجزات بل وسلوكيات وأخلاقيات يقول قولاً مختصراً لكنه يحمل معنى كبيراً «الكفرة يتصرفون كمسلمين بينما يتصرف المسلمون وكأنهم كفرة».

ويتمسك الأستاذ الإمام بالعقل والعلم «فالمسلم الحق هو الذي يعتمد على العقل في شؤون الدنيا والدين»[١٨] وأيضاً «لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات.. بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام

---

[١٨] محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام - ج ١- ص١١.

البرهان، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من جهد في معرفة ما بين يديها من العوالم»[19].

لكن الشيخ لم يكن كأستاذه في ربط العقل والعلم والتجديد بمعارك الناس اليومية، ولعله استلم القيادة في أيام صعبة، تتطلب حسماً ثورياً لم يستطع الشيخ أن يفعله..

ولعله فزع من «تطرف» العرابيين وحماسهم سواء ضد الخديوي أو تطرفهم وحماسهم لصالح الجماهير.. فهو يعلن بصراحة أنه انتقد حكومة رياض ومسلك الخديوي توفيق «لكنني ضد الثورة، كنت أعتقد أنه يكفي جداً أن نحصل على دستور خلال خمس سنوات، كنت أعارض أسلوب طرد رياض باشا ومظاهرة عرابي في عابدين، وكان سليمان باشا أباظة والشريعي باشا يؤيداني ضد الثورة، لكننا كنا نطالب بالدستور»[20].

لكن الثورة تندلع وتنحاز للجماهير ويتمسك محمد عبده بموقفه، بل ويلقي خطاباً أمام قادة الثورة يقول فيه «إنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس، وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك .. فهل بلغت بكم الفضيلة حداً لم يبلغ إليه أحد من العالمين، حتى رضيتم واخترتم عن رؤية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حباً بالعدالة والإنسانية؟ أم أنكم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعلمون ما لا تعملون»[21].

.. ولعل الأمر يتضح بمراجعة ملاحظاتنا السابقة، لقد أفلت الزمام من الشيخ. والجماهير التي كانت بلا وعي اجتماعي اكتسبت وعياً وطنياً واجتماعياً واضحاً.. ولم يعد للشيخ ذات المكان السابق، فشعر بالعزلة عن الواقع، واصطدم به.. وارتد خطوة إلى الوراء..

---

(19) محمد عبده ـ رسالة التوحيد ـ ص ١٤١.

(20) د. علي الحديدي ـ عبد الله النديم ـ ص١٧٧.

(21) المرجع السابق.

ويكتب الشيخ إلى أستاذه معبراً عن عزلة قاتلة عما يجري «كنت أظن أن قدرتي غير محدودة، ومكانتي لا متبوتة ولا مقدودة، فإذا أنا من الأيام كل يوم في شأن جديد، تناولت القلم لأقدم إليك من روحي ما أنت به أعلم، فلم أجد من نفسي سوى الأفكل (المرتعش)، والقلب الأشل، واليد المرتعشة، والفرائض المرتعدة والفكر الذاهب، والعقل الغائب»[٢٢].

ويرد الأفغاني على تلميذه معنفاً وقائلاً «إنما أنت مثبط»

* * *

ويرحل الأستاذ الإمام.. ويأتي من بعده خليفته محمد رشيد رضا، ونكتشف أننا نهبط الدرج خطوة أخرى.

فرشيد رضا كان من تلاميذ الإمام الذين اعتقدوا «أنه قد قدم تنازلات غير ضرورية لصالح المدينة والتطور الحديث»[٢٣].

ومع ذلك يبقى عبق الإمام وتعاليمه في مواقف وكتابات رشيد رضا..

فهو يكتب في مقدمة العدد الأول من المنار «أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيذ أحلامه حسبك حسبك فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماءً أو موتاً زؤاماً، تنبه من رقادك وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى العالم الجديد، فقد بدلت الأرض غير الأرض.. اعلم أن هذا العصر عصر العلم والعمل فمن علم وعمل ساد، ومن جهل وكسل باد»

والعلم يمثل مسألة مهمة للغاية في فكر رشيد رضا.. كذلك الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين.. ويروي رشيد رضا عن زياراته لبيروت فيقول إنه أسهم مع فضلائها «في إنشاء مدارس لتعليم جميع النصارى متفقين معهم على ذلك.. وإنما جعلت مشاركة النصارى لهم من قبيل الاستنباط العقلي»[٢٤].

---

[٢٢] عباس العقاد ـ محمد عبده ـ ص١٣٣.

[٢٣] مجيد خضوري ـ التيارات السياسية في العالم العربي ـ بالإنجليزية ـ ص٥٦.

[٢٤] المنار ـ ج١١ (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩) ـ ص ٧٠٦.

وهو يمتدح أهل بيروت «رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل إصلاح ديني ومدني، ورأيت فيهم نفراً من أهل الغيرة الملية والميل للأعمال التي تنهض بالأمة، وترقى شأن البلاد».

.. والعلم عند رشيد رضا هو العلم الحديث وليس غيره، فهو يتحدث عن زياراته لطرابلس قائلاً «ذلك بأن مسلمي طرابلس أكثر من أهل بيروت اشتغالاً بدرس كتب الفنون العربية والعلوم الإسلامية التي وضعت منذ القرون الوسطى بعد انحطاط مدينة المسلمين وضعفهم في العلوم وهي مما يضعف الاستعداد، لأنه يشغل الفطرة، ولا يكملها فيكون عائقاً لها عما سواه».

..«ومن الأسباب في ذلك قلة احتكاك أهل طرابلس بمن هم أرقى منهم في العلوم والأعمال من الأجانب والعثمانيين فإن طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدني، لا يهاجر إليها المرتقون في العلوم»[٢٥] ولكن رشيد رضا لم يأخذ بكل ما قاله إمامه، فإذا كان الأستاذ الإمام قد خاض معركة «التجديد» ضد دعاة «التقليد» فإن رشيد رضا يأخذ من دعوة التجديد أضيق جوانبها، ويشن هجماته ضد من أسماهم «دعاة التفرنج» متراجعاً حتى عن بعض ما دعا إليه في أيامه الأولى، فهو يعلن «أنه من الجنون أن نسعى إلى انتزاع مقومات الأمة الإسلامية الدينية والتاريخية، واستبدال مقومات أمة أخرى ومشخصاتها بها» وانتهى به المطاف إلى الدعوة للخلافة الإسلامية «فهي الحكومة المثلى التي بدونها لا يمكن أن تتحسن حال البشرية والدولة الإسلامية الأصيلة هي خير الدول فهي وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج، تلك الحضارة المادية التي تفتك بها ميكروبات الفساد، وأوبئة الهلاك فهي عرضة للزوال»[٢٦].

---

[٢٥] رحلات الإمام محمد رشيد رضا ـ جمعها وحققها د. يوسف أيبش ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) - (١٩٧١) - ص١٢.

[٢٦] رشيد رضا ـ الخلافة أو الإمامة العظمى - (١٣٤١هـ) - ص١١٦.

ثم خطوة أخرى إلى الوراء.. فإذا كان الأفغاني يدعو لحرية المواطن ويشن هجوماً عنيفاً ضد الحكام الطغاة، وإذا كان محمد عبده قد سكت عن هذه القضية أو اتخذ إزاءها موقفاً معتدلاً فإن رشيد رضا يدعو للولاء المطلق والسيادة المطلقة «لولي الأمر الذي أمر الله بطاعته»[٢٧].

لكننا لابد لنا قبل أن نترك الشيخ رشيد رضا أن نشير إلى موقفه من قضية هامة.. وهي موقفه من مسألة الحجاب.. فهو يتحدث عن دور بعض العناصر المستنيرة في بيروت في محاولات تعليم المرأة والسير بها في ركاب الحضارة «بل كانوا يرون أن نساء المسلمين لابد وأن يتركن الحجاب، ويجارين غيرهن من نساء الملل في الحضارة العصرية، وأن الخير لنا أن نبني ذلك على أساس متين، أي جامع بين مصلحة الدنيا وصلاح الدين»[٢٨].

هكذا نجد المواقف غير متكاملة، فالنظرة الشاملة للاستنارة تفتقد، ونحل محلها بقع مضيئة هنا أو هناك لكنها بقع تكتسب تألقا مميزاً شجاعاً..

وعلى أية حال لقد أجبرنا الشيخ رشيد رضا على أن نهبط معه خطوة أخرى.

* * *

«نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا»

هكذا أكد الشيخ حسن البنا.

نحن الآن مع كبرى جماعات الإسلام السياسي.. وأمام المؤسس الحقيقي لفكرة الإسلام السياسي في العصر الحديث.

عام ١٩٢٨ هو عام الأزمة الاقتصادية العالمية، عام إشهار إفلاس أولي للنموذج الرأسمالي، بينما كان النموذج الاشتراكي الوحيد يتعثر، ويكون ملائماً أن يوجه حسن البنا الأفكار نحو «الحل الإسلامي».

---

[٢٧] رشيد رضا - كتاب الوحي - ص٢٣٩.

[٢٨] المنار - ج ٢٢ (١٩٢١) - ٣٩٠.

«نحن سلفيون من أتباع الشيخ رشيد رضا» هكذا قال البنا، ويتباهى البنا بأن رشيد رضا كان على وشك الانضمام للإخوان المسلمين قبيل وفاته.

لكن البنا كان امتداداً أشد «سلفية» «من التلميذ السلفي» للشيخ محمد عبده..

وهكذا نكتشف دائماً أن هناك خطوة إلى الوراء.

وإذا كان رشيد رضا يدعو للانفتاح على العلم الحديث وحتى على حضارة الغرب فإن البنا كان يرفض كل الحضارة الغربية باعتبارها حضارة «نصرانية» و«كافرة»، بل ويرفض التعليم الحديث والمدارس الحديثة (التي عمل هو نفسه مدرساً فيها) قائلاً إنها مدارس «مبتدعة» وأن الأبناء «يخرجون منها وقد تسممت عقولهم بالآراء الإلحادية وشبوا على التقليد والإباحية»

وهو يهاجم المدينة الغربية قائلاً «وأعتقد أن قومي ــ بحكم الأدوار السياسية التي اجتازوها، والمؤثرات الاجتماعية التي مرت بهم، وبتأثير المدنية الغربية، والشبه الأوربية، والفلسفة المادية، والتقليد الإفرنجي بعدوا عن مقاصد دينهم، ومرامي كتابهم، ونسوا مجد آبائهم، وآثار أسلافهم، والتبس عليهم هذا الدين الصحيح بما نسب إليه ظلماً وجهلاً»[٢٩].

وقد بنى حسن البنا جماعته على أساس من فكرة «البيعة» وقد فهم البيعة على أساس أنها تنازل عن الإرادة الذاتية للعضو، يقدمه طائعاً مختاراً «للمرشد»، مقابل أن يتحمل عنه المرشد المسؤولية أمام ربه.. فأول بيعة في جماعة الإخوان المسلمين تمت بين المؤسسين الستة.. الذين خاطبوا حسن البنا قائلين «إننا لا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما تعرف ولك الذي

---

[٢٩] حسن البنا مذكرات الدعوة والداعية ـ دار الشهاب ـ ص١٠.

نريده الآن أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة أمام الله، وتكوين أنت المسؤول بين يديه عنا وعما يجب أن نعمل»[٣٠].

وهكذا كتب أحد قادة الإخوان إلى المرشد قائلاً «إن من حقك علينا الطاعة، على هذا بايعنا وعاهدنا، ولنا فيك الثقة الكاملة وعندك الطمأنينة الشاملة»[٣١].

.. ونقترب أكثر من فهم أساليب الدعوة فالشيخ يتعمد أن يعمق الانتماء السلفي لعضوية.. ويروى كيف أن أحدهم قد نصحه قائلاً: يا أخي سَم، فأقول وما أسمي.. فيقول سم أخوانك وأصحابك ومنشآتك قل لهذا أنك تشبه أبا بكر ولهذا أنك تشبه عمر فإن هذا يبعث فيهم الحمية وسم منشآتك معهد حراء للبنين مدرسة أمهات المؤمنين، نادي الخندق[٣٢].

ولقد تعمد الشيخ البنا أن يميز بين عضويته وبين بقية الناس، وكان أول من أشار إلى تميز أتباع الإسلام السياسي بأسماء وأزياء متميزة، فعندما أنشأ أول مدرسة.. «أطلقنا عليها اسماً إسلامياً هو معهد حراء الإسلامي، **واشترطنا للتلاميذ زياً خاصاً**: هو جلباب ومعطف من نسيج وطني، وطربوش أبيض.. وصندل، **وكانت مواعيد الدراسة مخالفة لمثلها في المدارس**»[٣٣].

كثيرة هي الكتب والمعلومات التي كتبت عن جماعة الإخوان المسلمين، لكنني تلمست هذه التفاصيل عن.. البيعة التامة والخضوع المطلق للمرشد، التسمية بأسماء سلفية إثارة للحمية، الزي الخاص والتميز عن المجتمع كلما أمكن حتى في مواعيد الدراسة..

---

[٣٠] المرجع السابق. ص٧٦.

[٣١] أنور الجندي - الإخوان المسلمون في ميزان الحق - ص٦٩.

[٣٢] حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - المرجع السابق - ص٩٨.

[٣٣] المرجع السابق - ص٩٦.

..هذه العلامات الثلاث نسجها البنا في بداية دعوته عندما كانت جماعته لم تزل ضعيفة وكان يريد أن يبث في نفوس أتباعه روح «الاستقواء» بالنزعة السلفية، و«الاستعلاء» بالتميز عن غيرهم وعندما قويت الجماعة لم يعد البنا بحاجة إلى هذا الاستقواء السلفي أو الاستعلاء المظهري..

ولكن.. تبقى الفكرة لتكررها جماعات الإسلام السياسي الجديدة.. ذات الفكرة بأبعادها الثلاثة.. هل في الأمر مصادفة؟ أم أنه منهج واحد.

ونعود بعد هذه الملاحظة إلى الشيخ والجماعة، ولنتحدث الآن عن موقفهما من الحكم.

*الإسلام دين دولة، وعبادة وقيادة، مصحف وسيف لا ينفك أحدهما عن الآخر.

*الدين شيء والسياسة غيره.. دعوة نحاربها بكل سلاح.

*الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد.. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع.

* **«أتحسب أن المسلم الذي يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعجزة والآثمين والدخلاء والمستعمرين يسمى مسلما؟ كلا إنه ليس بمسلم فحقيقة الإسلام جهاد وعمل ودين ودولة»**[٣٤]

وليأذن لي القارئ أن أتوقف عند عبارة كلا إنه ليس بمسلم.. حتى هذا الذي يتفرغ للعبادة دون أن يخوض معركة الإسلام السياسي ليس بمسلم.. أليست هي بذرة التكفير التي أطلت بشكل سافر في جماعات الإسلام السياسي الحديثة..

.. إلى هنا ونحن نجد أن جماعة الإخوان «تسير خطوات إلى الوراء، ونجد أنها أيضاً المصدر والمنبع للفكر المتطرف الموجود في ساحة العمل السياسي اليوم».

---

[٣٤] الإخوان المسلمون (الأسبوعية)، ٤- ٣- ١٩٤٥- مقال بين الدين والسياسة.

لكن الشيخ لم يكن في بساطة دعاة الإسلام السياسي اليوم، كان يتلاعب بالمواقف والألفاظ ليحاول أن يمر بجماعته وأن يستقوي بجهازه السري إلى أن يحين الحين..

والبنا لم يكن يغلق الباب أبداً على نفسه أو على دعوته، وكان دوماً يترك لنفسه مخرجاً.. خاصة عندما يتحدث عن الجماعة وأهدافها..

.. «هل نحن طريقة صوفية، جمعية خيرية، مؤسسة اجتماعية، حزب سياسي، نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة.. نحن نجمع بين كل خير»[٣٥].

لكنه لا يلبث أن يقول «إن الإخوان دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة عملية، جمعية ثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية»[٣٦].

ولكن متى يمكنك أن تمسك بالزئبق، فإن الشيخ لا يلبث يسير بالكلمات ذات الكلمات في اتجاه عكسي «يا أيها الإخوان، لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضوعية الأغراض محدودة المقاصد، لكنكم روح جديد، ونور جديد، وصوت داو»[٣٧].

هل يمكنك أن تمسك بكلمات من نوع روح جديد.. نور جديد.. صوت داو.

هنا يختلف أمير «جماعة الإخوان» عن أمراء الجماعات الجديدة فهو أكثر مراوغة، وهو يؤمل في البقاء لأطول فترة، حتى «يستقوي» بالمزيد من الأعضاء والعتاد.. والجهاز السري..

وقد اتخذت المراوغة السياسية لحسن البنا شكلين أساسيين.. إقناع أحزاب الأقلية بأنه القوة القادرة على مواجهة الوفد، والتقرب إلى الملك ومحاولة إلباسه ثوب خليفة المسلمين..

---

[٣٥] أنور الجندي - المرجع السابق - ص١١.

[٣٦] المرجع السابق - ص١٥.

[٣٧] الإخوان المسلمون، ٩ - ٣ - ١٩٣٧ - مقال لحسن البنا بعنوان: حامي المصحف.

..«أن ٣٠٠ مليون مسلم في العالم تهفوا أرواحهم إلى الملك الفاضل الذي يبايعهم على أن يكون حامياً للمصحف، فيبايعونه على أن يموتوا بين يديه جنوداً للمصحف. وأكبر الظن أن الله قد اختار لهذه الهداية العامة الفاروق، فعلى بركة الله يا جلالة الملك ومن ورائك أخلص جنودك»[٣٨].

.. «وإن لنا في جلالة الملك أيده الله أملاً محققاً»[٣٩]. بل لقد أسمت جريدتهم ديوان الملك بالديوان الملكي الإسلامي»[٤٠].

وفي يوم اعتلاء فاروق العرش تتوجه مواكب جوالة الإخوان إلى قصر عابدين «لتبايع الفاروق على كتاب الله وسنة رسوله».. الأمر «الذي منحها هي والجماعة مساندة السراي»[٤١].

وكان طبيعياً بعد ذلك أن تصدر وزارة محمد محمود باشا في عام ١٩٣٨ قانوناً بإلغاء التشكيلات شبه العسكرية القمصان الخضراء ــ مصر الفتاة، القمصان الزرقاء ـ الوفد) ويستثنى من قرار الحل جوالة الإخوان المسلمين[٤٢].

وقد كان الإخوان المسلمون سنداً لأحزاب الأقلية ضد حزب الأغلبية البرلمانية (الوفد).. ولم يجدوا غضاضة في مساندة أردأ الحكام أمثال إسماعيل صدقي مستندين إلى الآية القرآنية «واذكر في الكتاب إسماعيلا أنه كان صادق الوعد وكان صديقاً نبياً» بل وساندوا معاهدة صدقي ــ بيفن وشبهوها بصلح الحديبية.

وكان طبيعياً بعد ذلك كله أن تنعم الجماعة ولفترة طويلة بمساندة السلطة ودعمها..

---

[٣٨] النذير، ١ـ ٦ـ ١٩٣٨ـ مقال لحسن البنا بعنوان: أيها الإخوان تجهزوا.

[٣٩] الإخوان المسلمون، ٩ـ ٩ـ ١٩٣٨.

[٤٠] د. زكريا سليمان البيومي ــ الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية ــ مكتب وهبه (١٩٧٩) ص١٢٦.

[٤١] القانون ١٧ لسنة ١٩٣٨ بتاريخ ٨ مارس ١٩٣٨.

[٤٢] حسن البنا ـ مذكرات الدعوة والداعية ـ المرجع السابق ـ ص٢٣٣.

ففي ٢٤ مايو ١٩٣٧ يقرر مجلس مديرية الدقهلية منح شعبة الإخوان المسلمين بالمنصورة إعانة سنوية[٤٣] ثم تتوالى المعونات ويكون أكثرها في عهد حكومة الطاغية صدقي مثل «ترخيص بإصدار صحفية يومية في مايو ١٩٤٦، وامتيازات في شراء ورق الطباعة بالأسعار الرسمية، وتسهيلات خاصة بالجوالة تتمثل في تخفيض سعر زيها الرسمي، وحرية استخدام المعسكرات، ومنح قطع من الأرض لإقامة المعسكرات.. كما ضمت الحكومة محمد حسن العشماوي كوزير للمعارف وهو معروف بميوله الدينية، كذلك تمتعت الجماعة ببعض المساعدات غير المباشرة من وزارتي التعليم والشؤون الاجتماعية»[٤٤].

لكن كل ذلك لا يجدي..

فالشيخ ما أن يستشعر قدراً من القوة حتى يكشف الستار عن دعوة «الجهاد» ويبدأ السلاح والمفرقعات والاغتيالات كأدوات لتعبير الجماعة عن مواقفها.

.. وتحل الجماعة، ويحاصر الشيخ فيتراجع تراجعاً غير معقول ويصدر بياناً يتهم فيه أخلص رجاله الذين وصفهم يوماً بأنهم «رهبان الليل وفرسان النهار» يتهمهم بأنهم «ليسوا أخواناً وليسوا مسلمين»..

ويقتل البنا.. يقتله أتباع للقصر الملكي الذي أنهك البنا نفسه وفكره وجماعته تملقاً له.

ولكن هل تثمر المراوغة.. ففي عام ١٩٥١ يتوجه قادة جماعة الإخوان ومنهم أقرب المقربين من حسن البنا إلى قصر عابدين ليعربوا لقاتل إمامهم.. عن كامل ولائهم..

وقبل أن نستطرد نود فقط أن نسجل، أنه إذا كانت ثمار الجماعة الأولى «البيعة ـ المسميات السلفية، التميز الظاهري عن المجتمع، قد تركت

---

[٤٣] د. زكريا سليمان البيومي ـ المرجع السابق ـ ص١٠٦.

[٤٤] أقوال شكري مصطفى امام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا في رقم ٦ لسنة ١٩٧٧.

انعكاسها بشكل أكثر وضوحاً على جماعات الإسلام السياسي الحديثة بسبب عزلتها أكثر فأكثر عن المعطيات الواقعية للمجتمع الحديث، وبسبب عدم قدرتها على التعايش (الظاهري) مع المجتمع كما فعل البنا، فإن درس المراوغة قد أثمر أيضاً.. كما سنرى فيما بعد من تشدد الجماعات ومن رفضها لأية مساومة للسلطة.. فقد رأوا كيف انتهت المراوغة بصاحبها..

لكن الدرس لم يكن مباشراً.. فقد احتاجت جماعات الإسلام السياسي إلى تجربة أكثر مرارة من تجربة البنا هي تجربة شكري مصطفى..

وشكري مصطفى هو عضو بجماعة الإخوان، تتلمذ على تعاليم سيد قطب الذي سئم سياسة المداهنة التي اتبعتها جماعة الإخوان، سعياً وراء «الاستقواء» أي تجميع مصادر القوة ثم «التبوء» أي الاستيلاء على السلطة السياسية..

سيد قطب سئم هذه المداهنة وقرر أنه لا مساومة مع المجتمع الجاهلي بحكامه ومحكوميه.

وسيد قطب هو مفكر فترة الارتداد الإخواني، بعد المحنة الثانية (١٩٥٤) حيث استطالت فترة السجن لأمد طويل، (فالمحنة الأولى) لم تستمر طويلاً من نهاية ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٠ بالنسبة للمعتقلين ثم حتى ١٩٥٢ بالنسبة للمسجونين)..

أما مسجوني ومعتقلي عهد عبد الناصر فإن السنوات تراكمت أمامهم بلا أمل حقيقي، ثم جاء عبد الناصر ليصعد بأسهمه مستجمعاً نفوذاً جماهيرياً (مصرياً وعربياً وإسلامياً) لم يسبق له مثيل بحيث تضاءل أمامه نفوذ أية قوة سياسية أخرى منافسة كانت أم مناوئة أم صديقة..

أمام هذا النفوذ الجماهيري الطاغي تحتم أن يكون الانزواء (ولو مؤقتاً) هو مصير القوى السياسية التي عارضت حكم عبد الناصر.. وهي تحديداً الشيوعيون والإخوان..

ولقد اختار الشيوعيون طريق الانحناء أمام الجماهير، وقرروا (أوفي تحليل آخر تصوروا) أنهم بتأييدهم (وأحياناً تضاف كلمة المطلق وغير المشروط) لعبد الناصر فإنما يخضعون لاختيار وإرادة الجماهير.

أما سيد قطب فقد اختار طريقاً يرفض كل ما هو قائم، فهو جاهلي، معاد للاستعمار كان أم عميلاً له هو جاهلي، مع الاشتراكية أم ضدها هو جاهلي، مع الديمقراطية أو الديكتاتورية.. هو جاهلي.. فرفض النظام من جذوره أيا كانت الأفرع والأوراق والثمار.

واستتبع ذلك موقفان: الأول تكفير الحاكم والثاني: الاستعلاء بالإيمان..

وتكفير الحاكم ينبع من كون نظامه جاهلي ولا يحكم بما أنزل الله، وإذ كانت الجماهير (وهي عموم المسلمين) تؤيد الحاكم الكافر وتساند حكمه فنحن رغم قلة عددنا أفضل وأكثر أهمية بل وأقوى لأننا أقرب إلى الله.

«وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأمر الله».

.. ويلخص ذلك كله في كلمة الاستعلاء بالإيمان..

ويذهب سيد قطب ضحية لكتابه «معالم على الطريق» وتكون المحنة الثالثة (١٩٦٥).

ومن داخل سجن طره يظهر بين سجناء الإخوان هناك تلميذ بارز لسيد قطب هو شكري مصطفى. ولم يكن شكري مصطفى سوى تكرار لذات الظاهرة..

لقد هبط سيد قطب السلم.. انخفض مرحلة أو مراحل في طريق التطرف.. ومد شكري مصطفى الخط على استقامته إلى أسفل..

.. وسأل شكري مصطفى نفسه.. هل لنا ولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ هل نحن «أهل الحل والعقد» «هل مرشدنا هو ولي الأمر بحيث يكون له السمع والطاعة».

وكانت الإجابات ببساطة.. لا

لماذا لأن جماعة الإخوان أعلنت نفسها «جماعة من المسلمين» هم أكثر تقوى، وأكثر إيماناً، ويدعون لدولة مسلمة وحاكم مسلم وتطبيق الشريعة لكنهم مجرد مجموعة من المسلمين.. وليسوا «جماعة المسلمين» «أهل الحل والعقد».. «ولاة الأمر في الإسلام».

والخلاف حول إضافة «من» أو حذفها ليس خلافاً بسيطاً، إنه يمثل الجوهر في الفكرة كلها، فإذا أعلن شكري مصطفى تكوين «الجماعة المسلمة» ونصب نفسه (أو بايعه أتباعه أميراً لها).. هو إذاً أمير جماعة المسلمين.. ومن ثم سهل عليه أن يطلق على نفسه «طه المصطفى شكري»، أمير المؤمنين، أمير آخر الزمان ووارث الأرض ومن عليها.

..الخط يبدو أنه مستقيم إلى أسفل.. هبوطاً بل ومزيداً من الهبوط..

ونسأل ما هو الفارق الذي أضافته عملية حذف «من».. وإضافة تصور شكري مصطفى أنه أمير جماعة المسلمين؟ ما يميز جماعة المسلمين عن الجماعات الإسلامية الأخرى هو أن الجماعة المسلمة ترى:

* أن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعاً.

* إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس.

* أن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساسي كي يكون المسلم مسلماً ونرفض ما ابتدعوه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد اسلموا أنفسهم إلى الطاغوت وهو الحكم بغير ما أنزل الله واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلماً.

* أن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذي يفارق جماعة المسلمين كافراً.

*الإسلام الحق هو الذي تتبناه «جماعة المسلمين» وهو ما كان عليه الرسول «صلعم» وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط، وبعد هذا لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن[٤٥].

وفي ذلك الحين كانت تتواجد جماعة أخرى هي امتداد لحزب التحرير الإسلامي.. أسميت جماعة «صالح سرية» وقد تركز الخلاف بين الجماعتين حول مسألتين.

يقول صالح سرية «لا جهاد إلا بوجود خليفة للمسلمين» ويقول «بعدم شرعية بناء المساجد وإصلاحها لأنها تكون عتاداً للدولة الكافرة».

وانتهت جماعة صالح سرية سريعاً بعد أحداث الفتنة العسكرية التي انتهت بإعدامه وعدد من أتباعه وتفكيك منظمته وبقي شكري مصطفى ليواصل المزيد من التطرف، لسبب بسيط وهو أنه قد رفض المجتمع حكام ومحكومين، حكم بكفرهم حكاماً ومحكومين، وأفتي بعدم إسلامهم وأن نطقوا الشهادتين.. ومن ثم ازداد عزلة.. وازداد لجوءاً إلى النص والتمسك به في مواجهة كل واقع مهما كان ساطعاً..

ولكن لم نتكلم نحن.. وللرجل كلماته ومواقفه..

والوثيقة التي سنقتبس منها الآن هي واحد من أهم كتب شكري مصطفى وهو المخصص كي يدرسه «أمراء المجموعات» أي الكوادر الأساسية للجماعة.. واسمه «التوسمات».

والكتاب مخطوط لسبب بسيط وهو أن شكري في حمى تكفيره للمجتمع اعتبر كل منجزات المدينة الحديثة «متاعاً كافراً» فالمطبعة متاع كافر لا يجوز استخدامه..

.. على أية حال المخطوط تحت أيدينا، فلنحاول الإشارة إلى بعض قليل مما يحتويه..[٤٦] سنستعرض الآن بعض فقرات الكتاب دون تعليق.

---

[٤٥] شكري مصطفى ـ التوسمات (مخطوط على ورق كراس مسطر متوسط الحجم من ٨٥ صفحة.. مدون بالحبر الأسود والعناوين وبعض الفقرات الهامة بالحبر الأحمر).

وبعد بسم الله الرحمن الرحيم تكون البداية كما يلي: أن كل شيء خلقناه بقدر. تساوي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون. والخلاصة العملية لإقامة دولة الإسلام تبنى وتقوم على أمرين:

١) تدمير الكافرين. ٢) توريث المؤمنين الأرض من بعدهم.

«إن توريث المؤمنين الأرض حق ثابت لا يتغير وسنة ثابتة لا تتحول ولذلك جعلها الله وعداً منه».

..«كما بدأنا أول الخلق نعيده»

وهنا يتوقف شكري مصطفى ليمسك بكلمة «كما».. وكما تعني «مثل» «كما استخلف الذين من قبلهم» وفي الحديث «سيعود الإسلام غريبا كما بدأ والمثلية عند شكري كاملة ومطلقة، فكما هلك الكفار القدامى سيهلك الكفار الجدد وسيعود الإسلام كما أيام الرسول، مثله، بشكل مطلق، «كما بدأنا أول الخلق نعيده».

وهكذا سيعود الإسلام كما كان تماماً أو كما قال شكري «شبراً بشبر وذراعاً بذراع».

ويواصل شكري مصطفى..

«لكن الرسول لم يقم للإسلام دولة إلا بعد الهجرة.. فهل علينا نحن جماعة آخر الزمان أن نهاجر تأسياً بالرسول حتى نقيم للإسلام دولة، والإجابة نعم.. لابد من الهجرة.. لا إسلام ودولة تقام له إلا بعد الهجرة»

ثم يضيف حجة أخرى «وما من رسول إلا وهاجر» (لاحظ هنا كلمة رسول فهل كان شكري يقارن نفسه بالرسل) وثمة حجج أخرى أن غاية الوجود الإنساني هي عبادة الله ومن ثم الحصول على رضوانه وعبادة الله لو قسمناها تقسيماً للإيضاح والبيان تتمثل في:

---

[٤٦] عبد الرحمن أبو الخير ـ ذكرياتي مع جماعة المسلمين (التفكير والهجرة) ـ دار البحوث العلمية الكويت - (١٩٨٠) -٥٧.

١ـ أن ينجو الإنسان بنفسه أولاً من الفتنة، فتنة السقوط في الشرك، وفتنة التعرض للرجم والتعذيب من قبل الكفرة.

٢ـ إحداث البلاغ الكامل الشامل على مستوى الأرض.

٣ ـ الجهاد في سبيل الله لتقام دولة الإسلام.

وهذه العبادة بأقسامها الثلاثة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها إلا في المجتمع المسلم الذي عن طريقه سيتحاكم إلى شرع الله في كل أموره، ولكن هذا المجتمع لا يوجد، فأصبح وجوده ضرورة لعبادة الله، لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وحجج أخرى «الجهاد في سبيل الله لم يفرض على المسلمين إلا بعد الهجرة» و«الإذن بالقتال لم يأت إلا في المدينة بعد الهجرة»، كذلك «فإن هلاك الكفار وتدمير دولتهم لا يأتي وهناك مؤمنين في وسطهم، السنة أن يخرج المسلمون من أرض الكفر ولا يبقى إلا الكافرون.. حين ذلك ينزل العذاب عليهم».

.. تكفير الناس جميعاً إذا لم ينضموا إلى جماعته، وضرورة الهجرة.. من هنا أطلق على اسم الجماعة «التكفير والهجرة» لكن اسمها الحقيقي هو «الجماعة المسلمة».

وبعد الهجرة الجهاد.. ويستند في تحديد شكل الجهاد إلى الآية الكريمة «بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق» ويعلق شكري «أن الله لم يضع الحق على الباطل.. بل يقذفه.. أي بقوة وبشدة».

ثم «فإذا هو زاهق» أي أن تكافؤ القوة ليس ضرورياً، ذلك أنه يكفي أن يقذف الحق بنفسه على الباطل مهما كان الباطل أقوى وأعتى وأكثر تسليحاً.. «فإذا هو زاهق».

ويحدد شكري أسلوب الجهاد وأسلحته مستنداً إلى النص الحرفي وإلى التفسير الحرفي للنص «الضابط في ذلك هو أن ما جاء بنص عام يبين أن هذا الأمر من دين الله، وأنه من أعمال المسلمين وأنه لا يكون إيمان بغيره، إذا جاءت النصوص بهذه الصورة فحينئذ يلزمنا الأتباع.. فمثلاً عندما يقول الله

سبحانه وتعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فهذا خطاب موجه للمؤمنين في أول الزمان وفي آخر الزمان، والقوة هي الرمي، والخيل هي الخيل فإذا جاء من يقول أن الخيل لا تصلح الآن فنقول.. عندما نقاتل سيكون قتالنا بالسيف والرمي وبالخيل».

فكيف تواجه الخيل الدبابات والطائرات والصواريخ والقنابل الذرية يجيب ببساطة «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين».

ويمضي سكري مصطفى ليكمل تضييق الحلقة «لا إجماع ولا قياس ولا مصالح مرسلة، ولا رأى صحابي ولا.. ولا، قال الله وقال الرسول وحسب.. هكذا كانت جماعة محمد (صلعم) تنهل نهلاً مباشراً من كلام الله وكلام الرسول (صلعم) وجماعة آخر الزمان لابد وأن تسلك نفس الطريق».

الكتاب والسنة فقط وكل ما بعدهما مرفوض وليس من الإسلام، حتى العلم، والتعلم مرفوض لأن «جماعة محمد (صلعم) كانت لا تتعلم لمجرد العلم ولا تتعلمه للدنيا ولكن للعبادة».. «العلم وسيلة لعبادة الله، وكل علم تعلمه الإنسان لغير العبادة فقد تعلمه لنفسه، وتعلمه لغير الله وهذا شرك وكان الرسول يتعوذ من علم لا ينفع» «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع أي علم لا أعبدك به». «النبي (صلعم) لا يقرأ ولا يحسب وكان في قدرته أن يقرأ ويحسب بل أمته كلها أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.. خير أمة أخرجت للناس أمة أمية. ويقصد بالأمة الأمية عموم هذه الأمة وغالبيتها ولا يمنع من ذلك أن يكون هناك بعض الكاتبين الحاسبين ولكن جماعة الحق في آخر الزمان.. سمتها وعمومها أنها أمة أمية».

وهكذا يكون التفسير الحرفي للنص قفصاً لا مهرب منه..

ومرة أخرى يعود شكري مصطفى ليقدم تصوراً لقيادة دولته.. «فيمهد الله لجماعة الحق بقتال بين قوتين عظيمتين بينهما خلاف فكري كبير وكل منهما تحاول الغلبة والسيطرة على الأرض ونقصد بذلك روسيا

وأمريكا.. وبعد أن يدمر كل منهما الآخـر في الحـرب العالميـة الثالثـة يبـدأ المسلمون في القتال.»

ونعود مرة أخرى إلى «كما» فكما قاتل الروم الفـرس تمهيـداً لقيـام دولـة الإسلام الأولى.. يحدث ذلك أيضاً الآن.

.. مرة أخرى كيف يحارب المسلمون «أسلوب القتال عنـد المسلمين هـو مواجهة رجل لرجل لأنها نفوس باعت الدنيا واشترت الآخرة، أمـا أصـول الكافرين في القتال فهي نتاج طبيعي لمعصية الله وقـد أعـدت بـأموال كـافرة وأصول كافرة».

والأمر بسيط عند شكري «فالله سيمكن لنا في الأرض بقدرته وهو أمـر لا يمكننا نحن أن نتدخل فيـه فقد وعدنـا سـبحانه وتعـالى بأننـا إن عبدنـاه نصرنا».

.. وقبل أن نترك شكري مصطفى في أسفل السفح لابد لنا أن نلاحظ أنه أسمى نفسه «أمير آخر الزمان» لماذا؟ لأنه يعتـبر أننـا نعيش فعـلاً في آخـر الزمان «تقوم الساعة والروم أكثر الناس» ويفسر شكري الحديث قائلاً «الروم هم اليهود» وعلو اليهود في الأرض هو إحدى علامات الساعة..

ويورد علامات عديدة للساعة منها عمران بيت القدس.. جفاف بحـيرة طبريا، نخل بيسان لا يثمر ويقول أن هذه العلامات تتحقق فلا يبقى سـوى أن تنهض الجماعة المسلمة لترث الله وتقيم العدل..

ولكن مرة أخرى كيف؟ وبـأي سـلاح.. شـكري يـرى أن رجالـه ليسـوا بحاجة إلى سلاح كثير «فهؤلاء هم الذين سوف ينطق لهـم الحجـر يـا عبـد الله تعـال فـإن ورائـي يهـودي فاقتلـه، وهـؤلاء هـم الذيــن سـتفتح لهــم القسطنطينية بغير قتال ولكن بقوله لا إله إلا الله».

.. ومعروف مصير شكري وجماعته..

ولكن قبل أن ننتقل لابد وأن نسجل أن كل هذا التشدد المبالغ فيه كـان تشدداً لفظياً، فصاحب أكـثر الكلمـات صخبـاً وتطرفـاً كـان مسـتعداً أيضـاً

للتهادن مع «الطاغوت» ومع الحكومة الكافرة.. أليس هو السليل المباشر لجماعة الإخوان؟.

يروي أحد أقطاب الجماعة المسلمة وهو عبد الرحمن أبو الخير حواراً غريباً ومثيراً للدهشة.. لعله من الضروري أن نشير إليه. فبعد أحداث الفتنة العسكرية عقد اجتماع لقادة «الجماعة المسلمة».. ويدور الحوار التالي كما سجله عبد الرحمن أبو الخير. «أبو عبد الله (ماهر بكري): لقد عرضت الحكومة رغبتها في التعاون معنا على أساس أن جماعتنا تصرف الشباب عن المناهج الانقلابية وتدعو إلى الهجرة. أن الحكومة في حاجة إلى جماعة إسلامية تستوعب الخاصة من الشباب، ثم إلى جماعة تستوعب العامة من الشباب.. ونحن إن شاء الله جماعة الخاصة وقد قبلنا ذلك، وقد يقولون علينا عملاء، فليقولوا، المهم أن نحقق تقدم الجماعة وسنصبح إن شاء الله الجماعة الوحيدة في مصر.

ـ أبو الخير: والإخوان المسلمين.

ـ أبو عبد الله: قد تكون هذه جماعة العامة المنتظرة.

ـ أبو الخير: وفي مقابل أي شيء يطلق الطاغوت أيدينا في العمل للإسلام بحرية..

ـ أبو عبد الله: في مقابل صرف الشباب عن الانقلابات، فالحكومة قدمت هذا العرض وتعلم تماماً أن منهجنا لا يتصادم مع خطتهم حالياً فهو منهج هجرة، ويصرف الشباب عن التجمعات ذات المناهج الانقلابية شأن تنظيم الفنية العسكرية.

(أبو الخير يبدي تشككه ويقول أن الطاغوت يستدرجنا)

ـ أبو عبد الله: لا إن الحكومة جادة في عرضها. وقد عرضت علينا أيضاً تعويضاً عما لحق بنا من أضرار في الماضي، كدعاية سيئة أو اعتقال وطلبت منا رفع قضية ضد دور الصحف والأجهزة الأخرى للحصول على التعويض المناسب واتفقنا مع المحامي.. والجماعة في حاجة إلى المال.

ـ أبو الخير: إن الطاغوت سوف يجرنا إلى الاحتكام إليه، وهذا محرم شرعاً.

ـ أبو مصعب (أنور مأمون صقر): وما وجه الحرمة في ذلك، إن رسول الله (صلعم) قد دخل في جوار كافر، لقد دخل في جوار مطعم بن عدي ليحميه من الكفار في الطائف.

ـ أبو الخير: إننا بذلك سوف يستثمرنا الطاغوت لمصلحته.

ـ أبو الغوث (محمد الأمين عبد الفتاح): قبلنا أن نستثمر، قبلنا أن نستثمر[٤٧].

ويواصل شكري مصطفى مبرراً إمكانية تهادنه مع الطاغوت.

«قال أبو سعد (شكري مصطفى) إنني أقول للطاغوت أنا لا أشكل عقبة في طريقك، فحجبي للنساء عن الجامعات والمدارس يعني أنني أقول للطاغوت ها أنذاً أريحك من مشاكل تعليمهم وانتقالاتهم، وهجرتي لا تشكل خطراً انقلابياً عليك، وأساهم بذلك في تخفيف مشاكل الإسكان، وأترك الوظائف فأريحك من المرتبات التي تدفع لنا»[٤٨].

ويعود أبو عبد الله (ماهر بكري) ليوضح الأمر فيقول: «هناك حسابات دقيقة للمصالح المشتركة بين الجماعة المسلمة وبين الجاهلية فإذا كانت هناك عملية ما يمكن أن تقوم بها الجماعة بالاشتراك مع العدو بحيث تكسب الجماعة ٥٤٪ ويكسب العدو ٤٦٪ منها نؤديها لأن ذلك فيه تقدم الجماعة.. إن العالم كله مصالح مشتركة بين المسلمين والجاهلية والله سبحانه معنا وليس معهم وبالتالي نمتلك المحافظة على تحقيق نسبة من المصلحة أكبر مما يحققه العدو»[٤٩].

---

[٤٧] المرجع السابق ـ ص ٨٤.

[٤٨] المرجع السابق ـ ص ٨٧.

[٤٩] محمد عبد السلام فرج ـ الفريضة الغائبة.

.. ولا تعليق فالخاتمة لكـل ذلك معروفـة.. ومعـروف مصـير الجماعـة ومصير قادتها.

* * *

.. والآن وبعد كل ذلك هل ثمة مجال لمزيد من التطرف؟

والإجابة التي قد تبدو غريبة هي نعم..

ففي أوائل ١٩٧٩ يصدر محمد عبد السلام فرج كتابه «الفريضة الغائبة» ليعلن فيه «أن طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف (لعله قد تلقن الدرس وكف عن التهادن ـ المؤلف).

وإن حكام هذا العصر تعددت أبواب الكفر الـتي خرجـوا بهـا عـن ملـة الإسلام، بحيث أصبح الأمر لا يشتبه فيه على كل من تابع سـيرتهم، وأن حكام هذا العصر في رده عـن الإسـلام تربـوا علـى موائـد الاسـتعمار (سـواء الصليبيـة أو الشـيوعية أو الصهيونيـة)، فهـم لا يحملـون مـن الإسـلام إلا الأسماء وإن صلوا وصاموا وادعوا أنهم مسلمين»[٥٠].

وتبدأ موجة جديدة أشـد تطرفاً لأنهـا أكـثر عزلـة، واكـثر عزوفـاً عـن المجتمع وأكثر نكراناً له ولمعطياتـه وتكـون مسـميات عديـدة لعـل أشـهرها «الجماعة الإسلامية» التي اشتهرت باسم «جماعة الجهاد».

وتعلن الجماعة أهدافها.. تحت عنوان «ميثـاق العمـل الإسـلامي» وهـو مطبوع سري.. تقول فيه:

«غايتنا: رضا المـولى تبـارك وتعـالى، بتجريـد الإخـلاص لـه سـبحانه، وتحقيق المتابعة لنبيه.

عقيدتنا: عقيدة السلف الصالح جملة وتفصيلاً.

هدفنا: ١ـ **تعبيد الناس لربهم.**

---

[٥٠] تقرير خطير، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ـ حول الموقف الراهن بين الجماعة الإسلامية والنظام المصري جمادى الأولى سنة ١٤٠٨ ص١ (والوثيقة مكتوبة بخط اليد ومصورة).

٢ ـ إقامة خلافة إسلامية رشيدة.

طريقنا: الدعوة إلى الله، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الجهاد في سبيل الله من خلال جماعة منضبطة حركتها بالشرع الحنيف تأبى المداهنة أو الركون وتستوعب ما سبقها من تجارب.

زادنا: علم وتقوى، يقين وتوكل، صبر وشكر، زهد الدنيا وإيثار للآخرة.

ولاؤنا: لله ورسوله.

عداؤنا: للظالمين.

اجتماعنا: لغاية واحدة، بعقيدة واحدة، تحت راية فكرية واحدة»[٥١].

ها نحن أمام فكر الشيخ عمر عبد الرحمن الذي تعترف ذات الوثيقة علنا بأنه أمير عام للجماعة[٥٢]. ونتوقف قبل أن نستطرد لنلاحظ:

ـ تعبيد الناس لربهم.. أي إكراه الناس على العبادة.

ـ تأبى المداهنة والركون وتستوعب ما سبقها من تجارب، وهي تشير إلى مداهنات الإخوان وشكري مصطفى وترفضها.

ـ ترفض الجماعة انقسام جماعات الإسلام السياسي وتسعى لوحدتها في جماعة منضبطة.. وتحت راية فكرية واحدة.

ـ عبارة زهد في الدنيا تشير إلى رفض الجماعة لمن أسموهم «أصحاب الإسلام الثروي» إشارة إلى الثروة ويقصدون بهم أساساً الأخوان المسلمون وتمضي الوثيقة لتعلن موقف الجماعة من النظام:

«الحاكم: إن الجماعة الإسلامية تعتقد أن الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله كافر خارج عن الإسلام؟.

---

[٥١] المرجع السابق ـ ص١.

[٥٢] المرجع السابق ـ ص٤.

مجلس الشعب: عارضت الجماعة الإسلامية دخول مجلس الشعب لما ينطوي عليه من إصدار تشريعات مخالفة لشرع الله، والتي غلظ الله عقوبتها حتى أوصلها إلى الشرك، وجعل المشرع من دون الله نداً لله»[٥٣].

وتتباهى الجماعة باستخدامها العنف..

«فجاءت الجماعة بأعز أبنائها في التصدي لنظام السادات وفي مقدمتهم خالد الإسلامبولي وإخوانه الأربعة شهداء المنصة عام ١٩٨١»[٥٤].

وهي تقرر صراحة أنها ستواصل «القيام بمحاولة تخليص المجتمع والشارع المصري من المنكرات الصارخة كمصانع الخمور، وأندية الفيديو التي تتاجر في الجنس والقضاء على البغاء في عين شمس، على أن يكون تغيير هذه المنكرات وفق الضوابط الشرعية وألا يترتب عليه منكراً أكبر منه»[٥٥].

أما موقف الجماعة من حرية الفكر.. «إلا أن يكون المراد بحرية الفكر هو حرية الكفر، أو حرية أي فكر يطعن في الإسلام أو لا ينطلق من مقاييسه ومعاييره»[٥٦].

..والجماعة في بيانها هذا وهو آخر ما أصدرته، بعد أحداث عين شمس تتوعد النظام صراحة برغم أنها أوردت وصراحة أيضاً في ذات البيان أسماء قادتها الذين أكدت أنها لا تقبل أي حوار إلا إذا جرى معهم وهم من أسمتهم «قيادات الجماعة الإسلامية ومنظريها الذين يدين لهم أفراد الجماعة بالسمع والطاعة وهم: د. عمر عبد الرحمن، الشيخ كرم زهدي، الشيخ ناجي إبراهيم، الشيخ أسامة حافظ، الشيخ عبد الآخر حماد»[٥٧].

---

[٥٣] المرجع السابق - ص١

[٥٤] المرجع السابق - ص٥.

[٥٥] المرجع السابق - ص ٢٥.

[٥٦] المرجع السابق - ص ٢٧.

[٥٧] المرجع السابق - ص ٣٠.

أقول إن الجماعة تتوعد الحكم قائلة «ويبقى السؤال الأهم هل أجدت ردود الأفعال السابقة شيئاً وهل أفلحت في كفكفة الأمن عن ظلمه وطغيانه؟

الجواب المؤكد لا.

ويبقى في حكم المؤكد لا.

ويبقى في حكم المؤكد أن الأوضاع لا تخرج عن أحد احتمالين.

الاحتمال الأول: أن الجماعة الإسلامية تحاول أن تلملم أوراقها وتعتزل العمل الإسلامي نهائياً كي تتحاشى التصفية الجسدية وحرب العصابات التي شنتها الدولة على أعضائها.

الاحتمال الثاني: أن تمارس الجماعة ألواناً من ردود الأفعال أشد شراسة وعنفاً بقصد الحد من غلواء النظام وطغيانه كرد فعل طبيعي ممن أثخنتهم الجراح.

والتاريخ والواقع يشهدان باستبعاد الاحتمال الأول[٥٨].

والآن.. لابد أن سؤالاً يثور في ذهن القارئ.. أما من نهاية لهذا التطرف، وإلى متى ستظل جماعات الإسلام السياسي مؤهلة لأن تزداد تطرفاً..

والجواب.. وفق معطيات هذه الدراسة سيظل التطرف في ازدياد.. طالما ظلت هذه الجماعات عاجزة عن تقبل الواقع، رافضة له، وطالما أن الواقع يظل عاجزاً عن مواجهتها والتصدي لها فكرياً وإعلامياً وسياسياً واجتماعياً..

ملاحظات ختامية:

أن جماعات الإسلام السياسي، لا تعرف حدوداً لتطرفها وانغلاق فكرها على النص وحده، وهي قادرة على مخاصمة الواقع، ورفضه بل وتحديه

---

[٥٨] حيثيات حكم محكمة أمن الدولة العليا (طوارىء) الدائرة الرابعة ـ في القضية ٤٦٢ لسنة ١٩٨١ حصر أمن الدولة العليا.

حتى لو أدركت أنها تعاند الحقيقة والواقع. فالنص عند هذه الجماعات وتفسير قياداتها للنص هو الملزم الوحيد والحقيقة الوحيدة. ومن ثم ففي ظل المعطيات الحالية والتي تتمثل في ممالأة السلطة للتطرف الديني سواء على الصعيد الإعلامي أو الفكري أو السياسي أو حتى الأمني، والاكتفاء بتوجيه ضربات عنيفة كلما وقع تهديد على النظام نفسه، وليس تهديداً على المواطنين أو تحد للفكر والحرية أو حتى صحيح الدين.

إن السلطة كانت هي الراعي الأول لفكرة التطرف الديني والإسلام السياسي، ساندتها في البداية وحاولت استخدامها أكثر من مرة، بل وأغمضت العين عن نشاطها.. أغمضتها عن عمد.. الأمر الذي تقرره حيثيات حكم محكمة أمن الدولة العليا في قضية تنظيم الجهاد.. إذ تقول «ظلت سلطات الأمن غافلة عن نشاط التنظيم والذي يبدأ في صيف عام ١٩٨٠ بدعوة الشباب للانضمام إليه، ووضع الخطط وجمع المعلومات وارتكاب حوادث النهب والسرقة وشراء الأسلحة وتخزينها وتدريب أعضائه على استعمال الأسلحة ورغم أن التنظيم قد كشف نشاطه بعد ٢ سبتمبر ١٩٨١ متمثلاً في عقد اجتماعات بين قيادته، وانتقالهم بين محافظات الوجه القبلي والقاهرة والجيزة وتكثيف نشاطهم في التدريب على السلاح، فإن سلطات الأمن بما لها من سلطة الضبطية الإدارية، وهي اتخاذ الإجراءات المانعة من ارتكاب الجريمة قبل وقوعها باتخاذ تدابير الوقاية واحتياطات الأمن العام لم تتخذ أي إجراء أدى إلى كشف هذا التنظيم وتحركاته قبل أن يبدأ في تحقيق أهدافه».

.. وهل ثمة دليل أكثر من ذلك على تغافل النظام وجهاز الأمن عن هذه الجماعات، ذلك أن حسابات النظام تقوم دوماً على أساس الموازنة بين جماعات الإسلام السياسي وبين اليسار، وتحاول أن تخيف هذا بذاك غير مدركة خطورة استمراء جماعات الإسلام السياسي لغض الطرف عنها..

وقد يرد البعض بأن الأمن يوجه ضربات عنيفة لهذه الجماعات، ونوافق على ذلك ولكننا نقرر أنها لا تأتي مطلقاً إلا عندما يبدأ شباب هذه

الجماعات في توجيه ضربات مباشرة لسلطة الدولة ذاتها أو إلى أحد رجالها.. أما ترويع المواطنين، تهديد وحدة الوطن، فرض سطوة هذه الجماعات بالقوة على المواطنين العزل فذلك كله تغض الدولة الطرف عنه.

كذلك فإن الدولة تدخل في مباراة بلهاء تحاول أن يسبق بها هذه الجماعات في زيادة الجرعات الدينية والمتطرفة فكرياً في أحيان كثيرة في أجهزة الإعلام الحكومية ناسية أنها تخصب التربة أمام هذه الجماعات وتشجع نموها.

* إن التطرف إذ يصل إلى مداه المذهل لا يمنع كما رأينا في حالتي الأخوان وشكري مصطفى من مداهنة الحكم وممالأته بل والتواطؤ معه.. انتظاراً لفترة الاستقواء والتفيؤ. وإن كانت التجارب المريرة لمحاولات الإخوان وشكري مصطفى قد أثرت على الجماعات التالية التي أكدت كما رأينا رفضها للمداهنة ودخلت ميدان العمل المباشر.

* إن البعض يتصور أن تجنب خوض هذا الموضوع الشائك هو بذاته مكسب كبير، بينما نرى أن القوى والتيارات العقلانية والليبرالية والعلمانية والحريصة على وحدة الوطن ووحدة ترابه ومواطنيه يتعين عليها أن توحد صفوفها للتصدي فكرياً وسياسياً وجماهيرياً لهذه الجماعات حماية للوطن من مخاطر تطرفها، خاصة وأن الموجة الجديدة منها وخاصة الجماعة الإسلامية (الجهاد) قد بدأت مخططاً لعمل جماهيري نشط وبدأت في استخدام موارد مالية غير محدودة وغير مرئية المصدر في إقامة مشروعات خدمية (تعليمية ـ وصحية ـ اجتماعية) لابد لها وأن تنعكس على البعد الجماهيري لهذه الجماعات.

.. وأخيراً وبرغم هذه الإطالة، فإن الموضوع يظل بحاجة للمزيد من الدراسة.. وهو ما نلح عليه ونعد به.

الإخوان المسلمون والعمال

(مصر) ١٩٢٨ ـ ١٩٥٢

الجماعة ـ الأيديولوجية ـ الممارسة

الجماعة..

يأتي عام ١٩٢٨ ليجد مصر في مأزق سياسي ودستوري حقيقي، حيث القصر ـ مدعوماً بالاحتلال ـ يمتلك السلطة الفعلية، وحزب الوفد يحتكر وبشكل حاسم الأغلبية الانتخابية في أية انتخابات برلمانية حرة.

وإذا كان أصحاب القرار الفعلي القصر ـ الاحتلال، قد ضاقوا ذرعاً بالممارسات الوفدية سواء للحد من سلطة القصر أو من سلطة الاحتلال فقد سارت مصر ومنذ منتصف العشرينيات في طريق أزمة دستورية مستمرة تستهدف وبممارسات عديدة استبعاد الوفد من الحكم.

الأمر الذي وضع مجمل النموذج الدستوري المصري موضع الإحباط «وساد إحساس عارم بالرفض وعدم الرضاء إزاء النظام القائم الأمر الذي أتاح الفرصة أمام الإخوان المسلمين لكي يجذبوا إلى صفوفهم مئات الآلاف من الأتباع»[١].

ولقد تمكن القصر وبعد معركة قصيرة المدى من إحكام قبضته على المؤسسة الإسلامية الكبرى «الأزهر» وتمكن من تطويعها في خدمته واحتل الشيخ المراغي (أحد قادة المؤسسة الدينية الرسمية) مركزاً مرموقاً في القصر الملكي مما وضع «الدين التقليدي» بأكمله في تناقض مع الجماهير الشعبية

[1] Vatikotis- The Modern History of Egypt . P .323.

الرافضة للقصر ولسياسته «الأمر الذي وضع المسلم المتدين في تناقض حاد مع المجتمع الحديث والدولة الحديثة»[٢].

كذلك فإن موجة الليبرالية والعقلانية التي تواجدت في مصر منذ مطلع القرن العشرين ظلت تتسم بنزعتين أساسيتين:

أ ـ نزوعها نحو الغرب وخاصة فرنسا.

ب ـ انحسارها وسط مثقفي الفئات العليا والوسطى.. الأمر الذي عزلها وبشكل واضح عن الجماهير الشعبية.

فإذا أضفنا إلى ذلك كله الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٨) والتي أبرزت النظام الرأسمالي في صورة من يعجز عن حل مشكلات الجماهير، وإذ كان النظام الاشتراكي (الاتحاد السوفييتي) لم يزل ضعيفاً ومحاصراً فإن بروز محاولة لإيجاد طريق ثالث (النظام الإسلامي) كان أمراً منطقياً، خاصة وأن «الإسلام» يعتبر لدى الكثيرين نظاماً كاملاً شاملاً لكل مناحي الحياة.

كذلك فإن التطورات السياسية المتلاحقة منذ الاستقلال الناقص الذي حصلت عليه مصر عقب ثورة ١٩١٩ قد قلصت وإلى حد كبير من حماس أبناء الطبقات والفئات الوسطى في المجتمع المصري (البرجوازية الصغيرة والوسطى) للعمل السياسي وللتكوينات السياسية القائمة الأمر الذي خلق مساحة خالية من النفوذ والانتماء السياسي داخل المجتمع المصري.. هذه المساحة تمركزت فيها جماعة الإخوان المسلمين، وفي هذا الإطار نشأت جماعة الإخوان المسلمين، ولم يكن مصادفة أن تنشأ عام ١٩٢٨. عام احتدام الأزمة الاقتصادية العالمية وعام احتدام الأزمة الدستورية بمصر.

وكسبت جماعة الإخوان تأييداً لا بأس به «لأنها قدمت تصوراً يستهدف تغيير النظام السياسي التقليدي في مصر تغييراً شاملاً»[٣].

---

[2] **Grunbaum, Gustave von - Modern islam, The Search for Cultural identy p.188.**

[3] **Wheellook, Kwith - Nassers New Egypt - (1960) p .3.**

صحيح أن الحــزب الشـيوعي المصـري قـد قـدم تصـوراً شـاملاً ونقيضـاً للمجتمع القائم إلا أن هذا الحزب قد طورد مطاردة عنيفة وصدر قرار بحلـه وألقى القبض على قادته مما أضعف من تأثيره على المجتمع بشكل عام[٤].

بينما استندت جماعة الإخوان إلى المهابة الشاملة التي يكتسبها الديـن في المجتمع المصري وهي مهابة لم تتوفر لأية قـوة سياسـية أخـرى، كذلـك فقد استندت إلى حماية جهاز الدولة القائم آنئذ والذي أدرك أهمية الاستناد إلى جماعة ذات منطلق ديني في مواجهة النفوذ الجماهيري لحزب الوفـد.. كذلك فقد أدرك رئيس الوزراء المصري «إسماعيل صدقي» ومنـذ وقـت مبكـر (١٩٣٠) أهمية استخدام الدين «كمانعة صواعق اجتماعية» ومن ثم اسـتخدم الجماعة استخداماً ذكياً في هذا الاتجاه.

وهكذا وبالاستناد إلى مهابة الدين وإلى سـلطة الحكـم وفي تحـالف وثيـق مع القصر (بايع الإخوان الملك فاروق كملك مسـلم مؤمـن وهـاجموا خصومـه الوفديين هجوماً عنيفاً) بدأت جماعة الإخوان المسلمين في لعب دور سياسـي واجتماعي هام في المجتمع المصري.

الأيديولوجية:

نحن إذن بصدد جماعة تتخذ من «الإسلام» منهجـاً متكـاملاً وتعلـن أن «الإسلام دين ودولة، عبادة وقيادة مصحف وسيف»[٥]. وهي أيضـاً جماعـة ترتكـز في الأسـاس إلى عضويـة مـن البرجوازيـة الصغـيرة والوسـطى، وإلى ممارسـة سياسـية تسـتند إلى حكومـات أحـزاب الأقليـة وإلى مـوالاة القصـر الملكي.. وقد انعكس ذلك في التصور الأيديولوجي لجماعة الإخوان المسـلمين إزاء قضية الطبقة العاملة في مصر.

---

[٤] لمزيد من التفاصيل راجع ـ د. رفعت السعيد ـ ترايخ الحركة الشيوعية المصرية ـ المجلد الأول.

[٥] لمزيد من التفاصيل راجع ـ حسن البنا ـ مذكرات الدعوة والداعية.

والحقيقة أن الدين الإسلامي شأنه شأن أي معتقد آخر يمكن اللجوء إليه من أكثر من مدخل، فإذا كان مفكرون إسلاميون مثل رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني قد تحدثوا عن «اشتراكية الإسلام» وقال الأفغاني «أن أول من عمل بالاشتراكية هم الصحابة» وأن «الاشتراكية هي التي تعطي حقاً مسلوباً للشعب العامل»[٦] وأكد رشيد رضا (تلميذ الشيخ محمد عبده) «أن الشيخ محمد عبده كان يرى أن تراكم الثروة لدى البعض يخلق مشاكل اجتماعية وأن الإضرابات العمالية والمشكلات في علاقات العمل هي مجرد ثمرة لهذا الوضع»[٧].

فإن آخرين اختاروا مدخل اتخاذ الدين كسلاح في يد الرجعية وكبار الملاك والرأسماليين.

أما حسن البنا فقد وجد نفسه في مأزق حقيقي.

فهو يريد أن يكسب لجماعته جماهيرية وسط جموع العمال. لكنه لا يريد أن يفقد مساندة القصر وكبار الملاك فاتخذ موقفاً يمكن القول بأنه «وسط وبأنه مرن». وبأنه يفصل بين القول والممارسة الفعلية.

واكتسب هذا الموقف مزيداً من المرونة أو بالدقة الغموض إذ رفض في الواقع إعلان أي برنامج سياسي أو اقتصادي محدد وواضح واكتفى بالعموميات مثل «القرآن دستورنا».

لكن واقع الحياة كان يفرض على الجماعة أن تحدد موقفاً من مجمل البنية الاجتماعية والاقتصادية.. فاضطرت إلى ذلك واتخذت من الوسطية والمرونة سبيلاً لتلافي أي اختيار واضح وصريح بين العمال وبين مستغليهم.

وسنحاول وبإيجاز شديد تلمس الأسلوب الذي حددت به الجماعة ومفكروها «الموقف الفكري» من القضية الاجتماعية ومن الطبقة العاملة.

---

[٦] خاطرات جمال الدين الأفغاني ـ (أملاه على محمد باشا المخزومي) ص١٦١.

[٧] رشيد رضا ـ تفسير القرآن الكريم ـ (١٣٦٧هـ المجلد ٣ـ ص١٠٧.

يقول أحد مفكري الجماعة الشيخ محمد الغزالي أن الإسلام يطرح نظاماً اقتصادياً يمكن تسميته بالنظام الوسيط وهو لا يتردد في القول بأن مثل هذا النظام «قد طبق بأشكال مختلفة بإشراف الدولة على مصالح الشركات الكبرى إشرافاً مباشراً.. وهو ما اعتبره وسطا بين تعطيل مبدأ الملكية وبين إطلاقه»[٨].

بينما يقول مفكر آخر من مفكري الجماعة هو سيد قطب «أن النظام الإسلامي ليس هو الرق.. وليس هو الإقطاع وليس هو الشيوعية، إن النظام الإسلامي هو فقط النظام الإسلامي»[٩].

إن عبارة سيد قطب هذه نموذج دقيق لأسلوب عرض جماعة الإخوان لأفكارها خاصة في المجال الاجتماعي فهي تكتفي بنفي صفات محددة دون أن توضح تحديداً ماذا تريد.. لكننا نلاحظ أن قطب لم ينف صفة «الرأسمالية» عن النظام الإسلامي، ربما لأنهم كعادتهم لم يريدوا تصادماً مع الرأسمالية.. فالعبارة قيلت عام ١٩٥٣ حيث كان حكام يوليو ضد الإقطاع وضد الشيوعية لكنهم لم يتخذوا أي موقف ضد الرأسمالية.

وتحاول مجلة الدعوة أن تضفي ظلالاً غبية على موضوع الملكية ذاته «فالإسلام لا يعرف الملكية وإن كان يعرف الحيازة. إذ قررت المذهبية الإسلامية أن هذا الكون مرده إلى خالق واحد، وأنه وحده مالك الملك بما فيه من مادة وروح. فالإنسان ليس مالكاً أصيلاً لأي شيء لا لذاته أوجسده ولا لزرع أو ضرع ولا لأرض أو ماء أو هواء.. وإنما هو خليفة الله سبحانه في ملكه»[١٠].

وإذا كانت «الملكية» لله وحده والإنسان مستخلف فيها: فإن الاستغلال ليس ملازماً للملكية.

---

(٨) الشيخ محمد الغزالي ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية ـ (١٩٥٢) ـ ص٦٢.

(٩) سيد قطب ـ مقال ـ مجلة المسلمون ـ مارس ـ ١٩٥٣.

(١٠) الدعوة ـ العدد الأول ـ (١٩٥١).

فالشيخ البهي الخولي الذي كلف بإعداد البرنامج التثقيفي للجماعة يقول «إن مقاومة الاستغلال الديني لا تكون بإلغاء الملكية بل بإقامة السلطة العادلة، أما الملكية ذاتها فليس من طبيعتها أن تبيح هذا العدوان، فقد يملك الإنسان ولا يظلم، وقد يملك ويكون محسناً كريماً.. ومن ثم فالملكية ليست بحاجة إلى معالجة أو مقاومة، وإنما إلى تهذيب»[11].

وفوق هذه المرتكزات الفكرية تقدم الجماعة أفكارها ومواقفها.

ويقول حسن البنا في رسالته المعنونة «مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي».

«أن التفاوت عظيم والبون شاسع والفرق كبير بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب، فثراء فاحش وفقر مدقع».

وقد يتصور القارئ أن الجملة التالية ستكون دفاعاً عن العمال أو فقراء الفلاحين لكنها تأتي دفاعاً عن الطبقة الوسطى «فالطبقة المتوسطة تكاد أن تكون معدومة. والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليس إلا مجموعة من الفقراء المعوزين وإن كنا نسميهم متوسطين على قاعدة بعض الضر أهون من بعض»[12].

ويحدد البنا قواعد للنظام الاقتصادي في الإسلام من بينها:

- اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه.

- تقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة. ويستند البنا في تأكيد تحريم مصادرة المال إلى الحديث النبوي «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله».

---

(11) البرنامج التثقيفي لجماعة الإخوان المسلمون ـ محاضرة التثقيف الاقتصادي إعداد البهي الخولي.

(12) حسن البنا مجموعة الرسائل ـ ص ٤٢٠.

ويمضي البنا قائلاً: «لقد امتدح الإسلام المال الصالح وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره وأشاد بمنزلة الغني الشاكر الذي يستخدم ماله في نفع الناس ورضاء الله»[١٣].

ويشير أحد مؤرخي الجماعة إلى تعمدها الحديث الغامض عن مشاكل العمال وعن حلول هذه المشاكل فيقول: «التزمت الجماعة بالفكر والمصطلحات الشمولية ولم تلجأ إلى التحليل الطبقي، لذلك فقد اقتصر اهتمامها بالقضايا العمالية على إظهار شعور الاستياء مما يعانيه العمال من الفقر والمرض وما يلاقونه من اضطهاد من جانب أصحاب الأعمال واكتفت بالمطالبة بتحسين أحوالهم وتشغيل العاطلين منهم»[١٤].

وبعد أسبوع واحد من ثورة يوليو نشرت الجماعة ما يمكن اعتباره «برنامجاً» سياسياً واقتصادياً، ولعلها فعلت ذلك بهدف احتواء القيادة الجديدة أو تحت ضغطها، وكذلك لمحاولة كسب جماهيرية وسط الشارع المصري الذي كان ثوار يوليو ومؤيديهم من الشيوعيين يكسبون مواقع هامة فيه.. وقد جاء في هذا البرنامج:

«العمل فرض على القادر عليه، ولا يجوز له أن يتخلى عنه ولا يجوز إعانة رجل لا يعمل وهو قادر بل يحمل على العمل حملا، ويجب على ولي الأمر أن يساعد على إيجاد عمل له .

فإذا لم يجد عملاً أصلاً، أو كان عمله لا يكفيه أو كان غير قادر عليه، وجب على ولي الأمر أن يتدخل ليحقق له ضرورات الحياة بالزكاة فإن لم تكف الزكاة لتوفير الحاجات الضرورية وجب على من عنده فضل مال أن يرده على الفقراء حتى يستوفوا حاجاتهم، فإن لم يفعلوا أجبرتهم الحكومة على ذلك واتخذت من التشريعات ما يكفل إصلاح حال المجتمع بقدر ظهور الحاجات وبروز الضروريات. كذلك يجب استكمال التشريعات

---

(١٣) المرجع السابق - ص٤٢٥.

(١٤) د. زكريا البيومي - الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية - (١٩٧٩) - ص٣٠٤.

العمالية بإعادة النظر في التشريعات العمالية الحالية لتشمل جميع فئات العمال بما فيهم العمال الزراعيون ولتكفل للعامل وأسرته التأمينات الكافية ضد البطالة والإصابات والعجز.. مع مراعاة جعل الانتساب للنقابات إجباريا أو إباحة تكوين الاتحادات النقابية وتحديد أجور العمال وفق المبادئ الإسلامية»[١٥].

إنه تطور مفاجئ في موقف الجماعة تحاول به التقرب من العمال والفقراء عموما والمزايدة على شعارات ثوار يوليو..

ويواصل الإخوان عملية المزايدة ففي احتفالهم بالمولد النبوي عام ١٩٥٢ وفي حضور محمد نجيب وجمال عبد الناصر ألقى المرشد العام للجماعة الهضيبي كلمة قال فيها: «كل إنسان عليه واجب الحصول على عيشه عن طريق العمل الحلال بحسب ما تؤهله له مواهبه، ويجبر علي العمل إذا هو قعد عنه، وإذا كان عمل العامل لا يكفيه، أو لم يجد عملاً أصلاً أو كان غير قادر على العمل فهو في كفالة المسلمين جميعاً أي في كفالة الدولة تمده بما يحتاج إليه من حاجاته الضرورية»[١٦].

لكن ذلك كله يبقى في العموميات فالإخوان لم يخرجوا أبداً عن إطار العموميات في حديثهم السياسي والاجتماعي وإن كان لابد من تخصيص فهو ليس في صف العمال ولا في صالحهم.

فحسن البنا يعد محاضرة لقسم العمال بالجماعة يؤكد فيها «إن على العمال أن يتذكروا دوماً واجبهم نحو الله ونحو أنفسهم ونحو صاحب العمل»[١٧].

---

[١٥] صحف ٢ /٨/ ١٩٥٢ نقلا عن: محمود عبد الحليم ـ الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ـ ج٣ـ ص١٢١.

[١٦] المرجع السابق ـ ص ٩٠.

[١٧] الإخوان المسلمون ـ ٢٤/٨/ ١٩٤٦.

أما «الإضراب» فهو عند الجماعة وبشكل حاسم «أمر مخل بروابط الإخاء بين المسلمين ومثير للجفاء بين فرقهم»[١٨].

وإذا كان البعض يرى في الإضراب سلاحاً عمالياً فإن الإخوان يقدمون أسلحة أخرى «لابد للعامل من سلاحين هما قوة الإيمان وحسن الخلق، فتقوم الصلة بين العامل وصاحب العمل على الاحترام والعطف المتبادلين وهذه هي أنجح الوسائل»[١٩].

وعندما تزايدت حدة أزمة البطالة شكل «قسم العمال» بالجماعة لجنة لشؤون العاطلين درست المشكلة ثم تقدمت باقتراح غريب هو «إعادة العمال الذين نزحوا من قراهم إبان الحرب للعمل في المدن.. إلى قراهم الأصلية»[٢٠].

ولابد هنا من الإشارة إلى مسألة هامة تشكل محور الموقف الفكري للجماعة من القضية العمالية. فقد هاجم الإخوان وبحماس شديد الرأسماليين الأجانب (وكان كثير منهم من اليهود) ووصفوهم «بالاستعمار الاقتصادي» وطالبوا بتوجيه ضربات شديدة لهم، بل لقد تطور الأمر عام ١٩٤٩ إلى نسف مصانعهم وشركاتهم لكنهم في نفس الوقت لم يهاجموا على الإطلاق الرأسماليين المصريين.

إن وثيقة بريطانية تلمح إلى هذه المفارقة بذكاء.. فبعد مقتل حسن البنا أعدت السفارة البريطانية تقريراً لوزارة الخارجية البريطانية جاء فيه:

«كان حسن البنا يستهدف مساندة العمال المصريين ضد أصحاب الأعمال الأجانب، لكنه لم يكن ضد أصحاب الأعمال المسلمين»[٢١].

ولعل لهذا الموقف مدخله الديني والاجتماعي والانتهازي في آن واحد.

---

(١٨) المرجع السابق.

(19) Boehm, Jacob .Les freres Musulmans - Monde non - chretien, XXVI June (1953) 211.

(٢٠) الإخوان المسلمون ـ١٨/ ٨/ ١٩٤٦.

(21) F.O .371-73474- J3567 .(1949).

الممارسة:

ونأتي إلى ساحة الممارسة. ولقد تعودنا من جماعة الإخوان أن تختلف الأقوال عن الأفعال.. وفي البداية يحدد محمد شريف مسؤول مكتب العمال بالجماعة الهدف الأساسي للجماعة من العمل وسط جماهير العمال.. «أكد محمد شريف أن معاداة الشيوعية كانت أحد هدفين أساسيين استهدفتهما الجماعة من عملها المنظم في صفوف الطبقة العاملة أما الهدف الآخر فهو السعي لنشر دعوة الإسلام في الأوساط العمالية»[٢٢].

ولا شك أن نشاطاً من هذا القبيل قد لقي ترحيباً شديداً من جانب الحكومات والرأسماليين على السواء..

والحقيقة أن تركيز الإخوان في نشاطهم على مقاومة الشيوعية قد أوقعهم في محاذير شديدة الخطر، فدفعوا عضويتهم إلى التجسس على العمال النشطين وعلى الشيوعيين عموماً وإبلاغ السلطات عنهم..

وأمام محكمة الشعب (التي شكلتها سلطة يوليو لمحاكمة الإخوان عندما تصادمت معهم) وقف أحد قادة الجماعة وهو صلاح الدين أبو الخير ليعترف صراحة «أن قسم الأخبار في الجماعة كان يقوم بجمع الأخبار المهمة التي تهم الجماعة وأيضاً نشوف حاجة.. خلية شيوعية مثلاً.. وأنا أعرف أن الإخوان ضبطوا عدة خلايا وأبلغوا عنها»[٢٣].

ولكن أغلب النشاط الإخواني التجسسي ضد اليسار عموماً تركز أساساً في المجال العمالي «حيث كانت أعين واهتمامات أجهزة الأمن والقصر والرأسماليين مركزة أيضاً»[٢٤].

---

[22] Beinin and Loekman - workers on the Nile - (1987) - interview with M .sharif .P .368.

[٢٣] محكمة الشعب ـ الجزء الثاني ـ ص٢٩.

[24] for more detailes see- Badaoui, Zaki, Les problemes du travail et Les organisations ouvriers.

ويعتقد ريتشارد ميتشل وهو باحث متخصص في تاريخ الجماعة.. أن هذا الموقف قد أضر ضرراً شديداً بالنشاط الإخواني وسط العمال بحيث وصل به قرابة عام ١٩٤٨ إلى ما يشبه التصفية[٢٥].

ولعل هذا الموقف هو الذي دفع بالعديد من الأبحاث الأكاديمية إلى دراسة ممارسات جماعة الإخوان في صفوف العمال من خلال أو بالتوازي مع دراستهم لصراعهم مع الشيوعيين.. ففي كتاب Nile on Workers نقرأ:

«وقد انعكس ذلك في صفوف العمال في شكل تصادم حاد مع الشيوعيين حيثما وجد لهم نفوذ فلقد بدأ الإخوان المسلمون في معارضة كل محاولة للشيوعيين لاستقلال النقابات والعمل النقابي عن رؤساء العمال في المصانع ولتصعيد النضال العمالي الذي اعتبره الإخوان دعوة لإثارة الخلاف بين المسلمين. وفي نفس الوقت دأبت الجماعة على مقاومة كل أشكال النفوذ الشيوعي سواء بالدعاية أو حتى بالتدخل العملي. ومن ثم فإن منطقة شبرا الخيمة وصناعة النسيج بشكل عام أصبحتا أحد أهم مجالات الصراع المحتدم بين الإخوان والشيوعيين في صفوف الحركة العمالية»[٢٦].

..ويمكن القول أن الظروف كانت مواتية كي يمارس الإخوان دوراً أزيد بكثير مما فعلوا.

فهناك أولاً المشاعر الدينية المسيطرة على جماهير العمال والتي يمكن استغلالها في حشد جماهير العمال باتجاه الجماعة.

وهناك أيضاً الفراغ السياسي في صفوف الطبقة في مطلع الثلاثينيات عند نشأة الجماعة. فالحزب الشيوعي المصري وجهت له ضربات عنيفة، والاتحاد العام لنقابات العمال الذي أسسه الحزب عام ١٩٢١ تم حله أيضاً وصودرت ممتلكاته وسجن قادته، وحلت محله اتحادات عمالية شكلية تابعة بشكل مباشر للأحزاب البرجوازية أو للقصر الملكي، وتولى رئاستها

---

(25) Mitchell .Richard -The Society of the Muslim Brothers - (1969) p .282.

(26) see Beinin ibid .p .365.

بكوات وباشوات بل وأحد نبلاء الأسرة المالكة. وكانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع بالعمال إلى العمل المباشر.. لكننا نعتقد أن المناورة السياسية والمراهنة على القصر الملكي وعلى عدم إغضاب كبار الملاك والرأسماليين بالإضافة إلى المنطلق المعتقدي كل ذلك أدى بالجماعة إلى العجز عن الاستفادة من كل هذه الممكنات.

وبرغم ذلك فلابد لنا أن نلاحظ وباهتمام أن أول من انضم إلى حسن البنا في عملية تأسيس الجماعة كان ستة من العمال[٢٧] لكن الإسهام المكثف في عملية التأسيس لم يتواصل معه تواجد جدي للجماعة في صفوف العمال.

وعلى أية حال فقد تطور موقف الإخوان إزاء الطبقة العاملة من الاتصالات الفردية.. إلى العمل المباشر والمنظم وشهد عام ١٩٣٨ بداية هذا التوجه ففي ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ «التقى بالمركز العام للجماعة مجموعة من العمال «المتعلمين» وتداولوا في الأوضاع السيئة التي تعيشها الحركة العمالية وحول إمكانية تأسيس حزب عمالي»[٢٨]. ويعلق أحد الباحثين على هذه المحاولة قائلاً: «ويبدو أن هذا الحزب قد تكون من عدد محدود ولفترة وجيزة، واتخذ له مقراً المركز العام للجماعة، ويبدو أنه كان مجرد واحدة من المناورات التي حاكها القصر ضد الوفد»[٢٩]

وبعد عدة أشهر من هذه المحاولة الفاشلة أي في عام ١٩٣٩ أضرب ثمانية من قادة العمال بمدينة المحلة الكبرى عن الطعام احتجاجاً على سوء أحوال الطبقة العاملة ومطالبين الحكومة بإصدار تشريع يسمح بحق التنظيم النقابي وقد اهتمت مجلة النذير (لسان حال الجماعة في ذلك الوقت) بهذا الإضراب بالرغم من أن المضربين كانوا يساريين أو قريبين من اليسار، وهاجمت الحكومات المصرية المتعاقبة لأنها لم تف بوعودها للعمال

---

[٢٧] حسن البنا ـ مذكرات الدعوة والداعية ـ ص٥٣.

[٢٨] شبرا ـ ٢٥/ ٨/ ١٩٣٨.

[٢٩] د. زكريا البيومي ـ المرجع السابق ـ ص٣٠٥.

وطالبت الوزارة بإصدار تشريعات منصفة لهم. لكنهم في الوقت نفسه هاجمت الإضراب كوسيلة وكأسلوب وأكدت أنه يتنافى مع تعاليم الإسلام[٣٠].

وتأتي الأربعينيات لتشهد انطلاقة يسارية واسعة، ونشاطاً شيوعياً في صفوف العمال، ولعل هذا هو الذي دفع الجماعة لبذل اهتمام مضاعف بالقضايا العمالية. وفي ٢٩ أغسطس ١٩٤٢ صدر العدد الأول من جريدة «الإخوان المسلمون» ليعلن تأسيس «قسم الشؤون الاجتماعية» بالجماعة.. بما يعني بداية اهتمام منظم ومنتظم بهذه المسألة.

ويلاحظ مؤلفا كتاب «العمال على ضفاف النيل».

«أن المقالات التي نشرت عن الإصلاح الاجتماعي منذ ذلك التاريخ وحتى لحظة التوقف المؤقت للجريدة في يناير ١٩٤٤ كانت مقالات عامة، ومجردة تعكس فقط الرؤية الإسلامية الاجتماعية. ولم نجد بينها مقالاً واحداً يمتلك رؤية محددة حول مسألة عمالية محددة»[٣١].

لكن الجريدة إذ عاودت الصدور في ديسمبر ١٩٤٤، عادت بتوجه جديد ومباشر نحو الطبقة العاملة ـ واتسمت مقالاتها عموماً بالبساطة والشعبية والنبرة السياسية والاجتماعية الأكثر حدة. وتوافق ذلك مع توجه الجماعة لعمل نشط وسط العمال.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة أسست الجماعة «قسم العمال» بالمركز العام، لكنها حرصت على التأكيد بأن «الغرض من إنشاء هذا القسم ليس التدخل في شؤون العمال النقابية، ولا التنافس مع الهيئات العمالية أو التعرض للعمال في مصانعهم أو شركاتهم، ولكنه أنشئ بغرض توصيل الدعوة إلى نفوسهم وحتى يكون دافعا لتمسكهم بتعاليم الدين»[٣٢].

---

(٣٠) النذير ـ ١٩٣٩/٦/١٩.

(31) Beinin - ibid P.366.

(٣٢) الإخوان المسلمون ـ ١٩٤٥/٦/٢٨.

ومرة أخرى ـ فإن أغلب مؤرخي هذه الفترة يربطون بين توجه الإخوان للعمال وبين تصاعد النفوذ الشيوعي في صفوفهم ويؤكدون أن واجب «العداء للشيوعية» كان أحد دوافع الإخوان للنشاط وسط العمال..[٣٣].

وقد حاول الإخوان أيضاً «إقامة نقابات عمالية تستوحي أفكارهم وقد حققوا في ذلك نجاحاً محدوداً ونشرت صحيفتهم أن عمال النقل قد قرروا تأسيس نقابة تعمل على هدى رسالة الإخوان. كذلك أصبح لهم نفوذ فعال في عمال البترول بالسويس، مع بعض مجموعات من عمال النسيج في المحلة وشبرا الخيمة»[٣٤].

لكن بعض الباحثين والخصوم السياسيين للإخوان يؤكدون أن الجماعة وجريدتها كانت تبالغ إلى حد الاختلاف في نشر معلومات عن النشاط الإخواني وسط العمال.

وكمثال على ذلك نروي الواقعة التالية.

ففي أعقاب تأسيس «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» (وهي تجمع يساري جماهيري ضم ممثلين للشيوعيين ويسار الوفد في صفوف الطلاب والعمال، وقاد تحركاً وطنياً واسعاً ضد قوات الاحتلال، وقاد مظاهرات صاخبة في ٢١ فبراير ٤ مارس ١٩٤٦) وفي محاولة لتكريس الانشقاق عن هذه اللجنة ذات الطبيعة الجبهوية الواسعة، ولإثبات أن الإخوان (الذين انشقوا عن هذه اللجنة وأعلنوا تأسيس ما أسموه الجبهة القومية) يمتلكون تأييداً ما وسط العمال، نشرت جريدة الإخوان في ١٩ مارس ١٩٤٦ أنه قد تأسست لجان تابعة للجماعة في مختلف مصانع منطقة شبرا الخيمة (كبرى المناطق الصناعية بالقاهرة) وتأسيس لجنة عليا لمندوبي هذه المصانع..

وعلى الأثر أصدر قادة اللجنة الوطنية العامة لعمال شبرا الخيمة (أحد القوى الأساسية المكونة للجنة الوطنية للعمال والطلبة) بياناً جاء فيه:

---

[٣٣] راجع: زكريا البيومي ـ المرجع السابق.

[٣٤] زكريا البيومي ـ الرجع السابق ـ ص٣٠٦.

(نشرت جريدة الإخوان المسلمين أنه قد تألفت لجنة في كل مصنع من مصانع شبرا الخيمة، وتألفت لجنة عليا من هذه اللجان. والحقيقة أنه لم تتألف لجان برغم المساعي الشديدة لهذه الجماعة. ولقد ذهبنا نحن ممثلي المحاولات التي تتم في مواجهة نقابات العمال فلم نظفر بجواب مقنع بل وجدناهم يتكلمون بلغة المستعمر وأصحاب الأعمال. وأمام هذا أعلنا لهم عدم موافقتنا على تشكيل أي لجنة.. وهذه حقيقة نعلنها للرأي العام[٣٥].

كذلك أصدر التشكيل النقابي الأساسي في مصر في ذلك الحين «مؤتمر نقابات عمال الشركات الأهلية» بياناً جاء فيه:

«دأبت جماعة الإخوان المسلمين منذ فجر البعث الوطني الحالي على بث الدسائس وتدبير المؤامرات التي ترمي في مجموعها إلى القضاء على الحركة الوطنية أو تحويلها عن أهدافها مما لا يخدم غير الاستعمار. ولما كانت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة هي اللجنة الشرعية الممثلة للطلبة والعمال والموظفين، والمنتخبة انتخاباً حراً ديمقراطياً، والمنظمة لكفاح طوائف الشعب حتى يقضي على الاستعمار.. فقد دبر الإخوان مؤامراتهم خاصة ضد اللجنة وبدأوا في إعلان تكوين لجان خاصة بهم وسط العمال.. ويعلن المؤتمر أنه والهيئات الوطنية للعمال والطلبة، ويحذرون الزملاء العمال من الانضمام إلى أية لجنة تؤلفها جماعة الإخوان المسلمين وكل عامل ينضم إلى أي لجنة من لجانها لا يمثل إلا نفسه.

- لتحيا اللجنة الوطنية للعمال والطلبة.
- لتسقط الفاشية.
- ليسقط الاستعمار»[٣٦].

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه لا صحة لما أعلنته جريدة الجماعة من تأسيس لجان في المصانع بشبرا الخيمة تابعة للجماعة إذ لم يبرز أي نشاط

---

[٣٥] محمد حسن أحمد (اسم سري) - الإخوان المسلمون في الميزان (١٩٤٦) - ص٩٨.

[٣٦] المرجع السابق - ص١٠١.

لهذه اللجـان، وإن كـانت الجماعـة قـد ظلـت تمتلـك تواجـداً محـدوداً في مصانع هذه المنطقة.

ويؤكد مؤلفا «العمال على ضفاف النيل».

«أن قادة عمال النسيج في شبرا الخيمة الذين تمسـكوا بـالخط السياسـي للجنة الوطنية للعمال والطلبة لم يخفوا عداءهم لمحاولات التسلل الإخوانية في صفوهم»[٣٧].

إن موجـة العـداء الـتي تصـاعدت ضـد الإخـوان لم تكـن فقـط بسـبب الممارسات السياسية المعادية للمشاعر الوطنيـة، والـتي وقفـت بـالإخوان في صف رئيس الوزراء الطاغية إسماعيل صدقي وضد حركة الجماهير الشـعبية المعادية للاسـتعمار بقيـادة اللجنـة الوطنيـة للعمـال والطلبـة، وإنمـا كـانت بسبب ممارسات محددة ضد مصالح العمال المباشرة..

وكنموذج لهذه الممارسات يذكر الباحثون في تاريخ هذه الفترة.. إضـراب شبرا الخيمة الشهير. ففـي سبتمبر ١٩٤٥ قـاد الشـيوعيون إضرابـاً شـاملاً وناجحاً في منطقة شـبرا الخيمـة حيـث توقفـت كـل مصـانع المنطقـة عـن العمل، وتشكلت قيادة سرية للإضراب عجز البوليس عن الوصـول إليهـا.. وفي البداية أيدت الجماعة الإضراب لكنها ما لبث أن انسحبت منه وبدأت حملتها ضده بل لقد أرسلت وفـوداً مـن دعاتهـا إلى المنطقـة لإقنـاع العمـال بالعدول عن الإضراب بحجة «أن الديـن يحـرم الإضـراب لأن فيـه خسـارة لأصحاب المصانع من المسلمين»[٣٨].

وعاد عمال شبرا الخيمة إلى الإضراب من جديد، في إضراب أكثر شمولاً وأكثر تنظيماً استمر طوال شهري مايو ـ يوليو ١٩٤٦.. ومنـذ البدايـة وقـف الإخوان ضد الإضراب..

---

(37) **Beinin - ibid P.371.**

(٣٨) محمد حسن أحمد ـ المرجع السابق ـ ص٩١.

واتهم قادة الإضراب - وأيدتهم في ذلك صحف حزب الوفد - أعضاء جماعة الإخوان «بأنهم قد سلموا البوليس قوائم بأسماء وعناوين القادة السريين للإضراب. ونتيجة لهذه المعلومات» ألقي القبض على أكثر من مائة من القادة العماليين[39].

لكن الإضراب استمر رغم ذلك.

وصمم أصحاب المصانع على عدم السماح للعمال بالعودة للعمل إلا إذا تعهدوا كتابة بعدم العودة للإضراب.

وأيدت جريدة الإخوان ذلك ودعت العمال «إلى إنهاء الإضراب والتوقيع على التعهد الذي طلبه منهم أصحاب المصانع ومكتب العمل بعدم اللجوء إلى سلاح الإضراب في المستقبل» وقالت الجريدة أنها «تؤمل بعد عودة العمال للعمل وتوقيعهم على التعهد المطلوب أن تعمل الحكومة على حل مشاكل العمال»[40].

بل إن جريدة الجماعة تواطأت مع السلطات في محاولة تخريب الإضراب فنشرت خبراً غير صحيح يستهدف تصفيه الإضراب فقالت: «أن وفداً من عمال شبرا الخيمة أعلن اعتزام العمال إنهاء الإضراب»[41].

وردت عليها أحدى صحف حزب الوفد ببيان لقيادة الإضراب نفت فيه هذه الواقعة، وأكدت أن الإخوان يتجسسون في صفوف العمال لحساب البوليس[42].

وواصلت صحيفة الجماعة الدفاع عن موقف معلن وصريح يستهدف تصفيه الإضراب وأكدت أن منظمي الإضراب «مهيجون محترفون»[43].

---

(٣٩) الوفد المصري - ٣١/ ٥/ ١٩٤٦.

(٤٠) الإخوان المسلمون ٢/٦/١٩٤٦.

(٤١) الإخوان المسلمون ٢/٢/١٩٤٦.

(٤٢) الوفد المصري ٣/٦/١٩٤٦.

(٤٣) الإخوان المسلمون ٣/٦/١٩٤٦.

وعندما انتهى الإضراب وبدأت الحكومة وأصحاب العمال هجومهم العام على العمال وصدر قرار بحل نقابة العمال بالمنطقة، قرر العمال الامتناع عن تشكيل نقابة جديدة واللجوء إلى القضاء لطلب إلغاء قرار الحل. وكان معلوماً بوضوح أن تشكيل نقابة جديدة يعني شطب القضية، ولكن الإخوان أعلنوا تشكيل نقابة جديدة لعمال شبرا الخيمة ووجهوا بذلك ضربة شديدة للتقاليد النقابية..[٤٤].

وقد أكد العمال رفضهم لهذه الخطوة بمقاطعتهم لهذه النقابة التي لم يزد عدد أعضائها عن ٢٠٠ عضو فقط[٤٥].

ولعل هذه الممارسات كانت كافية تماماً لعزلة الخط الإسلامي عن جماهير العمال برغم جاذبية الدين وتغلغله الشديد في صفوفهم. وفي هذا الصدد يقول مؤلفا «العمال على ضفاف النيل»:

«إن الظروف الموضوعية للطبقة العاملة وأسلوب وتصرفات جماعة الإخوان المسلمين في صفوف هذه الطبقة قد لعبت دوراً حاسماً في فرض محدودية واضحة لدور الإسلام السياسي في حركة العمال المصرين»[٤٦].

ويؤكد Mitchell ذلك أيضاً قائلاً أن عام ١٩٤٨ قد شهد تصفية شاملة لنفوذ الجماعة وسط العمال[٤٧].

لكن الإخوان وبرغم ذلك كانوا يمتلكون مقومات أخرى لتحقيق تواجد ما في صفوف العمال، فالإخوان جماعة غنية حسنة التمويل ومن ثم بدأت في تأسيس العديد من المصانع التي حرصت ألا يعمل فيها إلا أعضاء في الجماعة.. وفي سبتمبر ١٩٤٨ أسست الجماعة «مصنع الإخوان المسلمين للغزل والنسيج بشبرا الخيمة» ونظراً للأهمية البالغة لمنطقة شبرا الخيمة فقد

---

[٤٤] الإخوان المسلمون ١٩٤٦/٧/٥.

[٤٥] الجماهير ١٩٤٧/٥/٥.

[46] Beinin - ibid P.365.

[47] Mitchell- op .cit .P .282.

تولى إدارة المصنع محمد شريف رئيس قسم العمال بالجماعة وكان المصنع يضم ٤٠ آلة و٦٠ عاملاً[٤٨].

ولم يكن هذا المصنع وحده، ففي ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجماعة تمتلك الشركات التالية:

- شركة الإخوان للصحافة.
- شركة الإخوان للطباعة.
- شركة الإعلانات العربية.
- شركة المعاملات الإسلامية.
- شركة العربية للمناجم والمحاجر.
- شركة التجارة والأشغال الهندسية.
- شركة التوكيلات التجارية بالسويس.
- شركة مزرعة العركي (٨٠٠ فدان)[٤٩].

وكان العاملون بهذه الشركات جميعاً يشكلون قاعدة مضمونة للجماعة، كما أن ثراء الجماعة (هناك تأكيدات عديدة بتمويل أجنبي) قد مكنها من إعطاء مزايا للعمال الأعضاء فيها، وتؤكد جريدة الإخوان أن «فرع شبرا الخيمة في قسم العمال بالجماعة كان يصرف للعمال المتعطلين من أعضاء الجماعة كامل مرتباتهم»[٥٠].

ولعل مما يثير الدهشة أن يؤكد نقابي يساري وهو محمد متولي الشعراوي أحد قادة النشاط النقابي في شركة مصر للغزل الرفيع بكفر الدوار «أنه في عام ١٩٤٨ وعندما بدأ نشاطه النقابي يتسبب في تصادمه مع

---

(٤٨) المصور ١٩٥٥/١١/١١.

(٤٩) الإخوان المسلمون ١٩٤٦/٥/١٣.

(٥٠) الوفد المصري ١٩٤٦/٥/٢١.

الشركة انضم لجماعة الإخوان وسدد اشتراك شهرين كي يحصل على ضمانة مالية لمستقبله»[٥١].

كذلك فقد استخدمت الجماعة مختلف أشكال الضغط لضم العمال لصفوفها، وتنشر إحدى الصحف الوفدية «أن أحد رؤساء العمال في شركة النيل بشبرا الخيمة وكان من الإخوان المسلمين حاول أن يضم أحد قادة العمال للجماعة فلما رفض فصله من العمل، وهنا قام العمال بالاعتصام في المصنع مطالبين بعودة زميلهم للعمل»[٥٢].

ويقرر القادة النقابيون في شبرا الخيمة أنه في أعقاب إسهام الإخوان في إفشال الإضراب الكبير (١٩٤٦) بدأ أصحاب المصانع في تعيين العديد من الإخوان كرؤساء للعمال ليضمنوا خصومتهم لأي توجه يساري وسط العمال..

وقد مكن ذلك الجماعة من استقطاب عدد محدود من العمال وإن كان قد أكسبها كراهية ونفوراً وسط الجموع العمالية.

ولعل أحد الأدلة الهامة على ضعف النشاط العمالي للجماعة أن المذكرة التفسيرية للأمر العسكري الصادر بحل الجماعة في ١٩٤٨ تتحدث عن نشاط الجماعة تفصيلاً فتشير إلى نشاطها وسط الطلبة والموظفين والفلاحين ولا إشارة واحدة للنشاط وسط العمال.. إن ثلاثة عشر بندا تتضمنها المذكرة تذكر تفصيلاً أنشطة الجماعة في مختلف مناحي الحياة.. ولا إشارة واحدة للعمال[٥٣].

ويفسر البعض ذلك بأن نشاط الجماعة وسط العمال كان دوماً في خدمة أجهزة الأمن وبالتنسيق معها.

---

(51) **Beinin - ibid P.379.**

(٥٢) الأمر العسكري رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الإخوان المسلمين ٨ ديسمبر ١٩٤٨ – المذكرة التفسيرية المقدمة من عبد الرحمن بك عمار وكيل وزارة الداخلية.

(٥٣) المرجع السابق.

وعندما عادت الجماعة للنشاط في نهاية ١٩٥٠ حاولت أن تتخطى أخطاء الفترة السابقة، وأن تواكب المد الثوري الملتهب والذي اتخذ منحى ثورياً.. وأن تتكلم بلغته كي تكسب موقعاً ما وسط صفوف العمال..

فكتب سيد قطب كثيراً عن اشتراكية الإسلام.. وتنشر مجلة «الدعوة» مقالات ملتهبة تهاجم الرأسماليين (لأول مرة) وتدافع عن حق العمال في الإضراب (بعد أن أكدوا من قبل أنه ضد تعاليم الإسلام).. وثمة مقال لمحمد الفولي بعنوان «أيها الرأسماليون لا تحاربوا النقابات» يهاجم فيها قانون ١٩٤٠ لأنه يحرم تكوين اتحادات عمالية كما أنه يحرم العمال من حق الإضراب الذي هو سلاحهم الوحيد في مواجهة بطش الرأسماليين بهم وبحقوقهم[٥٤].

لكن هذا التطور الجديد لم يستمر سوى فترة قصيرة جداً ولم يثمر نفوذاً ما وسط العمال.. وبدت الجماعة وكأنها تفقد أملها في هذه الطبقة وفي وجود نفوذ حقيقي لها في صفوفها ومن ثم راهنت ومن جديد على القوى الأخرى.

وعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت تتنازعها مواقف متعددة إزاء قضية الطبقة العاملة، واختار الإخوان الانحياز إلى أكثر العناصر محافظة وعداء لحقوق العمال..

وفي الأيام الأولى للثورة تولى د. محمد فؤاد جلال وزارة الشؤون الاجتماعية وهو معروف بأنه من رجال «جمعية الفلاح» ذات التوجه اليميني الواضح، وكان يشرف على أعمال الوزارة من قبل مجلس الثورة الضابط المعروف بتوجهه اليميني وعلاقاته الوثيقة بالسفارة الأمريكية عبد المنعم أمين (وكان أيضاً رئيس المحكمة العسكرية التي حاكمت العاملين خميس والبقري بتهمة تنظيم إضراب في كفر الدوار وحكمت عليهما بالإعدام) ومع هذين الاثنين بالتحديد عمل كمساعد ومستشار للشؤون العمالية سيد قطب أحد قادة الإخوان المسلمين..

---

[٥٤] الدعوة ١٩٥١/٨/٢٨.

ويروى فتحي كامل وهو قائد نقابي مخضرم كيف أنه ذهب إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليتفاوض بشأن تكوين اتحاد عام للعمال.. وحضر الاجتماع الوزير محمد فؤاد جلال، والضابط عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة وشخص لم يعرفه أول الأمر ثم عرف فيما بعد أنه سيد قطب.. ويقول فتحي كامل أن سيد قطب كان أكثر الحاضرين رفضاً لفكرة الاتحاد العام وأكد أن النقابات بحاجة أولاً إلى أن تطهر صفوفها من الشيوعيين(٥٥). ولعله من الضروري الإشارة إلى أن الجماعة بينما كانت تتخذ من خلف الستار مواقف معادية للعمال، كانت وفي هذه الفترة بالذات ـ وكما رأينا من قبل ـ تتخذ موقف المزايدة على الجميع مدعية الدفاع عن العمال.

وكأن من الضروري أن يتواجه اليسار والإخوان في كل موقع عمالي.. فعلى أثر التداخل الصريح لمثل الجماعة لدى وزير الشؤون الاجتماعية في فرض توجهات معادية للعمال ومنها الإصرار على بقاء المادة ٣٩ من قانون عقد العمل الفردي التي كانت تجيز الفصل التعسفي للعمال.. قدم خالد محي الدين أحد القادة اليساريين البارزين بحركة الضباط وعضو مجلس قيادة الثورة استقالته من المجس احتجاجاً.. وجاء في خطاب استقالته «إنني قد فقدت القوة الدافعة على العمل نتيجة أنني أرى أن أقل ما كانت تصبو إليه نفسي من أفكار ومبادئ لا أستطيع تنفيذها..» ويعلن في الاستقالة رفضه لهذه المادة التي أعتبرها ظلماً فادحاً على فئة العمال التي تعتبر العمود الفقري لأي أمة تريد أن تبني مكانها اللائق بين الأمم(٥٦).

ومرة أخرى يهزم التوجه الإخواني إزاء العمال فقد استطاعت استقالة خالد محي الدين أن تستقطب إلى جانبه جمال عبد الناصر الذي كان متغيباً عن الجلسة التي وقع فيها الصدام.. وعقدت جلسة جديدة وتم

(٥٥) أمين عز الدين ـ تاريخ الطبقة العاملة منذ نشوءها في سنة ١٩٧٠ ص ٨٠٩.

(٥٦) رسالة خطية موجهة من خالد محيي الدين عضو مجلس الثورة إلى حضرة المحترم جمال عبد الناصر وكيل مجلس الثورة ـ مؤرخة ١٩٥٣/٣/١ (مسودة خطية).

اتخاذ موقف جديد وبدأ نفوذ سيد قطب يتقلص في مجال وزارة الشؤون الاجتماعية وما لبث أن أبعد عن موقعه..

ولعل مواقف كهذه قد انعكست بالسلب أيضاً على علاقة الإخوان بالعمال..

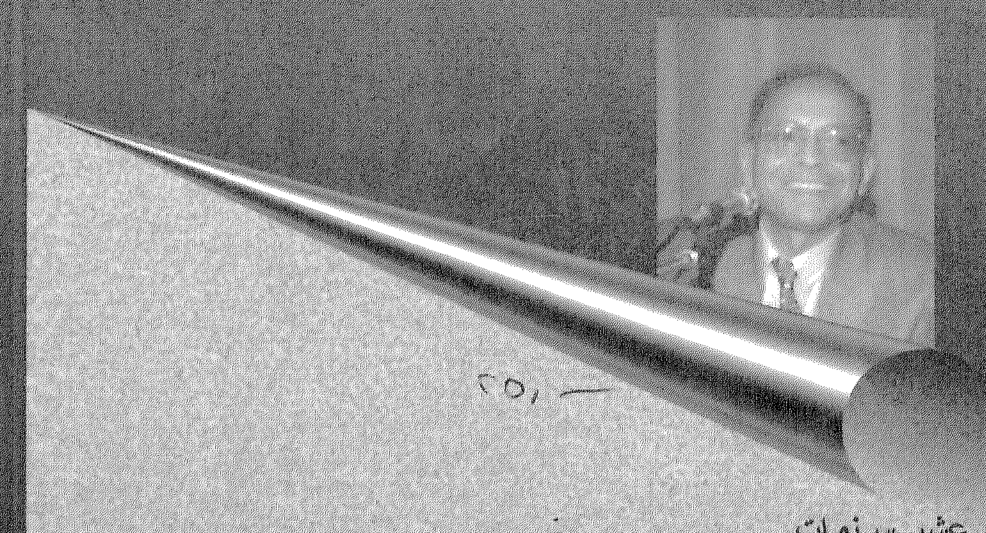
ويمكن القول أن هذه العلاقة ظلت وحتى الآن محدودة، فبرغم تصاعد المد الإسلامي وتزايد نفوذ الجماعات الإسلامية ومنها الإخوان المسلمين وسط فئات المجتمع المختلفة، وبرغم تزايد نفوذ الإخوان في عدد من النقابات المهنية (المهندسين ـ الأطباء) فإن المرشحين الإسلاميين قد فشلوا فشلاً ذريعاً في انتخابات النقابات العمالية الأخيرة.

ولعل ذلك كله ليس منفصلاً عن مجمل مواقف الجماعة سواء الأيديولوجية منها أو العملية.

الفهرس

حسن البنا متى وكيف ولماذا/ رفعت السعيد. ــ دمشق :
دار الطليعة الجديدة، ١٩٩٧. ـ ٢٨٨ ص؛ ٢٢ سم

١ ـ ٩٩٢: البنا، حسن س ٢ـ ٣٢٤,٢٦٢٠٢
س ع ي ح ٣ ـ العنوان ٤ ـ السعيد
ع ـ ١٩٩٧/٨/١٢٠١ مكتبة الأسد



عشر سنوات
وعشر طبعات

طبعات تمددت من القاهرة،إلى بيروت،عدن..تونس..ثم إلى دمشق.
ربما لأن الموضوع متعلق بالحدث الآني، وربما لأن التأسلم السياسي قد تفجر ليفرض علينا التأمل في منبعه الأول..جماعة الأخوان. وربما لأن القول بأن (الإرهاب يبدأ فكراً) قد بدأ يقترب من إقناع من كانوا ينكرونه في السابق.

....

....

وحول هذه المقولة أو الافتراض، مقولة أو افتراض أن الإرهاب يبدأ فكراً، دارت مساجلات عديدة، قديمة وحديثة، وستظل هذه المساجلات مستمرة ما استمرت محاولات تسييس الدين،أو تديين السياسة، تلك التي أورثتنا حالة الخلط المتعمد من جانب البعض بين(الدين) المقدس، وبين الممارسات والأفكار(الانسانية) التي قد تخطىء وقد تصيب، والتي كثيراً ما تخطىء بسبب النزعة التسلطية لأصحابها، تلك النزعة التي يتشحون بها استناداً إلى الزعم بأن فكرهم هو المقدس ذاته، وليس مجرد فهم أو تفسير أو رؤية له.......

رفعت السعيد
من مقدمة الطبعة العاشرة